بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للأستاذ إبراهيم الترزي

كان التتريك ثم التغريب يخيمان على مرافق الدولة وحياتها التعليمية والثقافية . . في كل أرجاء الوطن العربي .

ومع صحوة الحركات الاستقلالية ، واسترداد قدرتها على مواجهة الاحتلال التركي . ثم الأوربي ، واقتحامها المعارك صده في جسارة وقوة وإصرار أخذت الدعوة إلى تعريب الثقافة والتعليم تظهر على الصعيد العربي ، مع كل انتصار تُحرزه هذه الحركات الاستقلالية ، في كل قطر عربي

بدأت حركة تعريب التعليم تتجه إلى المراحل التعليمية التي تسبق مرحلة التعليم العالي والجامعي ثم أخذت تتلمس طريقها إلى هذه المرحلة منذ زمن يناهز خمسين عاماً ، حتى قطعت أشواطاً محدودة في مجالات بعض العلوم ، وبخاصة في مصر وسورية والاردن والعراق

وقد أخذت حركة تعريب التعليم العالي والجامعي تنشط ، وتزدهر ، وتمتد إلى الكثير من العلوم العملية كما أخذت تلح إلحاحاً متواصلاً على المسئولين عن التعليم العالي والجامعي ، حتى أصبحت حركة التعريب قضية قومية تحتشد لها الطاقات ، وتتساند الجهود ، لتغمر ساحة التعليم العالي والجامعي

ولا ريب أن خير معين على ذلك ما فى لغتنا العربية من قدرة فذة على التعبير عن مختلف العلوم ، يشهد لها بذلك تاريخها القديم ، حيث كانت لغة العلم السائدة لعدة قرون ، فى عصور ازدهار الدولة الإسلامية الكبرى .

ولمجمعنا فى القاهرة أعظم إسهام فى تعريب التعليم العالى والجامعى ، وحسبه معجماته العلمية المتخصصة التى يوالى إصدارها فى كل دورة

وفى هذا الجزء من المجلة بحوث ضافية أولت هذا الموضوع حقه من الدراسة والبيان ، وقد كان هو الموضوع الرئيس لمؤتمر هذه الدورة

ابراهيم الترزى

رئيس التحرير

كلمة الدكتور مصطفى كمال حلمي

نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير التعليم العالي والبحث العلمي

الأستاذ الجليل رئيس مجمع اللغة العربية

الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع

سيداتي . سادتي

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد

وإنه ليشرفني أن أفتتح مؤتمركم السنوي الذي يلتقي في رحابه أعضاء المجمع المصريون ، وغير المصريين من الوطن العربي ، والعالم الإسلامي والأجنبي وتحية خالصة لكم ، وتهنئة طيبة بانعقاد مؤتمركم المجمعي ، الذي تحكمون فيه على ما أنجزه المجمع خلال عام ، من مصطلحات علمية ، وألفاظ حضارية ، وقرارات ومواد معجمية كما تقدمون فيه بحوثاً تعالج قضايا علمية وتعليمية ، لغوية وأدبية وغير ذلك من القضايا التي تشغل الباحثين والدارسين ، بل تشغل العالم العربي ، وكل دارس للغتنا في الشرق والغرب .

أيها السادة الأجلاء

لقد أسعدني أن يكون الموضوع المقترح لمؤتمركم « قضية تعريب التعليم » ، فهي قضية طال عليها الأمد ، شغلت الأمة العربية ، وما زالت تشغلها ، حتى صار علاجها أملا قومياً لكل عربي

وإني بوصفي من العاملين في مجال ... والتعليم . أشكر لكم هذه الالتفاتة العلمية . لبحث « تعريب التعليم » ، ورصد الجهود التي تبذل لتحقيقه ، وبيان السبل التي تصل بنا إلى غايته المنشودة

ولا يفوتني — في هذا المقام — أن أشير بكل الإعزاز والاعتزاز إلى ثراء لغتنا العربية في الميادين العلمية . وإلى ما تمتاز به من قدرة على التعبير العلمي ، في مختلف صوره مصطلحا وأسلوباً ، وفي مختلف مستوياته ومجالاته يشهد بذلك ماضيها العريق ، حين كانت سيدة اللغات في العالم كله ، بما استوعبته من علوم نقلتها عن اليونانية والفارسية والهندية ، وبما أبدعه العقل العربي الخلاق من حضارة علمية وأدبية وفنية ، ظلت مزدهرة طوال قرون عديدة وما كان للنهضة الأوروبية أن تظهر في ذلك الحين إلا بهذا العطاء العلمي الوافر لحضارتنا الأصيلة الخالدة

وإذا كان هذا شأن لغتنا في الماضي فهي جديرة باستعادته في الحاضر ؛ ومؤهلة لأن تكون في طليعة اللغات العالمية ، بالجهود المتواصلة لأبنائها العلماء .

(*) ألقيت في الجلسة الافتتاحية ٢٨ / ٢ / ١٩٨٥ م

وكم أشعر بالسعادة والفخر حين أرى مجمعكم قد أخرج –إلى جانب معجماته اللغوية– عديداً من المعجمات العلمية المتخصصة، وهي: المعجم الجيولوجي، والمعجم البيولوجي، ومعجم الميزيقا الحديثة، ومعجم الميزيقا النووية، والمعجم الجغرافي، والمعجم الفلسفي، ومعجم ألفاظ الحضارة والفنون

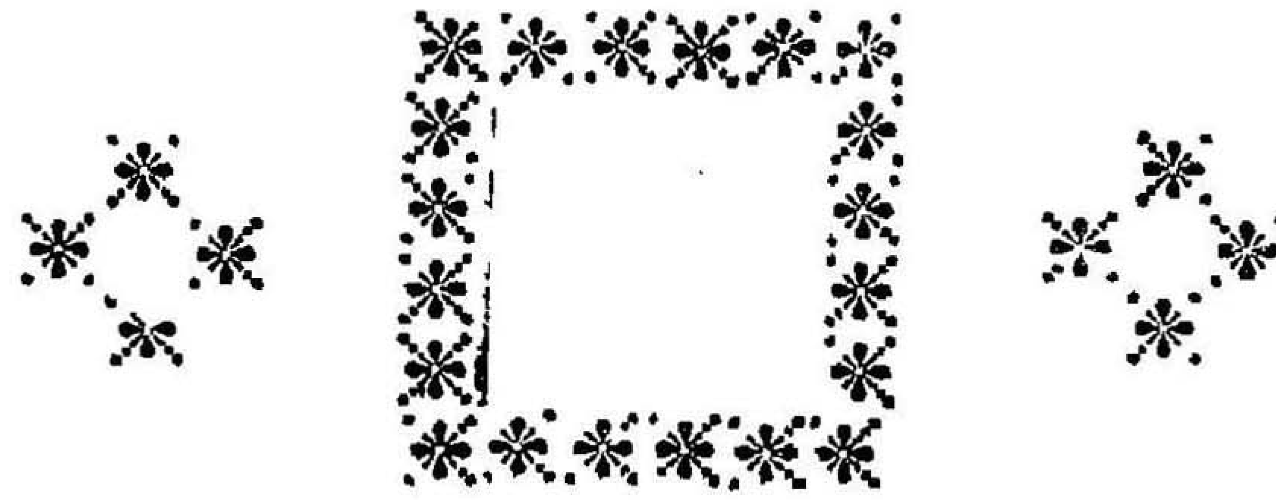
هذه المعجمات العلمية وما سيتلوها من معجمات في الطب والهندسة، والرياضة، والأحياء والزراعة، والكيمياء والصيدلة، والتربية وعلم النفس، والقانون، والاقتصاد والتاريخ، وغير ذلك من المعجمات، ستكون الدعائم الراسخة للتعريب

ولهذا كان مجمعكم – منذ إنشائه – معقد آمال أمتنا العربية في «تعريب التعليم» على أسس علمية قومية.

ولعل اختياركم لهذا الموضوع، لبحوث مؤتمركم، إيذان بالبدء في تعميم حركة التعريب في وطننا العربي.. فقد آن الأوان لأن تؤتي ثمارها المرجوة على أوسع نطاق، وفي كل مستويات التعليم ومراحله. وإنني لأتطلع إلى تلقي بحوثكم في موضوع «تعريب التعليم» ولا يفوتني التنويه بحرصكم على عقد جلسة علمية للجمهور المثقفين، يلقي فيها الزميل الدكتور محمود حافظ محاضرة صافية في هذا الموضوع

أسأل الله تعالى أن يحفظكم سدنة وحماة للغتنا الخالدة

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،



كلمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع (*)

السيد نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم العالى والبحث العلمى .

سيداتى سادتى

يسعدنى حقاً أن أرحب باسمى واسم زملائى المصريين بضيوفنا الكرام ، من أعضاء عاملين ومراسلين أرحب بهم جميعا متمنيا لهم طيب الإقامة خاصة بتعاونهم الصادق وعطائهم السخى ، وقد عول مجمعنا منذ إنشائه على هذا التعاون ، فكون فى البداية من هيئة واحدة يلتقى فيها المصريون مع زملائهم من العرب والمستعربين فى دورة سنوية تدوم نحو شهرين وتعقد ما يقرب من خمس وثلاثين جلسة ، وفى هذه الجلسات تدرس المشاكل اللغوية والأدبية المختلفة ويرسم منهج العمل وتوضح تقاليد البناء المجمعى الذى أسهم فيه معنا إخواننا من العرب والمستعربين. وسار الأمر على هذا النحو حتى عام أربعين حين توقفت دورة المجمع بسبب الحرب العالمية الثانية ، وكان لابد أن نهيئ السبيل لاستعادة الشمل. وفعلا ، رفع عدد الأعضاء من عشرين إلى اثنين وثلاثين عضوا ، وتابعنا السير على الطريقة المألوفة ، وأذكر أنه كان من أعضاء مجمع اللغة العربية — أثناء الحرب العالمية الثانية — ضباط فى جيوشهم قعدوا إلى جانبنا وجلسوا معنا فى زيهم العسكرى ولم تمنعهم الحرب وويلاتها من أن يسهموا معنا . وتخفيفا وتيسيرا على الزملاء ، انتهينا إلى تكوين هيئتين إحداهما مجلس المجمع ، الذى ينعقد طوال ثمانية أشهر ، ويعقد كل أسبوع جلسة على الأقل ؛ وفى خلال هذه الأشهر الثمانية ، يلتقى معنا أيضا ضيوفنا الأعضاء العرب والمستعربون ، يلتقون فى دورة تدوم شهراً أو نصف شهر على نحو ما بدأنا ، ثم رؤى تقديرا لارتباطاتهم وأعمالهم فى بلادهم ، أن نهبط بهذه المدة إلى أسبوعين كاملين ، على أنا ، إلى جانب هذا ، نحرص دائما على أن نبعث إليهم بما تنتهى إليه لجاننا المتخصصة ومجالسنا ، فهم على صلة دائمة بنا طوال العام .

ومن مبدئنا : ألا يتخذ قرار لغوى ولا يعتمد إلا إذا أقره المجمع فى لقائه السنوى. ومطبوعاتنا : مجلاتنا، كتبنا، تحقيقنا، معجماتنا لإخواننا فيها إثراء وعطاء ملحوظ ولا نتردد فى أن نبعث إليهم مستفسرين ومستجوبين ومستوضحين ، وبخاصة فيما يتعلق ببعض المسائل الإقليمية ، وأعتقد أن أسماء الجزيرة العربية — على سبيل المثال — مدينة لزميل كريم وجليل ، هو الأستاذ حمد الجاسر، نبعث إليه بها ونسجل ما يقترحه

(*) ألقيت فى الجلسة الافتتاحية ٢٨ / ٢ / ١٩٨٥ م

ليظهر في معجمنا الكبير — على أننا إلى جانب دراساتنا المتخصصة درج مؤتمرنا على أن يعالج مشكلة من مشاكلنا اللغوية الكبرى . وقد عالج من قبل — مثلا — لغة الصحافة ، كما عالج تعليم اللغة العربية . إلى غير ذلك من موضوعات نحرص دائما على أن تجتمع فيها الكلمة بين شيوخ العروبة في العالم العربي جميعه . وها أنتم أولاء ترون — وقد استمعتم إلى حديث السيد النائب — أننا في هذه المرة نعالج مشكلة من مشاكلنا الكبرى . وهي مشكلة تعريب التعليم في مختلف مراحله . وبخاصة في التعليم العالي والجامعي . ولست في حاجة أن أقول لكم إن النهضة العلمية الإسلامية الأولى . قامت على أساس من التعريب . لأنها اعتمدت على حركة ترجمة دامت نحو قرنين أو يزيد . أخذت عن المصادر الأجنبية المختلفة . كما أشار السيد النائب هذه الحركة العلمية التي بدأت في القرن الثاني للهجرة ، واستمرت نحو قرنين متتاليين . وكانت لها آثارها على الفكر الإنساني بعامة عدنا إليها مرة أخرى في نهضتنا الحديثة ، فحين أنشأ محمد علي مدارسنا العالية في الطب والهندسة كان يقوم فيها المدرسون بلغات أجنبية . ولكنا التزمنا — بجانب هذا — أن نترجم دروسهم إلى اللغة العربية . وما تزال بين أيدينا مؤلفات عربية من ثمار هذه الحركة العلمية في أوائل القرن الماضي ، وكان من دعائمها . رفاعة الطهطاوي ، ثم جاء محمد عبده بعد ذلك ، فشدد الدعوة لتقوم هيئة على العناية باللغة وتطويرها لتفي بحاجات العصر . ولقد اشترك في مجمع أهلي في أخريات القرن الماضي ثم تتابع الأمر بعد هذا بأن أنشأنا — في بدء هذا القرن — جامعة أهلية هي الجامعة المصرية القديمة ، وليس بغريب أن يكون التعليم في هذه الجامعة باللغة العربية . سواء أكان على أيدي مصريين أم مستعربين . أذكر على سبيل المثال أن من ثمار هذه الجامعة المصرية القديمة كتابا للمستشرق نلينو في تاريخ الفلك العربي ، ما يزال يعد حجة للدارسين في تاريخ الفلك حتى اليوم ، وكان من آثار هذا أن اتجه سعد زغلول نحو الدعوة إلى التعليم في مرحلة التعليم العام باللغة العربية ، وعلى الرغم مما كان للاستعمار الإنجليزي من أثر في هذا ، وسرنا في هذا حتى اليوم .

وأستطيع أن أقول إن مرحلة التعليم العام في مصر تقوم أساسا على اللغة العربية ، اللهم إلا أن خالطها شيء من العامية . أما تعليمنا الجامعي فدراساتنا الإنسانية كلها من قانون وتاريخ وفلسفة ، فكلها تدرس باللغة العربية وتؤلف فيها كتب تعد حجة في موضوعها .

على أن الأمر يتطلب أن نتابع السير ، ولا شك في أن الدراسات العلمية من فلك وطبيعة وكيمياء أخذت طريقها ، ولكنها لا تزال في حاجة إلى تعهد ومتابعة ، وربما كانت دراسة الطب من الدراسات التي يقال إن العربية لم

تهيء ألها ، واسمحوا لى أن أقرر أن هذا ظالم للواقع والتاريخ ، فقد كتب الطب بالعربية وعمدته كتب قديمة ترجمت إلى اللغة اللاتينية والعبرية معا كالقانون لابن سينا والحاوى للرازى .

وقانون ابن سينا بالذات ترجم إلى اللاتينية وبقى عمدة الدراسات الطبية فى أوربا طوال أربعة قرون : من القرن الثالث عشر الميلادى إلى القرن السابع عشر ولست فى حاجة أن أقول أيضا إن كتاب القانون هذا نشر أول ما نشر باللغة العربية فى روما قبل أن ينشر فى العالم العربى نفسه

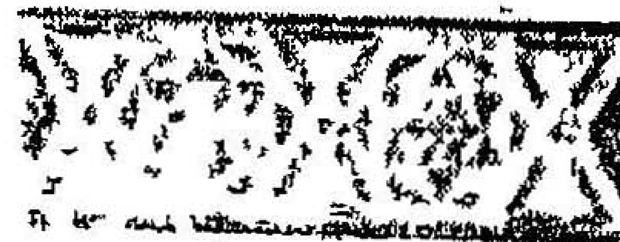
كل هذا يثبت أن لغتنا جديرة ومهيأة لأن تؤدى رسالتها فى أى مادة من مواد العلوم الطبيعية أو الرياضية وأحب أن أشير إلى تجربة بدأتها كلية طب مصرية فى جامعة عين شمس ، أعتقد أنها تجربة هادئة متدرجة تعالج الأمور فى حكمة وتقيم أود العربية فى تدريس الطب وتعزز تدريس اللغة الإنجليزية ، بدليل أنها ألزمت طلابها بدرس إنجليزى طوال ثلاث سنوات فى مرحلة البكالوريوس ، وفتحت الباب للغات أخرى أجنبية فى مرحلة التخصص التى تلى هذه من فرنسية أو إنجليزية ، أما العربية فإنهم يدرسون الآن الطب النفسى باللغة العربية ، وأخلاقيات الطب أيضا باللغة العربية ، وكذلك الطب الإكلينيكى — كما يسمى — يدرس باللغة العربية

وأنا إنما أعبر — فى هذا كله — عن لوائح وتنظيمات وضعت منذ ثلاث سنوات ، وكان من ثمارها أن رسالة الدكتوراة أو الماجستير إذا ما كتبت باللغة الإنجليزية لا بد أن يعد لها ملخص باللغة العربية ولا أشك فى أن الطالب المصرى الذى يعد نفسه ليكون طبيب المستقبل يسعده أن يعرف كيف يحدث مريضه بلغته وكيف ينقل إليه أفكاره بلغته أيضا .

تلك تجربة أشرت إليها لأنها تدلنا على الطريق ونحن ، ولا شك ، سائرون وأنا واثق كل الثقة من أن العربية ستستعيد مكانتها كتابة وتأليفا وتدريسا ستجد ذلك كله فى ميادين التخصص المختلفة

وشكرا لكم جميعا على كريم استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



كلمة الأستاذ عبد السلام هارون
الأمين العام للمجمع

السيد الدكتور رئيس الوزراء ووزير التعليم العالي والبحث العلمي

السيد رئيس المجمع

السادة الزملاء الأجلاء من مصر وشقيقاتها

الضيوف الأعزاء من مصر وسائر الوطن العربي .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وأثابكم [illegible] تخفق به قلوبكم من حب وولاء للغتكم العربية التي تجمع شعوبنا على [illegible] واحد . والأمل الواحد مهما تباعدت الأرض في شرقيها أو غربيها ، وشمالها أو جنوبها .

إن لغتنا هي الأمة العربية في أعماقها ، وهي في [illegible] ويغضب الله ويغضب [illegible] من يفرط في حقها أو يجور في سبيل شأنها .

نحن جميعا أمناء على لغتنا لغة القرآن ، حريصون على كيانها وعلى نقائها وتنمية تعبيرها ، وعلى رفع شأنها في هذا الخضم العرم من لغات الناس في هذه الأرض . [illegible] من ضل عن منهجها المحكم ، ومسلكها [illegible] سواء السبيل .

ونحن [illegible] يوم وما نجتمع في كل عام للحج إلى هذا المؤتمر إلا لنجمع قلوبنا المتزامنة في نضالها ، وعقولنا المتناسقة في خلجاتها ، وآمالنا المتساوية في أهدافها على خير ما يجمع هذا كله وهو الجلوس في مؤتمرنا لنتشاور ، يعلو فيه الحق ، ويندحر الباطل والشك بإخلاص في النية ، ومسارعة الى انتهاج أقوم السبل ، في خدمة لغتنا الخالدة ، وأنتم صفوة العلماء ونخبة الرجال ، الذين يمثلون ثقافة بلادهم أصدق تمثيل ، كما يمثلون عزة العلم وسلطان الحق النبيل .

هذه عودة كريمة أخرى نحظى فيها باللقاء جميعا على مدى أسبوعين لنتدارس ما أنجزته لجان مجمعكم الجامع ، وما أقره مجلس المجمع في هذا العام بعد انفضاض الدورة السابقة التي مرت كأنها الأمس . كما أن هناك بحوثا تلقى ، ودراسات تقدم فيكون موضع مناقشة ومدارسة مثمرة إن شاء الله . وما ذلك إلا رغبة منا جميعا في رفع شأن الفصحى والبرهان على صدق طواعية كلماتها ومشتقاتها وأساليبها للتعبير السليم في مجالات العلم والآداب والفنون .

إن قرارات مجمعنا ، وهي وليدة الشورى والتحقيق الجماعي ، إنما تستمد شرعيتها من هذا المؤتمر الذي هو بمثابة المحكمة العليا التي

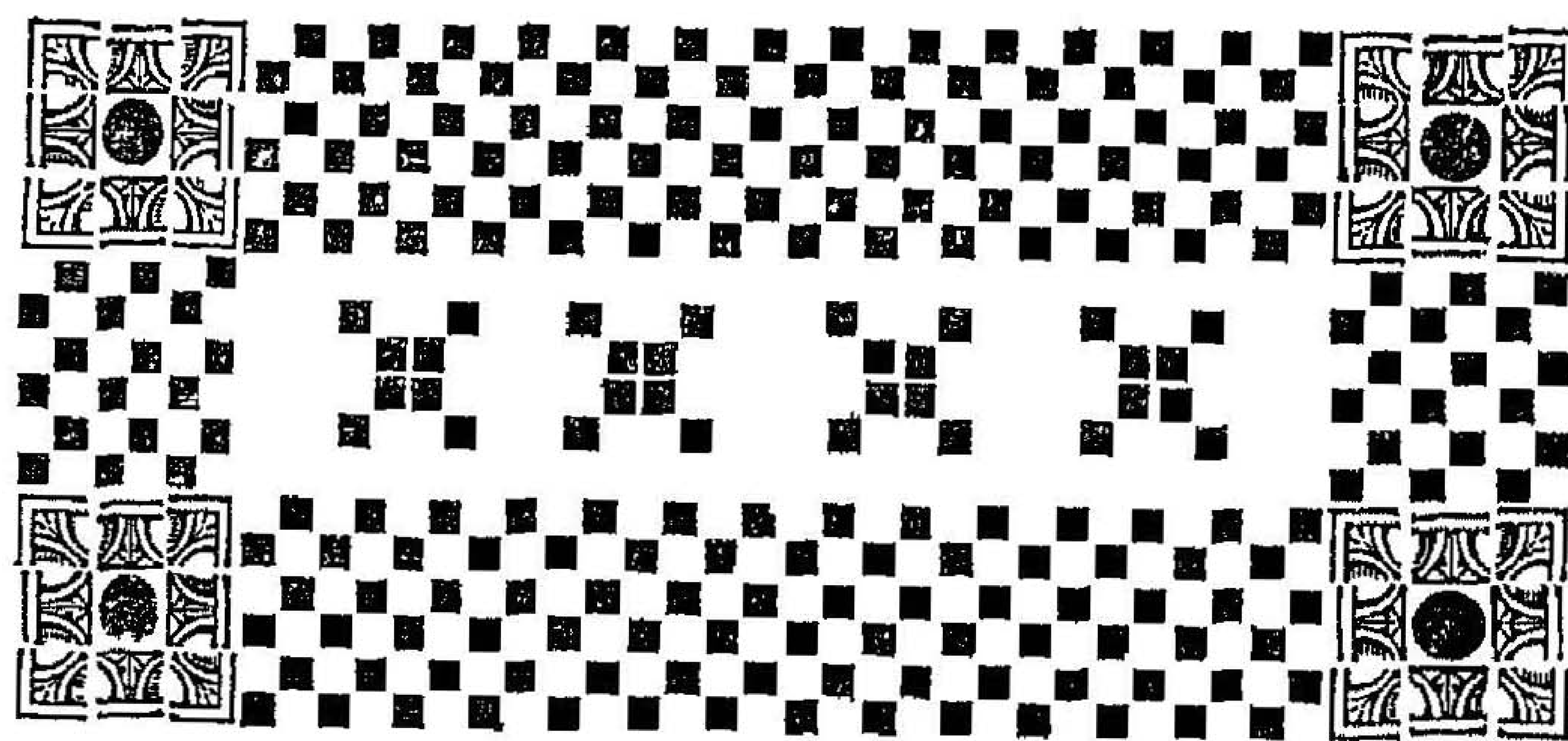
---

* ألقيت في الجلسة الافتتاحية ٢٨ / ٢ / ١٩٨٥ م .

لها السلطان الأعلى ، ولا فضل هنا لرأى على رأى إلا بما ينال من إجماع ، أو ما يحظى به من رضوان .

إن مجامعنا كلها تقوم على الشورى الفكرية والعلمية ، وعلى إنكار الذات وإنكار الذوات أيضا. ومن هنا كان لابد للمخطئين أن يحاولوا النيل من جهودكم السامية التى تسرى وحدها إلى مسارها دون ضجيج أو هدير . وهل القول بأن المجمع ليست له مجلة ناطقة مع أنه قد صدر من أعدادها زهاء الخمسين مجلدا ضخما فخما ، إلا إنكار للواقع بالعمد ، أوهو ضرب من القول غير المسئول ؟ وهل هذه المعاجم التى أصدرها المجمع التى كادت أن تربى على العشر ، هل هذه المعاجم العتيدة إلا وليدة جهد خارق غير مصحوب كما قلت بضجيج أو هدير إنما يعرف الفضل من الناس ذووه وليس يفوتنى أن أعبر — بالنيابة

عن مجمعكم — عن عظيم شكرنا وتقديرنا لحضوركم أيها الزملاء العرب الأشقاء . والزملاء المستعربون الأصدقاء . راجين لكم طيب الإقامة فى بلدكم هذا



المجمع بين مؤتمرين

كان العام الماضى مناسبة طيبة للاحتفال بالعيد الخمسينى للمجمع . وقد وفد إلى هذا العيد من دعى إليه من الأعضاء العرب وجميع الأعضاء المراسلين من العرب وغيرهم والممثلون للمؤسسات العلمية والثقافية ، والجامعات المصرية والعربية والإسلامية ومندوبو الإعلام

وقد استمر انعقاد الاحتفال بهذا العيد على مدى أربعة أيام نشر فيها ما كان مطويا من تاريخ المجمع وجلائل أعماله وتطوره الوثاب على مدى نصف قرن ، وألقى فيه من البحوث الجادة المستفيضة ما سيظهر منشورا فى كتاب

كما أصدر المجمع بهذه المناسبة التاريخية كتابين .

أحدهما . مع الخالدين بقلم الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع والثانى · مجمع اللغة العربية فى خمسين عاما للزميل الأستاذ الدكتور شوقى ضيف

المؤتمر السابق :

كان المؤتمر السابق — كما هو المعهود — حافلا بالنشاط ، زاخرا بالمواد التى قامت شاهد صدق على خصب اللغة العربية وحيويتها وثرائها ، فانعقدت خلاله إحدى عشرة جلسة ، منها اثنتان علنيتان · إحداهما كانت لبسط يد الوفاء فى تأبين المغفور له الأستاذ الدكتور عبد الرازق محيى الدين عضو المجمع من العراق ، والثانية كانت لتأبين المغفور له الأستاذ أحمد توفيق المدنى ، عضو المجمع من الجزائر .

أما الجلسات التسع الباقيات فكانت مغلقة عرض فيها على المؤتمر ما أعدته لجان المجمع وأقره مجلسه من مصطلحات فى

— الفيزيقا

— العلوم الطبية

— الفلسفة

— الكيمياء

— التاريخ والآثار المصرية والإسلامية

— علم النفس والتربية

— التكاليف

وبعد مناقشة فى هذه الجلسات تواصلت على مدى تسعة أيام أقر المؤتمر أكثر ما عرض عليه من هذه المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية والمواد المعجمية ، كما أقر المؤتمر القضايا التالية من أعمال لجنة الأصول ، وهى ·

— حذف أن فى بعض الأساليب المعاصرة

— إن وأخواتها النونيات إذا اتصل بها الضمير « نا »

— جمع فعلة على فعل .

وأقر أيضا ما عرضته عليه لجنة الألفاظ والأساليب من ألفاظ وتعابير تناولت

- الحديد فى دلالة التعبير .

- الشفرة

- عشر كلمات على صيغة فعيل بمعنى مفعول

- ملحظ ، ملحوظة ، ملاحظة .

كما وافق على الموضوعات التالية من أعمال لجنة اللهجات :

- ظواهر لغوية من لهجة طيء القديمة

- دراسة فى لهجة بنى أسد

- الأحبال الصوتية

كذلك حفل المؤتمر ببحوث لغوية وأدبية وفلسفية ، كما كان للشعر نصيب ملحوظ فى أعماله أيضا بقصيدة « الوجود » للزميل الأستاذ الدكتور حسن على إبراهيم ، وبقصيدة أخرى للزميل الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب عضو المجمع من السودان التى حيا فيها المجمع وهنأه بعيده الذهبى

وفى الجلسة الختامية أصدر المؤتمر التوصيات التالية :

- يوصى المؤتمر أن يتحقق التعاون بين المجامع العربية والجامعات والهيئات العلمية لتوحيد المصطلحات العلمية حتى نصل إلى لغة علمية موحدة .

- أن تعنى وسائل الإعلام جميعها بالتزام العربية الفصحى نطقا وأداء مع وجوب تعيين مصححين متخصصين لكل ما يكتب فى الصحف والمجلات أو يذاع من أخبار ومواد مختلفة ، يقومون بتقويم الألفاظ وضبطها ضبطا دقيقا . وأن يعنى فى الإذاعة والتلفزيون خاصة بتنمية المهارات والقدرات اللغوية بمحاضرات يلقيها على المذيعين متخصصون فى اللغة العربية

- يوصى المؤتمر بأن تلتزم مسارح الدولة باللغة الفصحى فى تمثيلياتها ، ويطلب إلى مسارح القطاع الخاص أن ترتقى بلغة تمثيلياتها إلى مستوى الفصحى تدريجيا .

- يوصى المؤتمر بأن يلتزم أساتذة الجامعات ومدرسو المدارس المختلفة باستعمال اللغة الفصيحة السهلة فى إلقاء المحاضرات والدروس ، وكذلك فى المناقشات والمحاورات

- يوصى المؤتمر أن تزود مكتبات مدارس التعليم العام بتسجيلات المصحف المرتل لتمكين الطلبة من محاكاة الفصحى والنطق بها نطقا سليما ، وأن تهتم وزارات التربية بزيادة رصيد الطلبة من محفوظ القرآن الكريم ليزداد وعيهم بالألفاظ والأساليب القرآنية .

- لاحظ المؤتمر تدهور مستوى النصوص التى تقدم إلى الطلبة ولا سيما نصوص الشعر لذلك يوصى وزارات التربية والتعليم بضرورة البعد عن النصوص التى تصدر عن أقلام غير معترف بها .

- يوصى المؤتمر بأن تقلل وسائل الإعلام من الاهتمام بالآداب الشعبية لتريد من ناحية أخرى اهتمامها بالأعمال الأدبية الرفيعة التى تلقى الآن ترحيبا من مختلف الطبقات على امتداد العالم العربى.

٤- وجوب مراقبة الخطب العامة على اختلاف أنواعها من جهة ألفاظها ، ومن جهة ضبطها لما لها من آثار خطيرة فى توجيه لغة الجماهير ونطقها وأن تبلغ هذه التوصية إلى مختلف الجهات الرسمية ، ولا سيما وزارة الأوقاف التى تخاطب الجماهير أسبوعيا ، لتلقى العناية الواجبة .

أعمال المجلس واللجان فى الدورة الحالية :

عقد مجلس المجمع تسعا وثلاثين جلسة منها ثلاث جلسات علنية استقبل فى إحداها ثلاثة من الزملاء الجدد فازوا بعضوية المجمع هم :

- فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد الطيب النجار

- الأستاذ الدكتور محمد طه الحاجرى

- الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

أما الجلستان الأخريان فكانتا لتأبين اثنين من أعضاء المجمع الراحلين هما :

- المغفور له المهندس أحمد عبده الشرباصى

- المغفور له الشيخ أحمد هريدى .

كما فجع المجمع بفقد عضو آخر من أعضائه هو المغفور له الأديب الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن الذى كان فقده خسارة كبيرة لدولة اللغة والأدب والشعر ، وسيقوم المجمع بتأبينه فى إحدى جلسات هذا المؤتمر العلنية إن شاء الله .

أما سائر الجلسات فكانت مغلقة نظر المجلس فيها ما أجرته لجان المجمع من مصطلحات فى :

- الجيولوجيا
- الكيمياء والصيدلة
- الفيزيقا
- الرياضة
- هندسة القوى الميكانيكية .
- علوم الأحياء والزراعة .
- العلوم الطبية .
- ألفاظ الحضارة .

وثمة لجان أخرى كان لها نتاج وفير من المصطلحات ، وسيتم عرضها على المجالس عقب انتهاء المؤتمر إن شاء الله ، وهذه اللجان هى :

- لجنة النفط
- علم النفس والتربية
- الاقتصاد

— الفلسفة :

- المعالجة الإلكترونيه للمعلومات

مسابقات المجمع :

كان موضوع المسابقه الأدبية للعام الماضى هو « لغة الصحافه وتطورها من ثوره سنه ١٩١٩ حتى العصر الحاضر » وقد تقدم إليها كثيرون فاز من بينهم الأستاذ عبد العزيز أحمد موسى بالجائزه الثانيه أما الجائزة الأولى فقد حجبت هذا العام لعدم ارتقاء شيء من الإنتاج المقدم الى مستواها

كما أعلن عن مسابقه فى إحياء التراث لعام ٨٤ - إلى ٨٥ يتناول موضوعها إحياء كتاب فى متن اللغه العربيه أو احد علومها أو تحقيق نص من نصوصها الأدبيه شعرا أو نثرا

وأعلنت لجنه الأدب بعد موافقه المجلس عن مسابقتها فى هذه الدوره الحاليه ، وموضوعها « القاهره فى الأدب العربى قديمه وحديثه » .

مطبوعات المجمع :

أصدر المجمع فى هذه الدوره المطبوعات التاليه :

-- المعجم البيولوجى .

-- معجم الكيمياء والصيدله .

- معجم علم النفس والتربيه

— معجم الفيزيقا الحديثه (الجزء الأول)

— الجزء السادس والأربعون من مجلة المجمع .

— الجزء السابع والأربعون من مجلة المجمع .

— الجزء الثامن والأربعون من مجلة المجمع .

— المجلد الرابع والعشرون من مجموعة المصطلحات العلمية والفنيه

— ملحق الدورة السادسة والأربعين

— الجزء الأول من كتاب غريب الحديث للهروى تحقيق الدكتور حسين شرف ومراجعه عبد السلام هارون

— الجزء الثانى من كتاب غريب الحديث للهروى بتحقيق الدكتور حسين شرف ومراجعه المرحوم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

هذا إلى أنه فى قيد الطبع أيضا هذه الكتب والمجموعات

١ — محاضر جلسات المجلس للدورة ٤٨

٢ — محاضر جلسات المؤتمر للدورة ٤٨

٣ — محاضر جلسات المجلس للدورة ٤٩

٤ — محاضر جلسات المؤتمر للدورة ٤٩

٥ — الطبعه الثالثة من المعجم الوسيط ، وهى طبعه جديدة منقحة أضيف إليها الكثير من المواد التى استدركت على الطبعتين السابقتين وأسف لعدم وجود الفرصة الآن لتقديمه كاملا إلى الساده الضيوف فى هذا المؤتمر .

٦ — الطبعة الرابعة من معجم ألفاظ القرآن الذى أعيد تنقيحه وتنسيقه على أيدى لجنة مختارة ، ويجرى العمل الآن على تقديم الجزء الأول منه إلى المطبعة

٧ — الجزآن الأول والثانى من كتاب « التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة » من تأليف السيد مرتضى الزبيدى بتحقيق الأستاذ مصطفى حجازى مراجعة الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام .

٨ — شرح شواهد الإيضاح لأبى على الفارسى . من تأليف العلاء ابن برى بتحقيق الدكتور عيد مصطفى درويش ومراجعه الأستاذ الدكتور مهدى علام

صلات المجمع الثقافية :

يحرص المجمع على توثيق صلاته بالمجامع والهيئات والمؤسسات الثقافية فى مختلف البلدان . وفى شتى المناسبات . وفى إطار هذا اشترك المجمع فى الاحتفال الذى أقيم فى مدينه دو دابست بالمجر . احتفالا بالذكرى المئويه لولد المستشرق المجرى الدكتور عبدالكريم جرمانوس وذلك ببحث للأستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان

كما أسهم فى الندوة التى أقامها الاتحاد الدولى للأكاديميات فأناب عنه فى حضورها الزميل الأستاذ الدكتور مجدى وهبه

كذلك شارك المجمع فى الندوه التى أقامتها كليه الآداب جامعه الإسكندرية إحياء للذكرى المغفور له الأستاذ محمد خلف الله أحمد عضو المجمع

ولم تنقطع صلة المجمع بمكتب تنسيق التعريب بالرباط ؛ فقد تلقى المجمع من هذا المكتب مشروع « معجم الكيمياء العامة » « كما تلقى مشروعات لثلاثة معاجم فى « التربيه وعلم النفس » و « الفيزيقا » والفاظ الحضارة وأحيلت جميعا على اللجان المختصة بالمجمع لترى رأيها فيها

أعضاء جدد للمجمع :

سعد المجمع بضم عدد من العلماء الأكفاء إلى عضويته . وكان هذا العام عاما خصبا بضم إلى عضويته اثنى عشر عضوا عاملا أربعة منهم من المصريين . وخمسة من العرب وثلاثة من المستشرقين أما الأعضاء المصريون فهم

١ — الأستاذ الدكتور حسين مؤنس — أستاذ التاريخ السابق بكليه الآداب — جامعة القاهره

٢ — الأستاذ الدكتور عبد العظيم حفنى صابر أستاذ الصيدله بجامعة القاهره وهو من أوائل الخبراء الذين دخلوا المجمع .

٣ — الأستاذ الدكتور محمود على مكى — أستاذ الأدب الأندلسى بكليه الآداب جامعه القاهرة

٤ — الأستاذ الدكتور كمال بشر — أستاذ الدراسات اللغوية بكلية دار العلوم .

ويسعدنا أن نعلن صدور قرار السيد رئيس الجمهورية باعتماد انتخاب هؤلاء أعضاء في مجمع اللغة العربية . وباسم المجمع نقدم إليهم التهنئة بهذا التكريم أما الأعضاء العرب فهم .

١ — الأستاذ الدكتور أحمد عبد الستار الجوارى من العراق .

٢ — الأستاذ الدكتور حسنى سبح من سوريا

٣ — الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب من سوريا .

٤ — الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة ، رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى .

٥ الأستاذ الدكتور أحمد طالب الإبراهيمى . من الجزائر .

وأما الأعضاء المستشرقون فهم .

١ رودلف زلهايم (من ألمانيا)

عضو المجمع المراسل منذ عام ١٩٧٦

٢ — جاك بيرك (من فرنسا)

أستاذ التاريخ ، والتاريخ الاجتماعى الإسلامى فى الكوليج دى فرانس .

٣ — روبرت سرجانت (من بريطانيا)

أستاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج

وقبل أن أختتم كلمتى هذه لا يفوتنى أن أنوه باعتذار بعض السادة الزملاء الذين حالت ظروفهم دون تمكنهم من الاشتراك فى هذا المؤتمر :

وهم السادة .

١ — الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلى رئيس المجمع العلمى العراقى

٢ — الأستاذ الدكتور ناصر الأسد عضو المجمع من الأردن

٣ — الأستاذ الشاذلى القليبى عضو المجمع من تونس .

٤ — الأستاذ عبد الله بن خميس عضو المجمع المراسل من السعودية

وعسى أن نظفر بمشاركتهم لنا فيما نستقبل بإذن الله

أيها السادة

إليكم جميعا تحياتنا وشكرنا وتقديرنا لتشريفنا بحضوركم وأنتم أيها الإخوة الكرام ، والزملاء الأعزاء من أعضاء المؤتمر ، ذوى النسبة العربية الواحدة والحقيقة الإسلامية الواحدة ، والفطرة العالمية الواحدة ، إليكم أيها الأشقاء الأصفياء من مجمعكم تحية الود أصدق ما يكون الود ، وأمنية الأخوة أن يحفظكم الله سبحانه ، وأن يرعى مساركم ومواطنكم أينما تكونون منها ، وشكرا لاستجابتكم لدعوة الأم الواحدة والوطن الواحد .

والسلام عليكم ورحمة الله

عبد السلام هارون
الأمين العام

كلمة الأعضاء العرب

للأستاذ محمد بهجة الأثري

حضرة السيد الجليل نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم العالي والبحث العلمي

حضرة السيد الجليل رئيس مجمع اللغة العربية

السادة الزملاء الأجلاء وشهود الاحتفال

تؤثر مجمع اللغة العربية من سادة وسيدات السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

في مثل هذا اليوم من العام الهجري الذي انصرم وفي هذه القاعة . قاعة جامعة الدول العربية . احتفل مجمع اللغة العربية بعيده الذهبي . لانقضاء خمسين عاما على إنشائه في كنانة العرب . وإطلالا على أعوام تلك من شرفات جهاده الأكبر في سبيل لغة العربية . لغة لا يعروها وناء . وغيرها لا يسوره جدار . وإصلاحها عاما بعد عام . ويبدو أكثر بيوم مقبل وهو يحوط عطفه التي تبدي متلاحقة متتابعة وعزيزة دفاقة ولغة العربية هي لغة العرب ما بين عرق شامخ الذائد تاريخ الصحراء عن سيادته وكرامته وعزته . ومن العرب جار عطيف الدار خالد — كأمثاله من شعوب العربية — باتحاد العروبة والإسلام . ولئن ... تلك الأعوام الخمسون ذواهب ... في حساب تقلب الشمس على وجه البسيطة . طاوعا ومعيبا ، إنها في واقع الحال أبواق خوالد في الأفعال ، شوارق على الزمن . لا تطفأ لها أنوار كما تطفأ الشموع حين يحتفل المترفون بتوديع عام من العمر قديم . وباستقبال عام جديد أقبل . ولكنها تظل أبدا زواهر في سماء الحياة الإنسانية تملأ القلوب والعقول ضياء ونورا

وهذا المجمع العتيد الذي أنشئ في كنانة العرب هذه ، لواكبة النهضة العلمية والفكرية التي استأنفها العرب واصلين بها نهضتهم الأولى الخالدة الذكر ما أخلقه ، وله الهمة من موقعه الرسمي على توجيه لسانها في عالما مراقبه ما أجدره بأن يوثق أواصره بهذه الحضارة وبهذه النهضة وبمصادر تمتيها من المجامع العربية ببغداد ودمشق وعمان والرباط وبجميع مراكز العلم وقواعده في الوطن العربي كله ، فيجعل الشأن كله شركة دائمة مستمرة بينه وبينها يأخذ منها ويعطيها . ويجتهد في أن يوصل إنتاجه إلى كل ناحية وزاوية ما استطاع إلى ذلك سبيلا

وما أجدر الدولة . وما أحراها بأن تعمل . بكل عون وأن ترتصد وترتصد معه كل هذه القواعد العلمية — في الوطن العربي الكبير هذه الحياة الجديدة التي يفرضها العصر فيمدها من ثروة هذه الفصحى الحية الغنية بالزاد الطيب الذي يحتاج إليه . وهي في صعودها لا تستعصي

(*) ألقيت في الجلسة الافتتاحية ٢٨/٣/١٩٨٥ م .

عن مواكبته لها فى حال من الأحوال أن يصرف طاقاته العلمية واللغوية والفنية فى جميع نواحى هذه الحياة على طراز واحد لازال نفسه معا فى قرن إلى الآفاق العليا التى تتسامى إليها ، غير وان فى عزمه ، ولا مخمد من عنانه

ولست أشك فى أنه من يوم انشائه مجمعه الصادق منذ واحد وخمسين عاما إلى ساعتنا هذه . قد وفق فى معظم ما قدم من زاد اللغة . أصولها وفروعها ، توفيقا ملحوظا مشرق الوجه وواضح القسمات وقد أعطى وأجزل العطاء ، وقطع أشواطا بعيدة مما أريد منه من زاد للفصحى . لسان الأمة والملة . وزادها كثير وغزير وهى تستحسنه وتعطيه عطاء من لا يخشى الفاقة سمحة سخية ، لا تضن على طالب رفدها بشيء مهما كبر . وهو ما برح يستمد منها الخير ، وسوف تظل سيرتاهما على هذا النحو من التعامل الكريم إلى ما يشاء الله

أعطته هذه العربية — لسان الأمة والملة وموحدة الشمل وجامعته — الفيض الثر من الألفاظ المأنوسة والأساليب السهلة الرشيقة . وطوعت له أن يصنع من مادتها الغنية آلافا بعد آلاف من المصطلحات للمسميات الجديدة فى مجالات العلم والفكر والفنون والصناعات كافة فى مطالب الحياة الاجتماعية ومطالب الحياة السياسية والإدارية فى التجارة والاقتصاد . فى الرياضيات والطبيعيات والإعمار والفلك ، فى علم الفضاء وعلم طبقات الأرض . فى الزراعة والنبات والحيوان والجماد . فى النفط والمعادن . ولم يزل العمل متواصلا والجهد دائما وسيظل مشاركا على هذا المنوال . والعربية فى كل هذا تثبت أنها كما أثبتت فى ماضيها الحضارى العريق أنها اللغة الحية الولود حقا وصدقا . خففت من الجمال ويسرت [illegible] حية مؤهلة للنهوض بأثقل الأعباء وللاستعمال أحسن تكييف . لا تنوء بحمل ولا تشكو [illegible] على كثر الحادثات وتجدد تطور الحياة وتزايد مطالبها . وقد كذبت قديما وحديثا [illegible] هذه المعلية . دعاوى الشعوبية [illegible] . عقمها وقصورها عن حمل علوم العصر وثقافته . ووقفت فى وجوه الأفاكين [illegible] عقمت ما أفكوا وستلقف ما يأفكون . وما أشبه الليلة بالبارحة

وما على المجمع الموقر ومراكز العلم فى الوطن العربى الكبير إلا الالتقاء [illegible] على هذا النهج اللاحب الواضح وما تقتضيه النهضة من تطبيق جاد . ومن إبداع متجدد متصل الحلقات لتنتهى إلى حيث تستشرف من السمو ومن الارتقاء فى مراقى الحضارة الإنسانية العالمية ، ومن معدنها الكريم نبتت وأثمرت فى أول الدهر فى مثال من الجلال والجمال ما أكرمه وما أنبله وما أحلاه

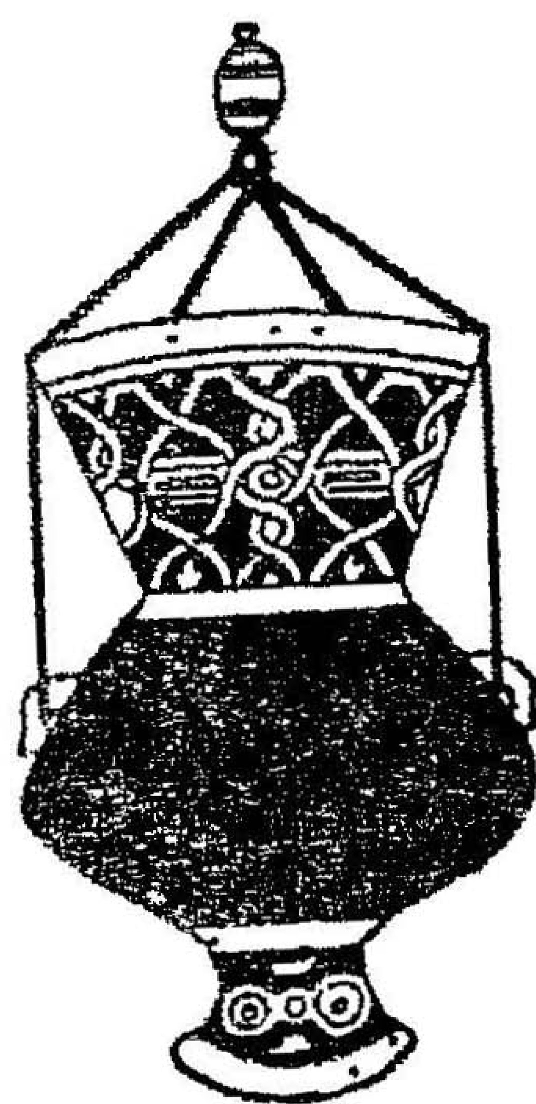
حضرات السادة : نحن — أعضاء هذا المجمع الميمون المبارك القادمين إلى كنانة العرب ، مشاركين توفيق من الله فى هذا الشأن العظيم — لسنا ضيوفا على مصر ، وكيف يكون المرء ضيفاً فى داره ، وإن

ويجب حقاً أن أختم حديثى بشكر على مالقاه من ترحيب وحفاوة صادقة ومؤازرة باخس وتيسير . فلأن امرءا لا يشكر نفسه ولكنه يحمد الله — جل وعلا — وهو سبحانه المحمود فى جميع الأحوال . يحمده على النعمة التى يوليه إياها . وأى نعمة أحلى وأعلى من نعمة السعادة تظلل الإنسان فى مأواه وحيث يحل من ديار قومه ، بل من قلوب إخوته فى هذا الوطن العربى الحبيب العزيز .

دامت هذه اللقاءات ودامت الأمة العربية حرة عزيزة .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

محمد بهجة الأثرى
عضو المجمع من العراق



مقدمة لفهم الكون

للدكتور حسن علي إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه وتعالى

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » .

[صدق الله العظيم]

ماذا ترى إذا نظرت إلى السماء في ليلة صافية لا قمر فيها ؟ إنك ترى عدداً كبيراً من النجوم وكل نجم تراه - شمس مثل شمسنا - (قد تكون أكبر أو أصغر منها) - فكم نجما ترى ؟ ستقول أنها لا تحصى لأنك تشعر في أعماق نفسك بأنك تنظر إلى شيء عظيم جدا لا نهاية له وهو إحساس صادق ولكنه أقل كثيرا من الواقع وقد لا تصدق إن كل ما يمكن أن تراه العين السوية هو ألف وخمسمائة نجم وإذا تذكرنا أن سماء الشتاء تختلف تماما عن سماء الصيف لأن الأرض تكون في الناحية المقابلة من الشمس فإنك ترى ألف وخمسمائة نجما آخر ثلاثة آلاف نجم هو كل ما تراه العين السليمة أما ما يبدو كسحابة تحزم السماء صيفا وشتاء فهو درب التبانة ولكنك تراه كسحابة أو سديم متصل الضوء ولو أن السحابة تتكون من عدد لا يحصى من النجوم وهي ناتجة من النظر في اتجاه البعد الأكبر للمجرة التي نعيش فيها .

ترى ما مكان الأرض والشمس في هذا الكون ؟ الأرض كوكب سيار على بعد ثلاثة وتسعين مليون ميلا من الشمس وهي تدور حول الشمس مرة كل سنة وبعد الأرض عن الشمس يعرف بالوحدة الفلكية وهذه الوحدة تستعمل في قياس المسافات الفلكية القريبة والأرض كرة صخرية معدنية قطرها يزيد قليلا عن ١٢٧٠٠ كيلو متر وبها بعض المفلطحة الناتجة عن دورانها حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة فقطر الأرض بين القطب الشمالي والجنوبي يقل عن القطر بين قطبين متقابلين على خط الاستواء بما يقرب من

(*) ألقي البحث في الجلسة الثانية ٢٧ / ٢ / ١٩٨٥ م .

عشرين ميلا ولكن هذا لا يمكن أن تدركه العين ويحتاج إلى قياسات دقيقة ثم أظهرت قياسات دقيقة التى أجريت بعد ذلك أن الأرض ليست كرة تامة التكور من ناحية أخرى أيضا فشكلها مثل الكمثرى والجزء الواقع شمال خط الاستواء أقل محيطا بعكس الجزء الواقع إلى جنوبه ولكن لمدع لرحال تلك قياسهم بمقادير التى توصلوا إليها لا تكاد تذكر بالنسبة لنا وإذا نظرنا للصور التى أخذت للكرة الأرضية من أعماق الفضاء نجد أنها كرة كاملة التكور تتكون قشرتها الخارجية – هذا إذا وضعت البحار والمحيطات والصحارى والجبال والصحور جانبا وتعمقنا – فان قشرتها الصلبة تتكون من طبقة من الجرانيت وبداخلها طبقة من البازلت ثم طبقة سميكة من الأوليفين ووزن الكرة الأرضية يقارب ستة مليون مليون مليون طن وهذه أيضا أمكن التوصل إليه بالتجارب المعملية الدقيقة وذلك بقياس قوة التجاذب بين كرتين من معدن ثقيل البعد بين مركزيهما مقاس بدقة شديدة ثم مقارنة هذه الكرة وهى بالطبع ضئيلة جدا ولا تقاس إلا بميزان بالغ الدقة مقارنتها بجاذبية الأرض لكـــرة منهما على سطحها وبما أن المسافة بين مركزى الكرتين معروفة وكتلتهما معروفة وبتطبيق المعادلة المشهورة أن الجاذبية تزيد طرديا بمقدار ما تجمع فى الجسمين المتجاذبين من كتلة وتقل طرديا حسب مربع المسافة بينهما وبما أن البعد عن مركز الأرض معروف فيكون معرفة وزنها أمرا سهلا. وقد لوحظ أن كثافة الأرض الخارجية لا يفسر كل هذا الوزن للأرض إذا لا بد أن يكون قلبها كبيرا وثقيلا، وحتى الآن لا نعرف شيئا بالتحديد عن طبيعة الجزء المركزى من الأرض ولكنه غالبا يتكون من خليط من الحديد المائع وذلك لشدة الحرارة فى الداخل وربما مع بعض النيكل ولعل الحديد هو السبب فى مغناطيسية الأرض ووجود القطب الشمالى والقطب الجنوبى المغناطيسيين كما تشير البوصلة المغناطيسية.

كان القدماء يظنون أن الأرض ثابتة وأنها مركز الكون وأن الشمس والكواكب السيارة والنجوم تشرق وتغرب وتدور حول الأرض إلى أن أتى الفيلسوف الاغريقى النابغة اريستار قوس الساموسى فلجأ إلى الطريق العلمى العملى للقياس بما أتيح من أدوات بسيطة فاستطاع أن يدرك أن الشمس أبعد عشرات المرات عن القمر ولكنها ليست فى اللانهاية وإذن فهى أكبر من القمر بكثير واستطاع أن يدرك أن الأرض كروية مثل الشمس والقمر تماما كما عرف أن القمر يدور حول الأرض وأن الأرض تدور حول الشمس وكان ذلك قبل ميلاد المسيح بعدة قرون ثم جاء أرسطو المعلم الأكبر فنفى كل ذلك وأعاد الأرض لتكون مركزا للكون ثم ابتدع نظام السماوات الكروية

الشفافة التى تحمل كل منها كوكبا سيارا فى سماء وكذلك الشمس والقمر وأن حركة كل سماء مخالفة للأخرى فالشمس والقمر فى سماء والكواكب السيارة كل منها فى سماء أما النجوم الثوابت فكلها فى سماء واحدة وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى العصور الوسطى وبذلك آخر أرسطو العلم دون أن يدرى ما يزيد عن خمسة عشر قرنا من الزمان ولم يتقدم العلم ثانيا إلا بعد أن عاد الإنسان إلى العلم فى تفسير ظواهر الكون كانت تعاليم الكنيسة حتى القرون الوسطى هى أن الأرض مسطحة وأن بيت المقدس مركز الأرض وكل من خرج على هذا التفكير كان يعد مارقا .

ويرجع الفضل الأول لحل نظام المجموعة الشمسية إلى كوبر نيكوس ثم إلى جاليليو بعد ذلك وبالرغم من أن المنظار الفلكى كان لم يخترع بعد فقد تمكن كوبر نيكوس من أن يضع نظاما صحيحا للمجموعة الشمسية وجعل الشمس هى المركز الذى تدور حوله الكواكب السيارة كما جعل الأرض تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة وفسر جميع تحركات الكواكب السيارة تفسيرا صحيحا ولم يبق إلا أن يأتى من يثبت هذا بطريق عملى وكان هذا الشخص هو النابغة العالم الفلكى جاليليو الإيطالى كان المنظار قد اخترع فى هولندا فتلقف جاليليو ذلك الاختراع وحسنه حتى ركب منظارا يكبر ستا وثلاثين مرة وفى أيامنا هذه يعتبر هذا المنظار لعبة أطفال إذا قيس بالمناظير الحديثة فى المراصد حتى أن المنظار الذى فى مرصدى وأراقب به النجوم يكبر ١٠٠ مرة أى نحو ثلاث مرات أكثر من منظار جاليليو ولكن بالرغم من ذلك استطاع جاليليو أن يستغل عبقريته فى إرساء قواعد علم الفلك الحديث وكان ذلك بعد عام ألف وستمائة ميلادية بقليل (على ما أذكر كان ذلك فى عام ألف وستمائة وثلاثة عشر) فما الذى فعله جاليليو ؟ لقد أثبت كروية الأرض بشكل عملى فقد وجه منظاره إلى البحر إلى الأفق البعيد وتأمل السفن وهى تظهر وتختفى عند الأفق فرأى أن السفن القادمة تظهر أعالى أشرعتها أولا وكلما زادت اقترابا بدأ جسم السفينة فى الظهور ويحدث العكس فى السفن الراحلة إذ يختفى جسمها أولا تحت الماء ثم الشراع أخيرا إذن فسطح البحر مقوس فهو إذن جزء من سطح كرة ولو كان سطحى لاختفت السفن من البعد دون أن تغوص فى الأفق وقال للناس تعالوا وراقبوا وانظروا فرأوا ولكن لم يصدقه أحد ففكرة كروية الأرض ما كان ليتصورها أحد وفكر أليس القمر عالما آخر مثل عالمنا؟ والقمر كروى فنظر إليه فوجد فيه الجبال وسلاسل الجبال والأخاديد أما السهول الداكنة على سطحه فقد ظنها خطأ بحارا وسماها ومازالت تعرف ببحور القمر حتى الآن وقد سمى احداها بحر العواصف لأنه ظن أن كثبان الرمال التى فيه والتى تشبه الأمواج ظنها أمواجا فعلا وقال للناس تعالوا وانظروا إن هذه الكرة التى أمامكم عالم مثل عالمنا فهل اقتنع بكلامه أحد؟؟؟

ثم أن الأرض تدور حول الشمس فهذا يفسر اختلاف سماء الليل من فصل إلى آخر كما يبين سبب انتقال الشمس بين الأبراج المختلفة . حتى فهل يمكن بالمشاهدة رؤية كوكب آخر يدور حول الشمس فاتجه إلى الزهرة فرأى أن لها وجـوها مثل القمر تماما فأحيانا ترى هلالا وأحيانا أخرى نصف بدر وهكذا وأحيانا تمر بيننا وبين الشمس فتبدو قرصا صغيرا أسود أمام قرص الشمس المضيء كما عرف أن الكواكب الأخرى مثل المريخ والمشترى وزحل تدور فى مدارات خارج مدار الأرض كما أن بطء حركتها حول الشمس بالنسبة لسرعة الأرض يفسر تماما ما تبديه هذه الكواكب من تراجع فى مداراتها أحيانا فكان أمامه البرهان العملى على أن كل كلام كوبر نيكوس صحيح كما أن اختلاف الليل والنهار ينتج من دوران الأرض حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة فهل هناك كوكب آخر يمكن رؤية دورانه؟ بمنظاره الصغير لم يكن أمامه إلا الشمس والمشترى فراقب الشمس أو البقع السوداء على سطح الشمس وعرف أن الشمس أيضا تدور حول نفسها كذلك أثبت أن المشترى يدور حول نفسه ومن حسن حظه أنه يدور حول نفسه بسرعة تسمح بمراقبته ومن حظه أيضا أن على سطحه بقعة كبيرة حمراء يظن أنها من الهيدروجين السائل أو المتجمد فرأى أن هذه البقعة تدور وتختفى وتعود للظهور مرة أخرى من الجانب الآخر وفى الواقع تدور الأرض عند خط الاستواء بسرعة تجاوز ألف ميل فى الساعة وذلك مصداق للآية الكريمة « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » .

(صدق الله العظيم)

كذلك عرف جاليليو أن لكل كوكب مدارا محددا ففى حالة القمر فمداره حول الأرض أما باقى الكواكب السيارة فمدارها حول الشمس وقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

(صدق الله العظيم)

وقد فكـر جاليليو هل هناك مشاهدة عمليه لجرم سماوى يدور حول الآخر خلاف الزهرة والشمس فوجه منظاره نحو المشترى فرأى حوله أربعة أقمار وما زالت تعرف هذه الأقمار بالأقمار الجاليلية ونظرا لعظم كتلة المشترى (قدر الكرة الأرضية ما يقرب من خمسمائة مرة) واقرب هذه الأقمار من المشترى فانها تدور حوله بسرعة فيمكن متابعتها بسهولة وهى تمر أمامه ثم تختفى خلفه لتظهر مرة أخرى من الجانب الآخر فكان هذا برهانا عمليا آخر لدوران جرم سماوى حول الآخر وبعد وقت أخذت تعاليم جاليليو تنتشر بين الناس فحاكمته الكنيسة وأجبرته على أن يكتب أن كل ما قال غير صحيح وأن الأرض مسطحة ولاتدور وخرج جاليليو منبوذا وتمتم بصوت خافت « إنها تدور » ثم فقد بصره إذ أتلف عينيه لكثرة نظره إلى الشمس من خلال منظاره دون استعمال عدسات واقية من الضوء والوهج وقد دفن هذا الرجل العظيم فى فلورنسا بعد أن أسس علم الفلك الحديث وجدير بالذكر

أن الفاتيكان منذ بضع سنوات فقط رد لجاليليو اعتباره وذلك بعد وفاته بأكثر من ثلاثة قرون .

والآن لنعد بسرعة واختصار إلى عالم الفلك الحديث فالمجموعة الشمسية مركزها الشمس والكواكب السيارة تدور حولها والشمس كرة غازية متوهجة حجمها كبير جدا إذ إنه قدر حجم الأرض مليون وربع مليون مرة وبقدرة الله ظلت الشمس ترسل النور والحراره مدة خمسة آلاف مليون سنة وقد حير ذلك العلماء ولكن عرف الآن أن الشمس تحول ما فيها من هيدروجين إلى هايوم أى أنها تحول الكتلة إلى طاقة لأن عمليه تحويل الهيدروجين إلى هليوم يحدث فيها فقدانا لجزء طفيف من الوزن وهذا يتحول إلى النور والحرارة التى يعيش عليها العالم وتحفظ الحياة وقد استطاع الإنسان أن يبنى القنبله الهيدروجينية التى تطلق طاقتها فى غمضة عين ولكن الإنسان يعجز عجزا كاملا عن إحداث تفاعل متواصل كما يحدث فى الشمس إن الحرارة اللازمة لبدء التفاعل عالية جدا فمركز الشمس ثقيل وبالغ الحرارة لشدة الضغط فتبلغ حرارته عدة ملايين من الدرجات المئوية وهذا يبدأ التفاعل ثم يستمر بسبب البرود الدائم للهيدروجين أما فى القنبلة الهيدروجينية فقد جعل الإنسان فتيلها قنبلة ذرية لكى تعطى الحراره اللازمه وقد ظلت الشمس فى هذا التوازن العجيب ما يقرب من خمسة آلاف مايون سنة أما أقرب السيارات إلى الشمس فهو عطارد وهو على بعد ثلث وحده فلكية من الشمس تقريبا وهو نجم ميت لا جو يحيط به ويدير دائما وجها واحدا نحو الشمس أى أن الشمس لا تشرق ولا تغرب عليه ووجهه الذى يواجه الشمس باستمرار بالغ الحراره أما وجهه الآخر المظلم دائما فهو بالغ البرودة ثم يلى عطارد كوكب الزهرة وهى تكاد تماثل الأرض فى الحجم وتدور على بعد ثلثى وحده فلكية من الشمس تقريبا تدور حول نفسها ببطء شديد (أربع مرات فى السنة) ويغلفها جو كثيف من ثانى أكسيد الكربون وحمض الكبريتيك ويزيد الضغط الجوى عليها عشرات المرات مما هو على سطح الأرض وتبلغ الحراره على سطحها حدا لا يسمح بأى نوع من الحياه ولم تستطع مركبات الفضاء تصوير سطحها لكثافه جوها فيما عدا سفينه روسيه هبطت إلى سطحها ولم تنجح إلا فى إرسال صورة واحدة ثم تحطمت نتيجة الضغط الجوى الشديد وظهر أن سطحها صحرى قاحل ثم تأتى بعد ذلك الأرض التى نعيش عليها وهى على بعد وحده فلكيه واحدة عن الشمس تدور حول نفسها كل ٢٤ ساعة مع اختلاف بسيط بين يوم وآخر لا يزيد عن جزء من الثانيه وذلك لسبب غير معروف بالضبط كما تدور حول

الشمس مرة كل سنة ولو أن السنة تطول كل عام بما يقرب من الثانية الواحدة ، وذلك غالبا ناشيء من نقص كتلة الشمس لأن الشمس تفقد بعض كتلتها في عملية الإشعاع كما أسلفت

ثم يأتي كوكب المريخ وهو كوكب كان يأمل الإنسان أن يجد حياة فيه خاصة بعد أن وصف سكيابارلي وجود قنوات عليه ثم جاء بعد ذلك برسيفال لويل فقال إن هذه القنوات تمثل نظاما متقدما جدا للري يستغل ذوبان ثلوج القطبين ثم ظهر أن ما يبدو كغطاء ثلجي على قطب المريخ الجنوبي عبارة عن ثاني أكسيد كربون متجمد وأن ثلج الماء لا يوجد إلا على القطب الشمالي وذلك لسبب غير معروف كان يأمل الإنسان أن يجد حياة على المريخ من نوع ما وذلك لوجود جو حوله والاعتدال النسبي لحرارته خاصة في مناطقه الاستوائية ولكن مركبة الفضاء الأمريكية التي نزلت عليه خيبت الآمال إذ ظهر أنه كوكب قاحل وما فيه من ماء إما أن يوجد على شكل ثلج على القطب الشمالي وبخار الماء فقط في الجو . . ثم يأتي بعد المريخ حزام الكويكبات وهو يتكون من عدد لا يحصى من الصخور بعضها حجمه مئات الأميال وبعضها لا يزيد على قدم أو قدمين وغالباً ما نتج هذا الحزام من تفتت كوكب كان يدور بين المريخ والمشترى ثم يأتي بعد ذلك المشترى وهو كوكب في المجموعة الشمسية وحجمه قدر حجم الأرض ألف مرة ويدور حول المشترى كما نعرف الآن اثنا عشر قمر لم يستطع جاليليو بمنظاره إلا أن يرى أربعة منها وهو على بعد يقرب من خمس وحدات فلكية من الشمس وهو غير صالح للحياة فجوه مكون من الهيدروجين وغاز الميثان بكميات كبيرة ثم يأتي بعده زحل المعروف بالنطاق المثير الذي يدور حوله ثم نبتون فأورانوس فبلوتو وكلها غير صالحة للحياة وبلوتو أبعد كوكب عن الشمس في المجموعة الشمسية فهو يدور حولها على بعد يزيد قليلا عن أربعين وحدة فلكية ولم أذكر القمر ككوكب لأنه تابع يدور حول الأرض وهو قريب جداً منا بالنسبة للمقاييس الفلكية فالمسافة بيننا وبينه ٢٤٠.٠٠٠ ميل إن الشمس والكواكب التي ذكرتها مع أقمارها مع سحب الغبار والمذنبات والشهب والنيازك تكون ما يعرف بالمجموعة الشمسية .

ثم عدد الكواكب ، عددها الذي ذكرت تسعة وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » وكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي نلاحظه أولا أن الآية لم تضع الشمس والقمر مع الكواكب وهذا صحيح مائة في المائة وقد نزلت هذه الآية عندما كان الناس لا يعرفون إلا خمسة كواكب سياره فقط فأين إذن الأحد عشر

كوكبا ؟ أين الكـــوكبان الباقيان ليكتمل العدد لقد ظهر خلال السنتين الأخيرتين بمناظير خاصه ضخمة وبالتطور الدقيق أن بلوتو وهو أبعد كوكب فى المجموعة الشمسية ظهر أنه ليس كوكباً واحداً بل كوكبين يدور أحدهما حول الآخر فيصبح عدد الكواكب بذلك عشرة كما أن الفلكيين مشغولون الآن بتحديد موقــع كوكب بعيد جداً وتشير حساباتهم إلى أنه على بعد ٧٧ وحدة فلكية عن الشمس فيكون هذا هو الكوكب الحادى عشر وحتى إذا أخفق هذا البحث فان حزام الكويكبات الذى سبق أن أشرت إليه نتج من تفتت كوكب كبير ويمكن اعتباره كوكباً بالرجوع إلى أصله وهكذا يكتمل العدد الذى أشار إليه القرآن

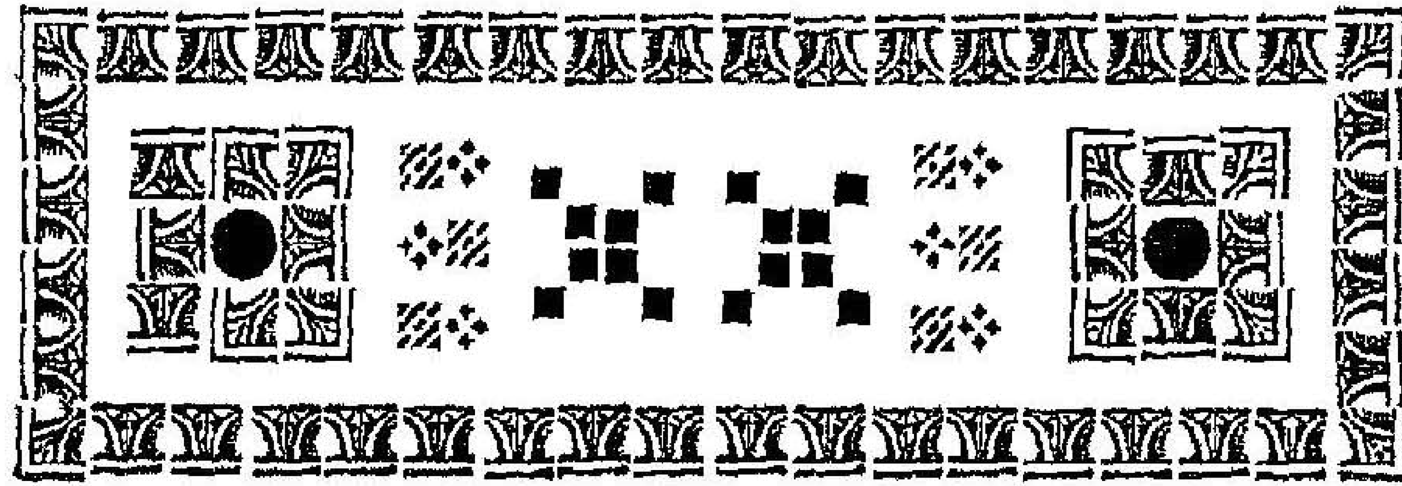
وإذا خرجنا من المجمـــوعة الشمسيه لنستكشف ما وراءها فان الوحدة الفلكية وهى بعد الأرض عن الشمس لا تصلح للقياس ويجب أن نستعمل سرعة الضوء فى مقاييسنا فالضوء يسير بسرعة ثلاثمائه ألف كيلو متر فى الثانية ويصلنا من الشمس فى حوالى ثمانى دقائق ولو قدر لشعاع الضوء أن يدور حول الكرة الأرضية فانه يدور حولها سبع مرات ونصف مرة فى الثانية الواحدة فاذا خرجنا من المجموعة الشمسية فإن أقرب جارين لنا هما الأقرب القنطورى وألفا قنطورى وهما على بعد أربع سنوات ضوئية وتنتظم شمسنا مع النجوم التى نراها والتى لا نراها مجموعة ضخمة تسمى المجرة وهى مستديرة مسطحة مثل رغيف الخبز وتحوى مائة ألف مليون شمس ويقطع الضوء المجره من حافتها إلى الحافة المقابلة فى مائة ألف سنه ومن العبث وضع أرقام لنعبر عن هذه المسافات لأنها لن تعنى شيئاً للعقل البشرى ولكن لنعبر عنها بشكل آخر أقرب إلى الفهم وهو أنه إذا صغرنا مدار الأرض حول الشمس ليصبح دائرة فى حجم رأس الدبوس وفى هذه الحالة لا ترى الكرة الأرضية حتى تحت المجهر فان المجرة على نفس المقياس يكون سطحها قدر سطح قارة آسيا ولكن هل توجد مجرات أخرى مثلها ؟ نعم هناك ألف مليون مجرة أخرى فى كل منها مائة ألف مليون شمس وبالحساب البسيط نجد أن عدد الشموس فى الكون الذى نعرفه يزيد على عدد حبات الرمل على جميع شواطئ العالم الذى نعيش فيه والله أعلم بما يدور حول كل شمس من هذه الشموس من كواكب مثل كوكبنا وهذه المجرات البعيده لا يمكن أن ترى بالعين حتى من خلال المناظير الفلكية الحديثه العملاقه التى يبلغ قطر عدستها خمسه أو سبعه أمتار ولكن لا بد من أن نلجأ إلى التصوير فيفتح المنظار على مكان المجره ويبدأ التصوير الفوتوغرافى لعده ساعات وربما لليال متتاليه وهناك آلات دقيقه تدير المنظار دائما نحو نقطه واحده فى السماء بهذا وباستعمال المنظار اللاسلكى استطعنا أن نرى المجرات والأجسام التى تسمى بالكوازار على بعد ثمانيه ألف مليون سنه ضوئيه لما ظهر بمراقبة خطوط

طيف هذه المجرات أنها تتباعد عنا باستمرار بسرعة رهيبة تزداد طرديا مع بعدها عنا وتبلغ سرعة تراجع المجرات النائية إلى ستين ألف ميل فى الثانية الواحدة ولكم أن تحسبوا كم اتسع الكون منذ بدأت حديثى هذا فالكون إذن يتسع بسرعه رهيبه وقال تعالى فى كتابه الكريم « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » ولن أخوض الآن فى أسباب هذا التمدد فهذا حديث يطول شرحه وقد اختصرت كثيراً فى كلامى فكل بند فيها من الشمس إلى الأرض إلى الأقمار إلى كل كوكب إلى النيازك والشهب والمذنبات والسدم وسحب الإيدروجين والمجرات التى يحتاج كل بند فيها إلى جلسة خاصة طويلة وكنت أريد أن أشرح كيف توصل الإنسان إلى كل هذا وكيف هيأ الله سبحانه وتعالى السبل ليعرف كل هذا ويتعجب ويسبح لله ويدرك عظمه الخالق كما كنت أريد الكلام عن منشأ الكون ونهايته ولكن لا يوجد وقت لكل هذا وإلى جلسات قادمة إن شاء الله وسيكون كلامى كله مستنداً إلى ما جاء فى كتاب الله .

والآن أنت تعلم أنك إذا نظرت إلى السماء فى ليلة صافية وظننت أنك ترى شيئاً ففى الواقع أنت لا ترى شيئاً بالمرة من هذا الكون العظيم .

أشكركم أيها السادة والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته .

حسن ابراهيم
عضو المجمع



حاشية على كلمة "حورية"

للدكتور إسحق موسى الحسيني

رزقنا الله فى أثينا حفيدة حوراء ، لكأنها من حور العين ، سماها والداها « زيبه » وسمع الجيران اليونانيون الاسم فاستملحوه وسألوا عن معناه فشرح لهم فقالوا : إذن هى « أوريا » huraia

واسترعى انتباهي اللفظ «أوريا» أهو حورية الاسم الشائع فى مصر وكثير من البلدان العربية ؟ وقضيت أياما طـوالا أنقب فى المعـاجم العربية والغربية والتركية والفارسية ، وانتهى بى المطاف إلى أن اللفظة يونانية دخلت العربية ، ولا علاقة لها بمادة (حور) العربية ولا بلفظة (حور) التى وردت فى الآية الكريمة «كذلك وزوجناهم بحور عين» (الدخان ٥٤) وتكررت فى سورة الرحمن (آية ٧٢) وسـورة الواقعة (آية ٢٢) والتفسير المتفق عليه أن معناها « نساء بيض واسعات الأعين حسانها » .

وهذه هى البينات :

١ — إن لفظة (حورية) يونانية قديمة وردت فى الأدب اليونانى القديم وورد فى الملاحم اليونانية اسم أوريا هيلينا الطروادية .

٢ — إن اللفظة ليست دخيلة فى اليونانية إذ ورد منها اسم وفعل .

٣ — إن اللفظة لم ترد فى العربية إلا فى العصور المتأخرة . ولم ترد فى المعجم التاريخى concordance ولا فى المعاجم العربية القديمة .

٤ — وردت لفظة «حوارية» من مادة حور جمعها : حواريات جاء فى أساس البلاغة : قال الأخطل : حوارية لا يدخل الذم بيتها : مطهرة يأوى إليها مطهر .

٥ — ووردت لفظة حوراء مؤنث أحور .

٦ — وردت لفظة «الحوارى» فى القرآن الكريم غير مرة ، جاء فى سورة آل عمران : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله واشهد

(*) ألقى البحث فى الجلسة الثانية ٢٧ / ٢ / ١٩٨٥ م .

انا مسلمون » (آية ٥١) وتكررت فى المائدة (١١٥) والصف (١٤) وشرحـها المفسرون بالخالص النقى من كل شيء، وشاع استعمالها فى الخلصاء للأنبياء، وردت فى الشعر القديم ويرى فنسك A. J. wensick فى بحثه المنشور فى دائرة المعارف الإسلامية، اعتمادا على رأى لنولدكة (Noldeke) فى reitioge Z sem spnoch wiroonchalt
ان الحوارى مأخوذة من اللغة الحبشية، وينكر القول أنها عربية بمعنى من يلبس البياض كما ذهب بعض المفسرين وهذه مسألة ثانوية فى بحثنا.

٧ – أما لفظة (حور) الواردة فى القرآن الكريم فقد دخلت اليونانية، اللاتينية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والفارسية والتركية وكتبت houri جمعها houris وفى معاجم جميع هذه اللغات شرحت اللفظة بالنساء الجميلات الوارد ذكرهن فى القرآن الكريم (ومن الجدير بالذكر أن «أوريا» تبدأ بحرف W أوميجا فى حين تبدأ أورى O باو H فى اليونانية وفى اللغات الأوربية الأخرى وهذا دليل إضافى على أن اللفظتين مختلفتان) وأود أن أضيف إلى ذلك أن معجمنا الوسيط أثبت حورية وشرحها «بفتاة أسطورية تتراءى فى البحار والأنهار والغابات وهذا الوصف يختلف عن وصف حور الواردة فى القرآن الكريم، وأغلب الظن أن وصف حورية «أوريا» الواردة فى الأساطير اليونانية.

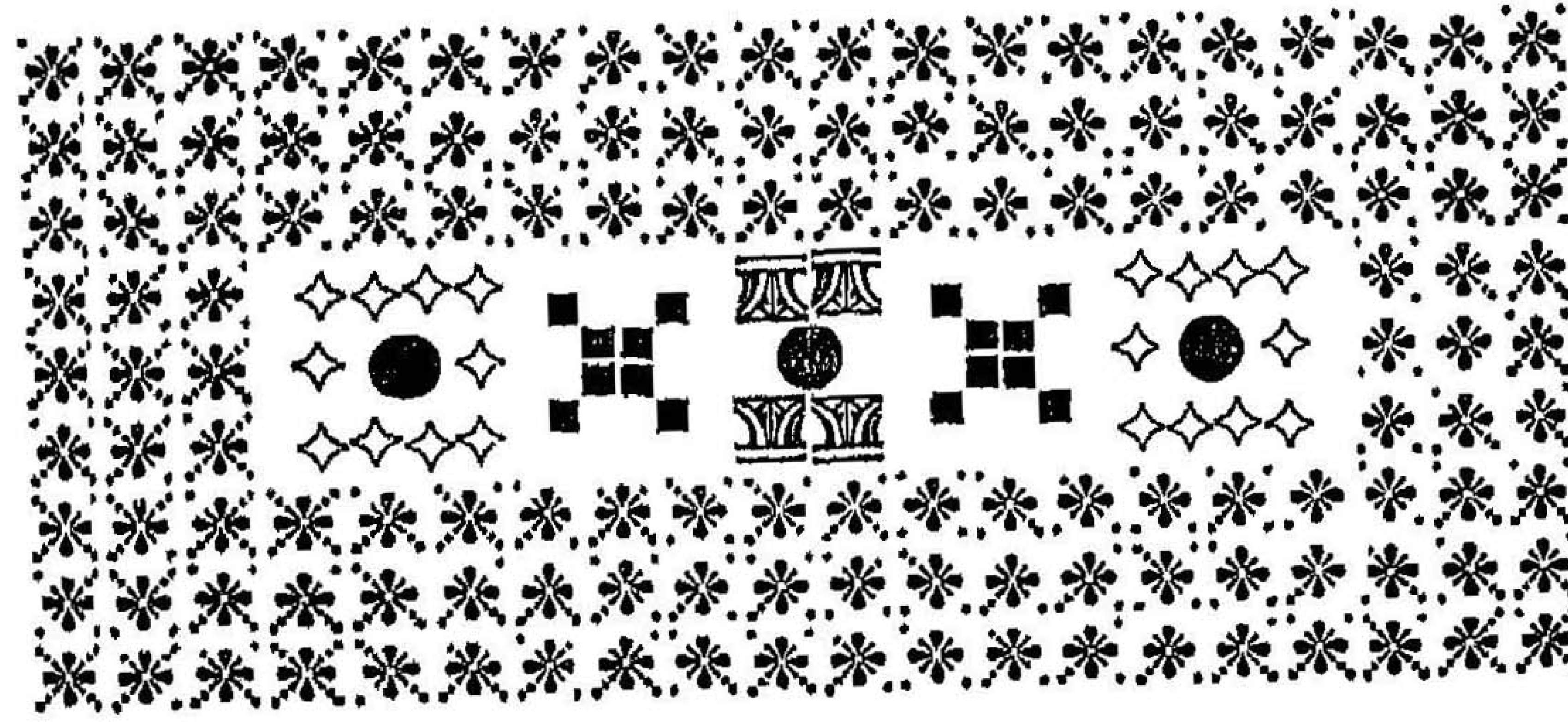
ومن الصعب تحديد دخول (أوريا فى اللغة العربية وكيف دخلت؟ أبو ساطة التركية أم العربية؟ وكذلك لا نستطيع تحديد دخول لفظة (حور) فى اللغات الأوربية، ومن المرجح أنه حدث فى كلتا الحالتين فى عصور متأخرة، ومن الإنصاف أن أثبت هنا رأيا مخالفا لرأى أطرحه على الزملاء للمناقشة ويذهب هيروفتس فى كتابه (أبحاث قرآنية) المنشور، سنة ١٩٢٣ أن حور مفردها بالفارسية (حورى) وهى الصورة الواردة فى المعاجم الغربية والتركية، ويضيف أحد كبار علماء الاستشراق المعاصرين. الأستاذ قسطر J. M kister. إن لفظة (حورى) انتقلت إلى العراق وهناك صيغ منها المؤنث، فقالوا (حورية) وحورية مستعملة فى اللهجة العراقية، وبذلك تكون اللفظة عربية أصلا وليست دخيلة من اليونانية.

وقد التبس الأمر على أصحاب المعاجم الحديثة فدوزى فى معجمه sup aux Dict Arabes يذكر أن لفظة «حورية» استعملها العوام بدلا من حوراية وذكر J B Havas فى معجمه (الموائد الدرية) فى اللغتين العربية والإنجليزية أن (حورية) بمعنى حوراء، أى الفتاة الجميلة ذات العين السوداء، وجاء بعده معجم أكسفورد الإنجليزية والعربية، وأثبت (حورية) بمعنى حور وذكر صاحب المورد (منير بعلبكى) أن (حورية) إحدى حور الجنة ونهج منهجه صاحب المنهل (سهيل إدريس وجبور

عبد النور)وذكر W. Redhouse sir James في معجمه: اللغة التركية والإنجليزية الصادر سنة ١٩٧٨ أن (حورية) اسم فرقة صوفية تعتقد بالعلاقة الجنسية الغيبية بالحور .

ولم أتتبع هذه المسألة لخروجها عن الموضوع والخلاصة أن لفظة (حورية) – كما أرى – يونانية دخلت العربية في عصر متأخر ، ولا علاقة لها (بحور العين) ، وأن لفظة (حورى) الواردة في اللغات الأوربية والفارسية والتركية عربية الأصل والله أعلم .

اسحاق موسى الحسيني
عضو المجمع من فلسطين



في تعريب التعليم

للدكتور أحمد عبد الستار الجواري

قد يبدو الكلام فى تعريب التعليم أشبه ما يكون بترديد المسلمات، وأحرى أن يكون قد بت فى أمره منذ زمان فهو ما عاد ذا طبيعة مشكلة، يشكو فيه التجمع العربى من فقر فى العنصر البشرى اللازم له، أو يحس حاجة فى تطويع اللسان العربى وإعداده ليكون وسيلة صالحة للتعليم والتدريس، ولاكتساب المعارف والمهارات كما يقول أساتيذ التربية.

ثم إن اللسان أو اللغة فى التعليم جزء منه مهم، بل لعله أهم الأجزاء فى محيط الإنسان المعلم المتعلم، إنه كالهواء الذى تتردد فيه الأنفاس، وكالنور الذى تبصر به الأبصار وكالماء الذى ينقع غلة الصديان. على أن الهواء قد يخلو قليلا أو كثيرا مما لا بد منه للتنفس، والماء قد يمر طعمه أو تشوبه شوائب تجعله غير خليق بما وجد من أجله، والنور قد يكون أضعف وأكسف شعاعاً من أن يعين على الإبصار. وكذلك يمكن أن يكون اللسان وكذلك يحتمل أن تكون اللغة من حيث القدرة على اصطناعها للتعليم.

ولكن اللسان العربى غنى بمزايا اللسان الصالح للتعليم، القادر على التعبير عن معانى العلم والفن والحضارة.

لقد كان كذلك منذ عهد بعيد، وهو لا يزال من أطوع الألسنة تعبيرا عن الفكر والمشاعر.

ولربما كان فى تجارب الأمم الأخرى ما يؤيد هذه الحقائق ويشد من أزرها.

(١)

فلقد بدأت العناية باللغات القومية فى أوربا منذ نشأت فيها الدول على أساس قومى، وبعد أن توحدت الدويلات والإمارات فى دول قومية شعرت تلك الدول بالحاجة إلى تمكين اللغة القومية لتكون وسيلة

(*) ألقى البحث فى الجلسة الثالثة ٢٨ / ٢ / ١٩٨٥ م.

التعليم والتثقيف ولسان الفكر والحضارة والفنون التعبيرية التى أخذ الطابع القومى يضفى علـيها خصوصية ويميزها عما حولها :

• فى الولايات المتحدة الأمريكية بدأت الدعوة إلى توحيد لغة التعليم فى منتصف القرن الثامن عشر. ولما أخذت الدولة بنظام التعليم الإلزامى فى مفتتح القرن التاسع عشر شعرت بمزيد من الحاجة إلى لغة واحدة تكون الوسيلة لنشر التعليم وتعميمه وهى اللغة الإنكليزية .

ثم أصبحت بعد أن انضمت إليها ولايات جديدة فى حاجة إلى ترسيخ الولاء للدولة الجديدة فكانت اللغة الموحدة وهى الإنكليزية أساسا من أسس الولاء .

والصين بملايينها الألف ورقعتها الوسيعة وعناصرها المتعددة لا تستخدم فى التعليم إلا اللغة الصينية ، وهى معروفة بصعوبتها وكثرة حروفها وتعقد المقاطع فيها وعسر الكتابة بها .

واليابان لا تعلم أساسا إلا بلغتها القومية وهى اليابانية ، فى مراحل التعليم كلهـا لا تقعد بها مشقة الدراسة بها على الدارس والمدرس . إذ أن على التلميذ فى المدرسة الابتدائية أن يتقن ٨٨١ حرفا ، ثم يضاف إلى هذا القدر ٤٠٠ حرف فى المدرسة المتوسطة حتى يستطيع أن يثقف ما يحتاج إليه لمتابعة القراءة اليومية للجرائد وما يشبهها[1]

(٢)

وكثير من الأمم يحتاج إلى مجهود مضن ومشقة وعناء لتعد لغته القومية وسيلة صالحة للتعليم والتعبير عن الأفكار العلمية والثقافية الرفيعة ، لأن كثيرا من تلك اللغات كان لا يزيد على كونه لهجات محلية وأدوات تخاطب قد تكون وافية بحاجات الناس اليومية وشؤونهم العامة .

ومنها ما ران عليه صدأ السنين وغشاه الإهمال والهجران فانقطع ما بينه وبين الحياة العامة ، ولم يعد يسرى فيه دم الحياة ، فأخذ أصحابها يزيحون عنها ذلك الرين ويجتهدون فى إعادة الحياة إليها لتصير لغة علم وفكر وتعليم كالذى يصنعه الغزاة المحتلون فى فلسطين باللغة العبرية :

أما لساننا العربى فهو خليق بأن يتبوأ مكانته فى حياتنا الفكرية والعلمية والتعليمية بلا مشقة ولا تكليف، ولكن بإيمان وثقة وقدرة على إدراك مزاياه والعناية بكنوزه وذخائره وهى منا على طرف الثمام، إذ أن قدرة الله وعنايته قد آثرت هذا اللسان العربى بالحفظ والرعاية وتجدد الحيوية بما شرفته بالكتاب الكريم (قرآنا عربيا غير ذى عوج) (بلسان عربى مبين) .

(١) استعنت فى استخلاص هذه الحقائق من بحث الأستاذ الدكتور عبد العزيز البسام بعنوان « العربية الفصيحة لغة التعليم » فى ندوة اللغة العربية والوعى القومى

ثم كان لهذا اللسان أن أصبح أ لسان العلم والفلسفه والحضارة قرونا من الزمان وأهله اليوم يفهمون ويتذوقون ويستمتعون بآثاره ونفائسه وزخائره مثلما كان أسلافهم يصنعون .

(٣)

إذن فالتعليم بالعربية ضرورة من ضرورات الحياة للعرب ، لأن العربية هى جوهر تكوين الأمة ، وتداولها فى التعليم والتعبير عن الأفكار والمشاعر سبيلهم إلى تقوية الوحدة بين أجزاء الأمة وأقطارها وقناة التفاهم والتعاون وإقامة العلائق الأخوية بشعوب الأمة الإسلامية وبمن يجاورهم ممن تربطه بهم صلات الود الإنسانى ورغبات التعاطف والتنسيق بين الأفكار والمصالح . ومن الأمور المعروفة بالضرورة أن اللغة هى وسيلة التفكير وهى وعاء وعدد الأفكار والمشاعر وهى وسيلة التعبير وذلك أن الفرد إذا أحس بالحاجة إلى التعبير عما يشعر به ، وإذا فكر وجد فى نفسه الحاجة إلى إيصال أفكاره إلى غيره وكل ذلك لا بد فيه من أداة التفاهم والتواصل بين أفراد البشر وهى اللغة .

ومن أهم تلك الأمور البديهية وأولاها بالذكر أن الفرد من بنى الإنسان يفكر بلغة الأم التى يكتسبها ممن يحنو عليه من مبدأ تنسمه ريح الحياة ، ويثقف عنه مفرداتها وتراكيبها وجرس ألفاظها ، ودلالات تلك الألفاظ والتراكيب

ويبدأ ذلك تقليدا ومحاكاة وترديدا ، حتى إذا بلغ أشده صار قادرا على استخدام تلك التراكيب والألفاظ استخداما مستقلا ، يكتسب به المعرفة ويفهم به عن غيره ، وينقل به ما يعرف إلى الآخرين ويعبر به عن مشاعره أحاسيسه ويتلقى به ما يلقى إليه غيره من أفكار ومشاعر .

ويظل ذلك يجرى فى عروقه مجرى الدم ويخالط جسمه ونفسه وفكره فيكون الجزء الأهم من كيانه العقلى ، حتى إنه ليأبى الدخيل ويرفضه بل إنه قد يقبله حين يقبله ويستقبله استقبال الطيف لا يقيم ولا ينفذ فى الصميم وإنما يظل غير قادر على الامتزاج والمخالطة ولكن يؤخذ منه بمقدار لأن فيه غربة الجرس وغـربة التأليف والتركيب وليس فيه إلا ألفة المصدر الإنسانى المشترك .

إن التعليم لغة الأم إذن هو الوسيلة المثلى لاكتساب المعرفه ، لأنه يقيم بناءه على أساس صحيح من التربية الأولى فى كنف الأسرة وفى حضن الأم فى مراحل التربية المبكرة .

وإن ذلك ليبدو واضحا أشد الوضوح إذا كانت لغة الأم وافية بحاجات التعليم ، حفية بالفكر ، قادره على التعبير عن المشاعر والأفكار .

وفوق كل ذلك فإن التعليم بلغة الأم يظل يصل الفرد بمجتمعه سواء فى ذلك مجتمع الأسرة والبلد والوطن ، أم مجتمع الشعب والأمة فى قديمه وفى جديده ومستحدثه .

أما تغريب التعليم أو تعليم التغريب ، فهو مجلبة للغربة النفسية والفكرية ومسخ للشخصية ، لا يصل الأفراد بالمجتمعات الغربية ولا يبقى لهم على الصلة الوثيقة بالمجتمع الذى هم منه وهو منهم ، وإنما يحيلهم التغريب إلى صورة شبيهة بصورة ذلك الذى فارق أصله ولم يلحق بمن قلده وحاكاه .

(٤)

إن هذه المشكلة من مشاكل حياتنا الفكرية تحتاج إلى مواجهتها فى صدق وصراحة ، وأن لا يتستر على المواقف الحقيقية منها .

لأن التهاون فى علاجها يتجاوز حدود التعليم المنهجى المعروف ، فيكون زمالة فكرية شعورية حضارية ثقافية ، تقوم فيها الحواجز بين أولى العلم والمعرفة الذين أخذوا من ذلك بنصيب ، وبين المجتمع الذى يعيشون فيه حياة عقلية سطحية لا يتأثرون بها إلا بقدر الحاجة اليومية ، ولا يؤثرون فيها إلا بقدر ما يؤثر فيها الأفراد الغرباء .

إن لنا أن نتساءل : لماذا يؤثر فريق منا أن يعلم بلغة أجنبية ؟ ألشعوره بقصور العربية عن الوفاء بالحاجة الفكرية فى التعبير عن الأفكار واستيعاب حقائق العلم ونظرياته ؟ أم لشعوره هو بعجـزه عن التعبير بها والهيمنة على أداتها ، والقدرة على فهم جوهرها وأسسها وقواعدها ؟ أم للتستر على كثير من العيوب والمآخذ الفكرية والعلمية التى لا يكشف عنها التعبير باللغة الأجنبية .

ولو أننا استنطقنا أمثل هؤلاء طريقة وأدناهم إلى الصدق محجة ، لما زاد على أن يقول إنه يريد التعبير بلغة عالمية مرنت على البحث العلمى وطوعت له واستوعبت حقائقه ، وهى ما تزال ماضية فى هذه المضامير لا يقعـد بها عجز ولا عسر ولا تعقيد : ولو أنه ركن إلى اللغة القومية لاحتاج إلى جهـد فى تذليل قواعدها وتطويعها للتعبير عن حقائق العلم ونظرياته ومصطلحاته .

كأن العربية لم تكن لغة العلم والحضارة قرونا عديدة ، نقلت عنها جملة العلوم إلى اللاتينية فى أوربا من قبل أن تتخذ تلك اللهجات المحلية فى أوربا لغات معتمدة كالفرنسية والإسبانية والإنكليزية والألمانية

وكأن التعليم والبحث والثقافة مواطن مقفلة معلقة مثل مواطن البحث فى الذرة وفى صنع القنابل الذرية أما المجتمع العريض وجمهوره فلا شأن له بتلك المواطن والمواضع إلا بقدر ما يتلقى من نتائج أبحاثها ودراساتها من وراء الجدر الصم السماك .

(٥)

إن الثقافة اليوم غذاء للناس كافة ، وهى لم تعد وقفاً على المتخصصين أو على الذين يأخذون بأطراف من العلوم والمعارف والفنون بل إنها أصبحت تسعى إليهم صحيحة أو غير صحيحة ، نافعة أو غير نافعة ، بوسائل النشر ووسائطه المختلفة المسموع منها والمرئى والمقروء وهذا مما زاد فى حاجة الجمهور إلى ما ييسر له التمييز بين الصحيح والسقيم والمفيد وغير المفيد ، القيم وما لا قيمة له وإلى أن يتحروا مواطن الانتفاع ، ويرصدوا مزالق الزلل فى ما تقدم إليهم وسائل النشر ، سواء فى

ذلك ألوان المعرفة، مما يتصل بالحياة الفكرية كالعلوم الحديثة وما يطبق منها فى حياة الناس بوجه عام

(٦)

ولا ريب أن اصطناع اللغة القومية فى أمور الفكر: التعليم أو البحث العلمى، يكون أكثر اقتصاداً فى الجهد، وأدعى إلى اختصار الزمن، لأن الإنسان إنما يفكر بلغة الأم ويركن إليها حتى فى ترجمة ما يتلقى من صنوف المعرفة باللغة الأجنبية، فيكون الجهد الذى يقتضيه العمل الفكرى حينئذ مضاعفاً، إن كان يتخذ مساراً صحيحاً، ويقوم على أساس مكين من المعرفة باللغة الغربية وهذا الأمر، أى التمكن من اللغة الغربية قريب غير محقق ولا متحقق، وأسباب ذلك معروفة وصوره واضحة فى المجتمعات التى استبدلت بلغاتها القومية لغات أخرى فرضت عليها

وإن مما يتذرع به القائلون بصعوبة التعليم بالعربية أمرين مهمين: الأول عسر قواعدها ووعورة أساليب تدريسها، والثانى شدة حاجتها إلى المصطلح العلمى فى صنوف العلم وفروع المعرفة، وكلا الأمرين حقيقة لا مراء فيها.

فإن قواعد اللغة العربية وأساليب تدريسها فى حاجة إلى التيسير وتمهيد السبيل حتى يتسنى ضبطها والتمكن منها، وحتى لا يضيق الدارسون بها ذرعاً.

والمصطلح العلمى ليس بالأمر المشكل، فليلفظوه كما هو فى اللغة الأجنبية إن استعصى عليهم أن يجدوا له ما يقابله باللغة العربية ولكن الأمر الأهم أن تكون العبارة ويكون التركيب الذى يفصحون به عن بالعربية لتتضح الأفكار وتستقيم المفاهيم.

وإن ما يقوم به مجمع اللغة العربية والمجامع العربية فى بغداد ودمشق وعمان والرباط من عمل فى إخراج المصطلح العلمى ليكاد يسد تلك الذريعة ويسقط تلك الحجة وهذه المجامع واتحادها لا تكتفى بالجهود المستقلة وإنما تعاود، فى اتحاد المجامع البحث فى تيسير قواعد اللغة وتسهيل إملائها ابتغاء التيسير على الدارسين والباحثين، بل على الجمهور بعامة.

* * *

أما العناية باللغة الأجنبية بهذا الاعتبار فأمر مطلوب مرغوب لأنه يصل أولى العلم من أساتذة وطلبة وباحثين بالوسط العلمى فى البلاد الأخرى حيث يزدهر البحث العلمى وتقوم سوقه ويكثر نتاجه. ذلك باب لابد أن يشرع ليكون مصدر اقتباس وانتفاع ولكن فى وعى وإدراك بأن لغتنا العربية هى وعاء الفكر ووسيلة التفكير والتعبير، لا يستبدل بها لسان آخر مهما كانت الدوافع.

ولبس اعتزاز أمم أخرى بألسنتها ولغاتها بخاف على ذى بصيرة. على أن هذه الأمم وألسنتها لا تبلغ العربية فى قدرتها على التعبير عن قضايا العلم والمعرفة وأساليب الأدب

والفن والحضارة وهى بعدُ أقل عدداً وأيسر شأناً من هذه الأمة العربية التى أكرمها الله بالدين والإسلام وشرف بكتابه العزيز لسانها العربى المبين ، وجعل من الشعوب المسلمة إخوة لها تستظل وإياها بظل الكتاب الحكيم وتتلهف لمعرفته وتسعد بتلاوته وتعتز بلسانه العربى المبين .

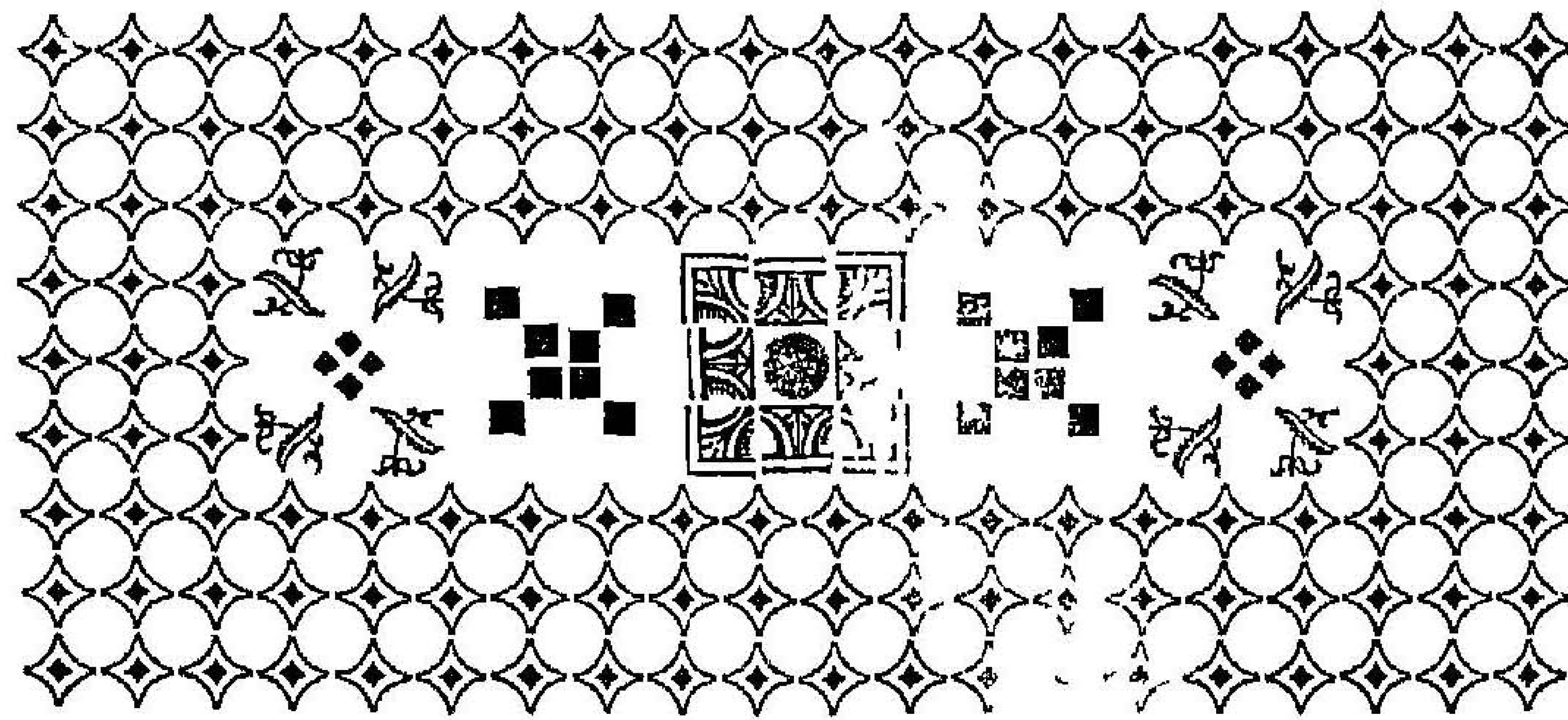
أفلا يجدر بهذه الأمة وهى بهذه المثابة أن تقبل على لسانها وتتجه إليه فى التعليم واكتساب المعرفة ، بل تيسر تعلمه وإتقانه على أبنائها وأبناء إخوتها فى الدين والحضارة ، ممن لو أعينوا على اكتسابه لآثروه ولما عدلوا عنه إلى ألسنة لا تصلهم بها غير صلة الماضى البغيض ، ماضى الاستعباد والاستغلال

أولا يجب على أولى الأمر أن يستجيبوا لداعى العلم والإخلاص فى خدمته ونشره بين أبناء الأمة فيعينوا على وضع الأمر فى نصابه ويقرروا قطع دابر البلبلة والتردد فى معاهد التعليم ومؤسساته بين اللغة الأم وهى العربية ، وبين اللغات الأخرى الدخيلة ؟

ولعل فى ما ينهض به مجمعنا هذا — مجمع اللغة العربية — من عمل متواصل وجهد متصل فى وضع مصطلحات العلوم الحديثة وفى التذكير بواجب الحفاظ على لغتنا العربية وهى جوهر وحدتنا — نحن العرب — لعل فى ذلك ما ينهض العزائم ويشحذ الهمم لتحقيق هذا المطلب الحيوى وإنجاز هذه المهمة الجليلة .

والله يؤيد بنصره من يشاء إنه نعم المولى ونعم النصير .

احمد عبد الستار الجوارى
عضو المجمع المراسل من العراق



شعر الملحون في الأدب المغربي
ولماذا سمي بهذا الاسم
للأستاذ محمد الفاسي

الملحون هو الشعر باللغة العامية ، وقد برز المغاربة ، وأبدعوا قصائد رائعة فى كل فنون الشعر .

وأول مايتبادر للذهن أنه شعر بلغة لا إعراب فيها ، فكأنه كلام فيه لَحْن . وهذا الاشتقاق باطل من وجوه ، لأننا لانقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون ، وإنما باللهجات العامية ، ولم يَرد هذا التعبير عند أحد من الكتاب القدماء ، لا بالمشرق ولا بالمغرب . ولا يعقل أن يسمّيَ أحد شعره بكلمة تنمّ عن الجهل .

والذى أراه أنهم اشتقوا هذا اللفظ من التلحين بمعنى أن الأصل فى هذا الشعر الملحون أن يُنظم ليُتغَنَّى به قبل كل شىء . ونجد مايؤيد هذا النظر فى قول ابن خلدون فى المقدمة فى الفصل الخمسين « فى أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد » بعد أن تكلم على الشعر باللغة العامية فقال :

« وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على الصناعة الموسيقية (١) » . ومعنى هذا أنهم لايدخلون أشعارهم فى موازين الموسيقى المعروفة ، من بَسِيط وبطَايْحِى ونحوهما ، وإنما يجعلون لها ألحانا خاصة . وقد وقفت أخيراً على نصّ لأحد العلماء الإيرانيين من أهل القرن الثانى عشر الهجرى يقول فيه عن

(*) ألقى البحث فى الجلسة الثالثة ٢٨ / ٢ / ١٩٨٥ م .

(١) ص 582

الرباعي فى الأدب الفارسى . « إن الرباعى الذى يغنى به الملحون يسمّى ترانَه بالفارسية » [1] .

ومن أسماء هذا الشعر عندهم « الموهوب » وهذه العبارة تدل دلالة واضحة على أنهم يعتبرون الشعر كهبة من الله ، وليس هو مجرد نظم وإنما هو إيحاء وإلهام ، وكأنه يجرى على لسان الشاعر عفواً ، لذلك يسمونه أيضا « السّجيّة » ، ويميزون بين الأشياخ الذين يقولون الشعر والذين يحفظونه ويغنونه بقولهم « شيخ السَّجية » للشاعر و « شيخ القَريحة » للمغنِّى .

ويطلقون عليه كذلك لفظة « الكلام » كأن الشعر هو الكلام الحقيقى الذى يستحق أن يحمل هذا الاسم ، وغيره كأنه لَغْوٌ ، وكل هذه العبارات تدل على تقدير الشعب لهذا الشعر ونظره إليه بعين الإكبار والإجلال

وفى الحقيقة ، دراستنا للملحون من بين الإنتاجات الأدبية الشعبية ، فيه تحوزٌ ، إذ أَخَصُّ مميزات الأدب الشعبى أنه لايُعرف قائله ، وهذا هو الشأن فى الحكايات وفى الأمثال وفى العرُوبيات التى تغنيها النساء ، وفى نحو هذه الأنواع الأدبية الشعبية حقا ، أما الملحون فلا يربطه بالناحية الشعبية إلا كَوْن قائليه فى الغالب من عامة الشعب ، وليسوا كذلك فى الغالب من المثقفين ، بل كانوا أميّين ، وأما من حيث اللغة العامية ، فإنها ليست لغة طبقة شعبية منحطّة ، بل هى لغة أرقى من اللغة التى يتكلم بها حتى المتعلمون ، لأن شعراء الملحون يُدخلون فى كلامهم كثيراً من الكلمات الفصيحة بعد إجرائها على الأسلوب العامّى ، ثم إن من بين شعراء الملحون من لَو تُرجم إنتاجهم للغة حية لعُدّوا من أكابر شعراء الدنيا ، فيصطبق عليهم من هذه الناحية قول ابن خلدون فى المقدمة فى الفصل المشار إليه آنفا :

« اعلم أن الشعر لايختص باللسان العربى فقط ، بل هو موجود فى كل لغة سواءٌ كانت عربية أو عجمية . »

(١) دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية تحت كلمة Rubài

إلى أن يقول . « ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع فى أهل كل لسان ، لأن الموازين على نسبة واحدة فى أعداد المتحركات والسواكن وتقابُلِها ، موجودةٌ فى طباع البشر ، فلم يُهجَر الشعرُ بفقدان لغة واحـدة وهى لغة مُضر . . فأما العرب أهـل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سَلَفهم من مُضَرَ ، فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض . . . ويأتون منه بالمطوّلات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء » .

ثم قال فى تقدير هذا الشعر بعد أن ذكر أن الكثير من المتحلين للعلوم يستنكرون لهذه الفنون . «وهذا إنما أتى من فقدان المَلَكة فى لغتهم فلَو حصلت له ملَكَة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره . . . »[1] .

وهذه الملاحظة العميقة للفيلسوف العظيم ابن خلدون ، مازلنا نشاهد آثارها إلى يومنا حيث إن الكثير لايقدّرون الشعر الملحون ، لا لشىء إلا لعدم معرفتهم لطرقه وأساليبه ، بل للغته بمعنى أنهم لم تحصـل لهم الملَكة التى يشير إليها ابن خلدون . وكل من حصلت له يتذوقه ويعجب به ويقبل عليه

هذا وإن نظم الشعر باللغة العربية العامية وُجد فى كل عصر وكل قُطر ، إلا أن أهل الأندلس والمغرب فاقوا غيرهم فى هذه الناحية ، وذلك أنهم بعد أن اهتدوا إلى التحرر من أوزان العروض القديمة الضيقة ، واخترعوا الموشّح[2] الذى له بحور خاصة ، أخذوا ينظمون بعد ذلك فى أوزان تشبه الموشّح ، ولكن بلغتهم العامية ، وهو مايسمى بالزجَل . وقد عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا للكلام على هذه الأزجال عند أعراب المغرب وعند

---

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ط . بيروت 1961 ص 1124 - 1125 .

(2) انظر عروض الموشح فى مجلة « الثقافة المغربية » للمؤلف عدد ص .

أهل حواضر الأندلس والمغرب ، وأتى بأمثلة من ذلك يظهر منها أن شعر الأعراب ، وإن كان بلغة عامية ، فهو لايزال قريبا من الأساليب العروضية الخليلية ، كالتزام قافية واحدة فى القصيدة وشطرين فى البيت . أما زَجَل الأمصار فابتعد شيئا ما عن هذه الأساليب . وذكر ابن خلدون كيف «استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنّاً آخر من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالموشّح ، نظموا فيه بلغتهم الحضَرية أيضا وسمّوه عروضَ البلد»[1] .

وذكر أن أهل فاس أقبلوا على النظم على هذه الطريقة ، وكان له هنا عبارة يراها البعض كأنها تنقيصٌ من أهل المغرب حيث قال : «وتركوا الإعراب الذى ليس من شأنهم»[2] .

وليس معنى هذا أنهم لاعلاقة لهم بالإعراب، وإنما مقصوده أن النظم فى هذه الطريقة لاشأن فيه للإعراب ، وإلا فهو يعلم أن شيوخه الذين أخذ عنهم وهو شاب بتُونُس قبل قدومه على فَاس ، هم العلماء المغاربة الذين صحبوا السلطان أبا الحسن المرينى إلى تونس ، وهم الذين شوّقوه إلى التوجه إلى فاس للأخذ عن علمائها . وهو يعلم أن شأن هؤلاء مع الأعراب شأن وأىّ شأن ، فلا ملامة عليه فى تلك العبارة .

ثم ذكر أن هذا الشعر المستحدث باللغة الحضرية الفَاسِية (استفحل فيه كثير منهم ونوّعوه أصنافاً إلى المزدَوج والكازى والملْعَبة والغَزَل»[3] وقد أورد أمثلة منه لشعراء من أهل تَازَة ومن أهل زَرْهُون . وقال بعد هذا : «وأما أهل تُونس فاستحدثوا فى الملْعَبَة أيضا على لغتهم الحضرية إلا أن أكثره ردىء ولم يعْلَق بمحفوطى منه شىء لرداءته» .

موضوعات الملحــون :

إن الموضوعات التى يطرقها أشياخ الملحون يمكن أن نقول عنها من أول وهلة ، إن سائر النواحى التى نعتادها فى الشعر العربى الفصيح نجد لها مقابلا فى الملحون ، فقد نظموا فى

---

(1) ابن حلدون ، المقدمة ص 1160 بيروت 1961 .
(2) ابن خلدون ، المقدمة ص 1162 بيروت 1961 .
(3) ابن حلدون ، المقدمة ص 1162 بيروت 1961 .

للشعر الغنائى بسائر أنواعه من وصفه للطبيعة فى قصائد تسمى الربيعيّات ، أو تحمل أسماء مختلفة كالعرصَة ، وكالرياض ، وكالصبُوحِى ، وكالدِّيجُور ، أى الليل ، وكالفجر ، وكالذهبية أى غروب الشمس ، ونحو ذلك ، ونظموا فى وصف مجالس الأُنس والمرَح مع التعرّض لذكر محاسن الفاتنات فى قصائد تحمل مثل هذه الأسماء : النزهة ، والزهْو ، وشَعْشَانة ، والغَزَال ، والمزْيَان ، وحمهور البنات ، والفصَادة والحجّام . وتسمى بهذين الاسمين الأخيرين القصائد التى يكون موضوعها وصف الحفلات التى كانت تقام بمناسبة الفصْد .

وكثير من قصائد هذا النوع التى موضوعها وصف الجمال تُعرف باسم من أسماء النساء ، كرينَب أو فاطمة ، حتى إنك لاتكاد تجد اسم امرأة لاتوجد قصيدة أو عدة قصائد منظومة فيه ، على أن عددا كبيرا من القصائد التى تعرف باسم امرأة هى من باب النوع الغرامى الذى يعبّر فيه الشاعر عن عواطف صادقة ، ولايكون وصف الجمال إلا عَرَضًا وليس هو المقصود بالذات .

والقصائد الغرامية تحمل أسماء كثيرة ، مثل المحبوب ، والمعشوق ، والجار ، والمرسول ، والجافى ، والهاجر ، واللاّيم ، والمرسَم أى الحىّ أو المكان الذى يسكنه المحبوب ، والشمعة حيث يُشبَّه احتراقها وذوبانها وصفرتها بصفات العاشق الولهان الذى لاتنقطع دموعه ، ويحترق فؤاده وتذبل سجنته . وقد انفرد كثير من الشعراء بأسماء خاصة للقصائد التى عبروا فيها عن هُيَامهم بمحبوبتهم ، مما لايمكن استيعابه .

ونظم شعراء الملحون الخمريات والقصائد فى ذلك ، تسمى الدَّالِية ، والكَاسْ ، والخمْرية ، والسَّاقى ، والسَّاحِى ، والخمارة ، وقد برع فى هذا النوع الأدبى جل كبار الشعراء كالشيخ الجيلَالى ، والسّى التهامى المدَغرِى ، وسيدى قدُّور العَلَمى ، والكندُوز ، والحاج إدريس الحنْش ، وغيرهم . وأكثر الشعراء ينظمون فى هذا الموضوع لإظهار براعتهم حتى إننى أحصيت نحو الستين ساقيا لثلاثة وثلاثين من الشعراء .

أما الهجاء فقد برعوا فيه وتفوقوا . ويسمونه «الشّمحْط» ، وهو «الدّق» عند أهل مراكش . وإذا كان شعر المدح لم يحفظ لأن فائدته مقصورة على المادح والممدوح ، فإن الهجاء لهم به ولوع ، ويرون فيه الشعر الصادق ، فإنه غالبا مايصدر عن غضب وتأثر ، وذلك أنه كثيرا ماتقوم نزاعات بين أشياخ الملحون حول قضايا ترجع لفنهم وتؤدى إلى مساجلات ومناقضات مما يدفعهم إلى الهجاء . وقد حفظت قصائد كثيرة ممتازة فى هذا النوع الأدبى ، وهى تحمل أسماء مختلفة ، منها «الدّعِى» ، أى الذى يدعى المعرفة والتفوق وهو دون ذلك ، ومنها المطموس ، ومنها مايحمل اسم القافية كالضادية والواوية مثلا . ومن أشهر القصائد الهجائية «قصر العنان ، الشّاوى» ، وقد ابتكر العرابلى وبَريشُول فى مساجلاتهما معانى جديدة مقتبسة من الحروب البرية والبحرية فسموا قصائدهم المهـرار . (المدفع الكبير) ، والقرصَان ، أى السفينة الحربية التى كان القراصنة يغيرون بها على أعدائهم . وسمى الغرَابلى إحدى قصائده بالغطّاس قبل أن يُخترع ويُعرف .

وقد بلغ ولوعهم بالهجاء لدرجة أنه لاتجد قصيدة إلا فى ماقل ، باستثناء كلام السِّى التهامى المدَغْرى وسيدى قدُّور العَلَمِى ، لايحتمها صاحبها بهجاء خصومه ولو بإشارة خفيفة ، فإذا أطـال فذلك مايسمى «بالزّرْب» ، ويعنون بذلك أنهم يحيطون إنتاجهم بزرب من الشوك فلا يستطيع أحد من المعاندين الجاحدين الاقتراب منه ولاخرق ساحته ، ورغم كل هذا فإنهم لايحبذون الهجاء الشخصى ، أى الذى لايكون سببه خلافا فنيا أو مساجلة ، وإنما مجرد هجو ناتج عن عداوة مثلا ، ومثل هذه القصائد يطلقون عليها اسم «فصيحة» وهى لاتُقبل ولا تُحفظ . ويعاملونها معاملتهم لقصائد المدح ، ويرون أن فائدتها شخصية ، ولا تعنى إلا القائل ومن قيلت فيه .

وينظمون كذلك فى الرثاء ويسمونه «العَزَا» ، أو «العزُو» إلا أن القصائد فى هذا النوع بما أنه لايغنى بها فإنها تضيع ولاتحفظ ، وإنما نجد بعضها

فى الكنانيش القديمة مثل رثاء المنصُور السّعْدِى لسيدى عبد العزيز المغْرَاوى .

وزيادة على هذه الأنواع التى توجد فى الأدب العربى الفصيح ، فقد امتاز شعراء الملحون بطرق مواضيع إما لاتوجد مطلقا فى الشعر العربى القديم أو الانتاج فيها كان ضئيلا وضعيفا .

من ذلك ، النوع المسرحى الذى مع الأسف لم يلهموا إخراجه فى شكل تمثيلى حقيقى ، وإنما بقى فى طوره الموسيقى المحض ، وإن كنت أرى أنهم اقتبسوا هذه المحاورات والمواقف المسرحية التى نجدها فى القصائد التى نظمت فى هذا النوع من الألعاب التى كانت تجرى بفاس وبمراكش أيام عيد الأضحى ، وتسمى الفرَاجَة أو بَالشّيخ ، حيث تعرض روايات هزلية يقوم بتمثيلها أشخاص معروفون بإتقان أدوار خاصة .

وهذا النوع الأدبى يسمى عندهم ترجمة والمواضيع التى يطرقونها متنوعة ، لكن أكثرها هو مايسمى « الحرّازْ » ، حيث يصورون شخصا يحب امرأة ويحـاول الاتصال بها ، فيأتى فى صور مختلفة ليحصل على ثقة بعلها الذى يمنعها ويحرزها ، لذلك يسمى الحرّاز ، فيصدّه ولايترك له مجالا حتى يوفق إلى المجىء فى صورة ينخدع فيها الحراز ، فيتوصل العاشق إلى مرغوبه .

ومنه أيضا القصائد التى تسمى « الضّيْف » وهى تصور محبوبا يأتى عند محبه متنكرا فى صورة من الصور ، ويطلب منه «ضيف الله» ، وتقع بينهما محاورات ثم ينكشف له أنه حبيبه جاء عنده فى غفلة من الرقباء .

ومنها القصائد المسماة « القاضى » ، حيث يصور الشاعر أنه يحاكم محبوبه عند القاضى ويقدم حجج محبته وغرامه حتى يقضى له الحاكم بأنه محق فى دعواه .

وتارة يكون موضوع القصائد فى هذا النوع المسرحى مفاخرة مابين أشخاص كالعربية والمدينية ، أى البدوية والحضرية ، أو كالأَمَة والحرّة ، أو كالعجوز والشابّة ، وهكذا ، أو بين أشياء كأزهار ونحوها .

والقصائد فى هذا المعنى تُدعى « خصاما »

ومن المواضيع الطريفة فى الملحون الرحلات الخيالية ، وهم يصورون أنهم يوجهون طائرا ، إما لزيارة مكة والمدينة شوقا إلى تلك البقاع المقدسة ليصف المراحل التى يمر بها إلى أن يصل إلى الحجاز ، أو يوجهونه إلى الحبيب أو إلى الأصدقاء فى بلد بعيد وفى كل هذه الأحوال توصف الطرق والمنازل التى يمر بها الطائر ، والقصائد المنظومة فى هذا النوع تحمل عادة أسماء الورشان ، والحمام ، والمرحول ، والطلعة ونحوها

ومما يمتاز به الملحون أيضا ، وهو شبيه بالرحلة من جهة وصف البلاد أو أحياء مدينة من المدن ، مايتخيلونه من أن المحبوبة تركت عند حبيبها حاجة كحلى أو نحوه كتذكار ، ثم ضاعت له فأخذ يبحث عنها وتسمى عادة هذه القصائد باسم الشىء الضائع « كالخلخال » ، « والدمليج » أى السوار ، « والدواح » و « المقياس » ، وهو السوار كذلك ، «والسالف» ، ويعنون به ضفيرة من شعر المحبوبة .

ومن هذا النوع كذلك قصائد رمزية يشبهون فيها المحبوب النافر الهاجر بحيوان كان يألف المنزل ثم هرب وتلف ، فيقوم الشاعر بالبحث عنه كذلك . ومثل هذه القصائد تسمى « الطرشون » ، وهو الباز الصغير ، «والعزال » و « الطير » ونحو ذلك

ولشعراء الملحون براعة فى الشعر الفكاهى . والمواضيع التى يطرقونها فى هذا الباب كثيرة ومتنوعة . وتحمل القصائد الهزلية عادة مثل هذه الأسماء : « الزردة » و « الضمانة » و « الفار » و « الطجين » وغير ذلك .

ويختص الشعر الملحون بنوع يسمى عندهم « الجفريات » ، وهو التنبؤ بالحوادث المستقبلة . والواقع أنهم يتخذون هذا الأسلوب كمطية النقد السياسى متخذين لهذه الغاية إشارات ورموزا يدركها المعاصرون ويفهمون مغزاها . وأكبر من برز فى هذا النوع : الفقيه العميرى . وكان أيام المولى عبد الرحمن ، وله عدة قصائد جفرية منها اللامية (وكثير من قصائد هذا

النوع تحمل اسم القافية) . وقد ورد في هده اللامية هذا البيت :

داك الوَلْـد المهْبُول
أَصْلُهُ مَن أَنَاضُول
الفَرْخ يشْبَه اخْوَالُهْ

فلما ثار المولى عبد الحفيظ على أخيه المولى عبد العزيز ، أخذ الناس يقولون إن الفقيه العميرى عنى فى هدا البيت المولى عبد العزيز ، لأن أمه سَرْكسِية جاءت من بلاد الأناضول بتركيا .

ولما انهزمت فرنسا سنة 1940 فى الحرب الأخيرة ، أخد الناس ينتسخون قصيدة جفرية لأحد شعراء مراكش يدعى الموقِّت ، كان يعيش فى أوائل هذا القرن وتسمى «الزّازية » (أى قافيتها زاى) ، تعرض فيها للانتقاص من الفرنسيين والتنبؤ بهزيمتهم

وتوجد كدلك قصائد سياسية نظمت بمناسبات وطنية كالقصائد المسماة « التِّطْوانيات ، حول حرب المغرب مع إسبانيا سنة 1859 — 1860

وقصائد حول فتح بُونابارت لمصر ، وحول دخول الفرنسيين لوجدة . وقد نظم الشعراء كذلك فى مساندة الحركة الاستقلالية أيام النضال وأشهر من برع فى هدا الباب الشاعر الملهم الشيخ العيسوى الفَلّوسْ من أهل فاس رحمه الله وكل الشعراء المعاصرين نظموا فى التنويه بجهادمحمد الخامس قدس الله روحه ، ووارث سره جلالة الحسن الثانى نصره الله .

وينظمون فى الألغاز ويسمون عادة هذا النوع « السّولأن أو السوّال » ، وهذا النوع مطية لإظهار البراعة فى الاطلاع على معلومات عن أشياء غريبة يستمدونها من اتصالاتهم وملازمتهم لبعض العلماء ومن مطالعة كتب العجائب والغرائب .

ولهم قصائد تعليمية ينظمون فيها التوحيد والسيرةالنبوية والمنازل الفلكية ومثل هذه القصائد الأخيرة تسمى « ترحيل الشمس » ، وممن نظم فى ذلك المغراوى من القدماء والحاج أحمد الغرابلى من المحدثين .

ومن المواضيع التى نظم فيها بعضهم ما يسمونه بالقصائد « الحسبية » تسمية

الشيء بنقيضه ، وهي من باب رجوع الشيخ إلى صباه ونحوها ، وهي من الشعر الذى لا ينشد إلا فى بعض مجالس اللهو أو بين جماعة من الناس ارتفعت من بينهم كل كلفة .

وامتاز كذلك شعراء الملحون بالنظم فى موضوع لا نعرفه فى الأدب العربى القديم ، وهو موجود فى الأدب الغربى وهو مسخ القصائد (ويسمى بالفرنسية مثلا Parodie) . وذلك أنهم يعمدون إلى قصائد جدّية معروفة ، ويقلبون موضوعها إلى الهزل والسخرية . وكثيرا ما يحولونها إلى النوع الحسى المشار إليه آنفا . وممن اشتهر فى هذا النوع من شعراء الملحون أحد شعراء أحد مراكش كان يدعى أحمر الرأس من رجال أوائل هذا القرن العشرين ، ومنهم الفقيه الرزّاق من أهل فاس ، وكان يقطن مراكش .

وأهم نوع برز فيه شعراء الملحون الشعر الملحمى « الأبوبية » ويسمونه « العزوات » . والحقيقة أن القصائد التى موضوعها حروب المسلمين مع الكفار ليست هى كل الشعر الملحمى فى الملحون فهناك كذلك قصص « أبوبية » تتعلق بسير الأنبياء والأولياء تتخللها كثير من الخوارق . ومن أشهر شعراء الغزوات والقصص الملحمية سيدى عبد العزيز المغراوى وله فى ذلك الموؤودة وجرير والشدادية والشباب الغسانى وغيرها ، ومنهم سيدى مبارك أبو الأطباق وقد كان له أثر على شعراء الملاحم .

ومن آثار سيدى مبارك أبو الأطباق غزوة الصيد بن سلامة المخزومى والإسرائيلية والراحة ، وتسمى كذلك غزوة أبيض ابن صلصال ، ويقصد بالراحة دما شفاء سيدنا على كرم الله وجهه من رمد ، وله فتوح افريقية وغير هذا من القصائد الرائعة فى هذا الموضوع الخيالى أما سيدى محمد ابن يَخْلف ، وهو كذلك من شعراء الملاحم ، فمن قصائده الرهيب (الراهب) ، و « الضيافة » ويعنى بها ضيافة رب العزّة لعباده ، وقصة « الشباب مع أبى جهل » و « أبو يزيد البسطامى مع رهبان الدير » وغيرها كثير ، وقد كان يعيش فى أواخر

القرن الحادى عشر الهجرى وأوائل الثانى عشر : وهو يؤرخ قصائده . وما وقفت عليه من كلامه مؤرّخ ما بين 1095 ، 1120 هـ

وقد كاد ينعدم هذا النوع ، إذ لم ينبغ فيه بعد هؤلاء الشعراء إلى أوائل هذا القرن أحد ، إلا ما كان من قصيدة أو قصيدتين تعرف لبعض الشعراء وكأنهم كانوا يتعمدون النظم فى الغزوات والقصص الملحمية ليبرهنوا على براعتهم وقدرتهم . فمن ذلك « النباش » للشيخ الجيلالى مثير و « الصالحية » لسيدى عبد السلام الزفرى ، و « العيواجية » للسى الكبير ابن عطية ، و « الكهفه » للشيخ غانم القصرى ، و « النمرودية » المغرابلى . وفى أوائل القرن أحيا هذا النوع الشيخ المكى ابن القرشى فنظم فيه الشىء الكثير « كالعاشقة مولاة التاج » و « جمجمة » و « البغدادية » و « اليوسفية » و « الشـدادية » و « الشريفة » وسيدوك النصرى » .

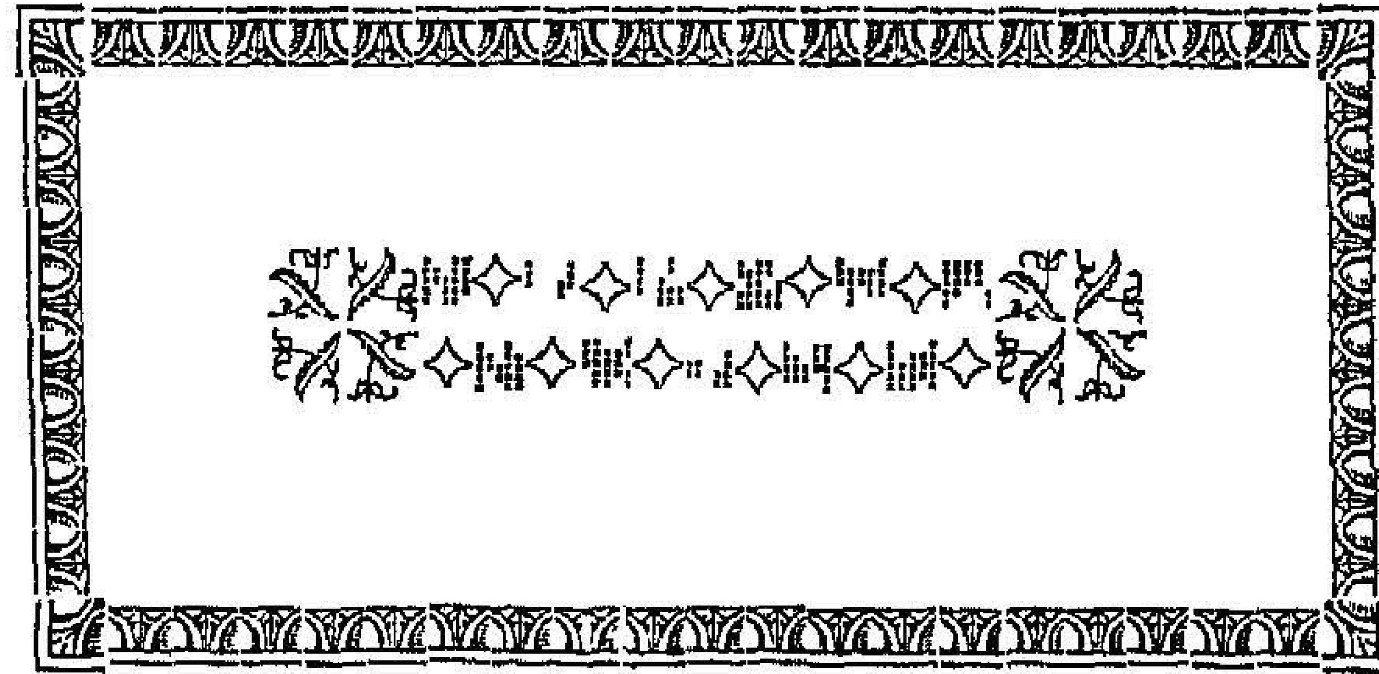
وقد كان رجال الاستعمار أيام الحماية يمنعون إنشاد هذه القصائد فى الأسواق وكان المراقبون إذا تقدم لهم أحد « المداحين » يطلب الإذن فى السفر التجول فى المدن والقبائل قصد ترويج بضاعته أول ما يسألونه عنه هل يحفظ الغزوات ؟ فإن أجاب بالنفى أعطى الإذن وإلا منع ، لأنهم كانوا يخشون بعث العاطفة الوطنية والدينية فى النواحى التى كانت ما تزال بعيدة عن أثر الدعوة الاستقلالية .

هذه نظرة وجيزة عن جانب من هذا الفن البديع ، وإننى أهتم به ، وأجمع الإنتاجات التى أبدعها الأشياخ المغاربة ونعنى بهذا التعبير الشعراء منذ نعومة أظفارهم ، وجمعت من القصائد خمسة آلاف قصيدة ، ومن الشعراء خمسمائة شاعر ، ووضعت أسس عروضه ، ومصطلحاته ، وجمع من ذلك كله مؤلف ضخم ، يحتوى على عشرين جزءا ، أخذت الأكاديمية المغربية تنشره وسيظهر ، إن شاء الله تعالى ، جزؤه

الأول بعد شهر ، وقدم له صاحب الجلالة الحسن الثانى ، نصره الله ، برسالة سامية ، أوضحت قيمة هذا العمل ، وقدره تقديرا يشرفنى ويشرف الأكاديمية فجزاه الله خيرا عن الثقافة والعلم .

وشكرا لكم على حسن استماعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد الفاسى
عضو المجمع من المغرب



درجات الصواب والخطأ في النحو والأسلوب

للدكتور تمام حسان

للصواب والخطأ زاويتا نظر إحداهما ترتبط بصناعة النحو ، والأخرى تتعلق بأسلوب الاستعمال اللغوى ، أى أن إحداهما فنية والثانية اجتماعية فأما من وجهة النظر الأسلوبية الاجتماعية فالصواب ماوافق الشائع فى الاستعمال والخطأ ماند عنه . ولاشك لدى أصحاب هذه النظرة أن القاعدة ضابط مستنبط من كلام العرب ، وأن استعمالات العرب سنة متبعة تستند إلى سلطان العرف وأن بين الضابط الذى يصنعه النحاة وبين السنة المتبعة التى يفرضها العرف وفاقاً فى الأغلب الأعم من الحالات ، وخلافاً فى حالات أخرى هى الأقل بالنسبة إلى مايقابلها فى كلام العرب.

والقاعدة تلخيص لتقلب العلاقات بين عناصر السياق وما يصاحب هذا التقلب من تغير فى مبانى اللغة ، ومن ثم تكون القاعدة وصفا لهـذا التقلب ، ولكنها ليست قانونا يسنه النحوى بما أعطاه العلم من سلطة يشرع بها للغة ، ولا معياراً يحدده هذا النحوى ليلزم أصحاب اللغة ومستعمليها مهما كان هذا المعيار منسجما مع تقلب العلاقات السياقية . ننكر إذاً أن تكون القاعدة معياراً فى يد النحوى ، وإن وجب لها أن تكون معياراً فى يد معلم النحو ، معنى ذلك أنه يطلب إلى النحو أن يقول : العرب تقول كذا ، وتقدم هـذا على ذاك ، وترفع هذا وتنصب ذاك الخ ولا يقبل إلا من المعلم أن يقول : يجب كذا ويجوز كذا ويمتنع كذا فأولى للباحث (وقد كان النحاة باحثين فى لغة العرب) أن ينظر إلى مشكلة الصواب والخطأ من زاوية اجتماعية ترى فى الاستعمال سنة متبعة ، وأولى بالمعلم أن ينظر إلى المادة اللغوية من زاوية فرض القاعدة على الاستعمال فإن وافقها كان صوابا وإن خالفها كان خطأ ، فالباحث يستنبط القاعدة بالمنهج العلمى من مادة الاستعمال (المسموع) والمعلم يفرضها بالمنهج التعليمى على هذا الاستعمال نفسه .

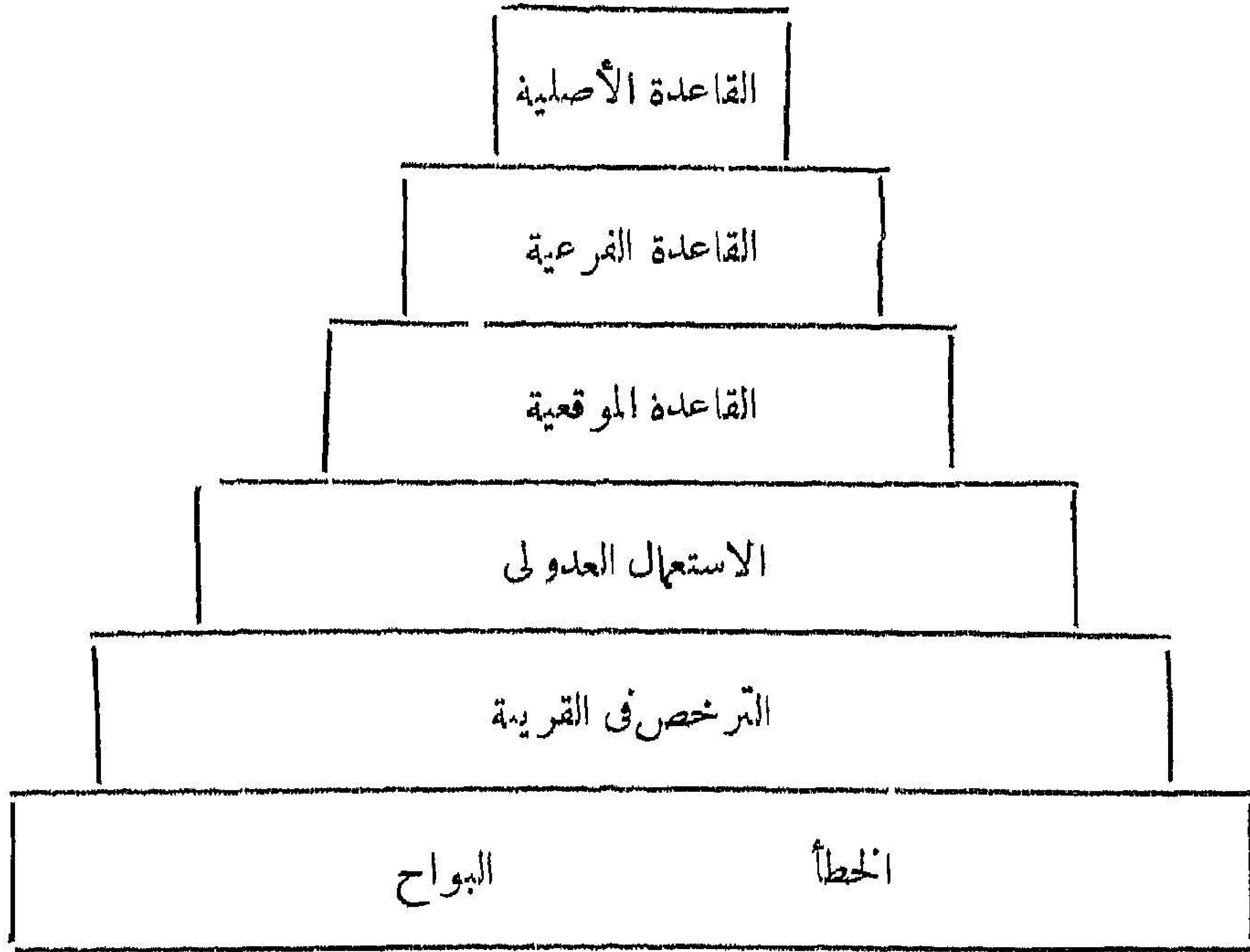
(*) ألقى البحث فى الجلسة الرابعة ٢ / ٥ / ١٩٨٥ م .

وصاحب السليقة كالباحث لا يهتم للقاعدة إذا عرفها أى قدر من الاهتمام ، مادام حدسه اللغوى (الذى نسميه السليقة) يرى الصواب فيما قيل وتلك هى القضية التى كانت مثار المشاركة بين الفصحاء والطاعنين على العرب ، كالذى كان بين الفرزوق وابن أبى إسحق ، إذ قال الفرزوق له : « علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا » ويبدو أن النحاة وقد اكتمل فى أيديهم وصف بنية اللغة ، فرأوا صدق قواعدها ، أعجبوا منذ البداية أشد الإعجاب بما استخرجوا من قواعد النحو ، ومن ثم دافعوا دفاعا غيوراً (كما فعل ابن أبى اسحق) عن هذه القواعد ، وعن إطلاقها فى اللغه وتطبيقها على صورة تتسم بالشمول ، كما لو كان كل الاستعمال مسرحا للاطراد أو ينبغى أن يكون كذلك

ولكن معترك اللغة أوسع من أن يخضع لضوابط النحو ، ويرجع هذا إلى أسباب متعددة ، ليس أهونها طموح الأدباء والشعراء إلى الترخص والابتداع ، ولا ما وقع فيه النحاة أنفسهم من التماس الاطراد فى لهجات العديد من القبائل وقد علموا أن كل لهجة قبيلة من هذه القبائل تستقل بطرقها الخاصه ، فلا يمكن أن يستخرج نحو واحد من صور استعمالية متعددة ومع هذا ليس من طبيعه اللغه (أى لغة) أن تسلم نفسها إلى قواعد كبرى لاتقبل الاستثناء ، ومن هنا كان من صلب عمل النحاة أن يقيدوا كبريات القواعد باستثناء هنا ، واستدراك هناك وشرط فى موقع ثالث ، وأن يصوغوا قاعدة لكسر قاعدة أخرى ، أو يقعدوا لعدول عن الأصل ، يتقبلوا أسلوبا فصيحا عـدل به عن الأصل ثم يتناولوه بالتبرير والتأويل ثم كان عليهم أن يضعوا كل ذلك جنبا إلى جنب فى إطار نحو واحد ، وأن يغضوا الطرف عن التضارب بين قاعدة وقاعدة ، ويبرروا تجاور القاعدتين المتضاربين بأن إحدهما أصلية والثانية فرعية ، أو أن إحداهما مطلقة والأخرى قيد على هذا الإطلاق . وأخيرا كان عليهم أن يرتضوا بعض الخروج على هذه القواعد لأعراض أسلوبية ، وأن يرفضوا بعضا آخر لكونه شاذا أو قليلا ، أو نادرا ولغة لحى بعينهم من أحياء العرب وأن يحكموا على ما خالف قواعدهم عدا كل ما سبق بأنه خطأ من الخطأ ، لا تقبل فيه شفاعة التأويل ، ولا تبرره الشواهد القليلة

ذلك كان موقف النحاة من جانب ، والعرب الفصحاء من جانب آخر ، أما نحن فلنا موقف نظرى آخر نشرح فيه تدرج الصواب والخطأ على مساحة تشمل الموقفين جميعا ، بدءا بالقاعدة المحكمة ، وانتهاء بالسنة المتبعة ، ولقد يمكن أن نقدم للكلام فى هذا الشرح برسم بيانى نمهد به تمهيداً حسنا لما ننوى

أن نتقدم به من شرح ، وفيما يلي ذلك الرسم المذكور :



فالقواعد الأصلية هي القواعد الكبرى كقواعد الاختصاص ، والافتقار والرتب المحفوظة وتعلق الجار والمجرور ، ومطابقة النعت الحقيقى ، وبناء الجملة من ركنين ، وعود الضمير ، وامتناع الحذف عند عدم الدليل ، واجتناب مايؤدى إلى اللبس الخ فذلك كله من القواعد الكبرى فى النحو العربى،ولكن من القواعد الأصليه مايتفرع عنه قواعد فرعية منشؤها واحد من أمرين :

(ا) الحرص على أمن اللبس.

(ب) المحافظة على أصل من أصول الصناعة

والأمثلة على ذلك كثيرة فى النحو العربى نورد منها الطائفة التالية :

١ — القاعدة العامة : « المبتدأ معرفة » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله « ولا يجوز الابتدا بالنكرة » ولكن هذه القاعدة تتفرع عنها قاعدة أخرى مستثناه منها ، وهى جواز الابتداء بالنكرة إذا أفادت ، وهذا ماعبر عنه هو أيضا بقوله « مالم تفد » . ومعنى قوله « ما لم تفد » هو ما يفهم من عبارة أخرى تقول : « إلا إذا أمن اللبس » والسؤال الآن هو : كيف يتحقق أمن اللبس ؟ ويمكن الإجابه على هذا السؤال بواسطه النظر إلى ماقدمه ابن مالك نفسه من أمثلة ، لنرى الطرق المختلفة التى تحقق بها أمن اللبس على رغم الابتداء بالنكرة ، وفيما يلى نورد أمثلة ابن مالك والتعليق على كل منها .

(ا) « عند زيد نمرة » إذا تأملنا هذا

المثال وجدنا الظرف مقدما على النكرة المرفوعة ومن المطلوب عند رؤية الظرف أو الجار والمجرور أو سماعهما أن نبحث لهما عن متعلق ولكن ليس فى الجملة مع الظرف «عند» إلا النكرة « نمرة » وهذه النكرة جامدة لا تصلح لأن يتعلق بها ظرف أو مجرور ، ومن ثم ينصرف الذهن إلى تقدير كلمة أخرى ليتعلق الظرف بها ، فإذا قدرنا هذه الكلمة وجدناها واصفة للنكرة المتأخرة لفظا فى الجملة ونحن نعلم أن الخبر وصف للمبتدأ فى المعنى ، وأن هذه الكلمة المقدرة لا تصلح نعتا بسبب تقدمها على النكرة ولا تصلح حالا لتقدمها وارتفاعها وتنكير النمرة فلم يبق إلا أن تكون هذه الكلمة خبرا مقدما والنكرة مبتدأ مؤخرا هكذا يتبادر المعنى إلى الذهن دون الدخول فى مضايق تحليل نحوى شبيه بما قدمنا ، وهكذا يؤمن اللبس ، وتتحقق الإفادة التى قصدها ابن مالك .

(ب) « هل فتى فيكم » لا يجهل من يستعمل اللغة العربية أن « هل » أداة استفهام ، وأن الاستفهام لا ينصب على المفردات ، وإنما يتجه إلى إسناد الجملة فوجب عندئذ أن تكون « فتى فيكم » جملة بسبب دخول « هل » عليها وإذا كانت جملة فهى ليست فعلية لعدم وجود فعل فى تركيبها ، وبذا تكون جملة اسمية من مبتدأ وخبر وإذا كانت عبارة «فيكم» لا تصلح مبتدأ فلا بد أن يكون المبتدأ عنصرا آخر من عناصر الجملة ، وليس فى الجملة عنصر آخر إلا كلمة «فتى» وهكذا أمن اللبس فابتدئ بالنكرة.

(ح) «ماخل لنا » فى هذا التركيب حرف نفى ، والنفى إنما يدخل على الجمل وما قيل فى « فتى فيكم » يقال فى « خل لنا » لتشابه التركيب فيهما .

(د) « رجل من الكرام عندنا » التخصيص مرحلة وسط بين التنكير والتعريف وإذا كانت النكرة تعرفها الأداة أو الإضافة المحضة ، فإنها يخصصها الوصف فى التخصيص ، كما فى التعريف تضييق لعموم الدلالة التى كانت للنكرة ، وليس إلا اختلاف بين التخصيص والتعريف فى مجال تضييق عموم الدلالة إلا اختلافا فى الدرجة فقط . وإذا كانت الجمل بعد النكرات صفات فإن شبه الجملة يصدق عليه ما يصدق على

الجملة وهكذا تكون عبارة « من « الكرام » قد وصفت « رجل» وخرج بوصفه بها من ليس كريما من بين الرجال ، وأصبح مدلول « رجل » أضيق مما كان لأنه أفادنا بالوصف قدرا من التعيين جعله صالحاً لأن يخبر عنه بالظرف أي أنه حين أمن اللبس صح الابتداء بالنكرة .

(هـ) «رغبة فى الخير خير » إنما يكون تعلق الظرف والمجرور بالمصادر والمشتقات من أفعال وصفات وواضح أن معنى تعلق الظرف والمجرور بأحد هذه الأمور يجعلهما من تتمة معناه ، ولا يتم معناه إلا مع تصور ارتباطهما به دون غيره وإذا قلت « اشتريت ضيعة لأخى » فإن المعنى يختلف باختلاف تعليق الجار والمجرور فإذا علقنا المجرور بالفعل فالمعنى أن الشراء كان من أجل الأخ ، أما إذا علقناه بصفة محذوفة فإن الشراء يكون من الأخ بعد أن كانت الضيعة ملكاله ويترتب على تعليق الجار والمجرور أيضا تضييق لدلالة ما تعلقا به ، ففى قولنا « جلس زيد » عموم فى معنى الجلوس لا يعرف معه « أين » ولا (« متى » ولا « لماذا » ولا « كيف » جلس ، ولكن هذا العموم فى المعنى يضيق بقولنا : «جلس زيد على الكرسى» وذلك بالإجابة عن « أين» على الأقل هكذا يكتسب الجلوس قدرا من التحديد ، يصبح الفعل معه أوضح مما كان ، وهذا ما يرد أيضا على المصدر « رغبة » فلسنا نجد كبير فائدة فى عبارة « رغبة خير » برفعهما وتنوينهما ولكن تضييق معنى الرغبة بواسطة ذكر الجار والمجرور المتعلقين بها يعطى الكلمة من التحديد فى المعنى ما يقربها إلى المعرفة وهنا يذهب اللبس ، ويصبح الابتداء بالنكرة محققا للفائدة

(و) « عمل بريزين » إذا أضيفت النكرة إضافة محضة إلى المعرفة اكتسبت التعريف ، وإذا أضيفت إلى النكرة اكتسبت التخصيص وقد عرفنا منذ قليل أن التخصيص مرحلة على طريق التعريف ، وأنه إن كان دون التعريف أثرا فى المعنى فهو صنو للتعريف على أى حال وهكذا تكون النكرة المخصصة بالإضافة صالحة لأن يبتدأ بها ، لأن اللبس معها مأمون والمعنى واضح .

٢ـ القاعدة العامة . « لا يخبر بالزمان عن الجثة » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله

ولايكون اسم زمان خبرا
عن جثة . .

والمعروف أن المقصود بالزمان ظرف الزمان ، وأن المقصود بالجثة كل مسمى له جرم مادى وربما كان السبب فى عدم صلاحية الزمان لذلك أن الخبر إذا كان صفة للمبتدأ فى المعنى فهو من جهة أخرى عين المبتدأ فى المعنى ، لأن الصفة من مقومات الموصوف وما كان من مقومات الشئ عد « عين الشيء » وإذا قلت . « الرجل قائم » كان القائم هو الرجل أما إذا قلت . « زيد عندك » فإن العندية ليست عين زيد ، ولا من مقوماته ، ولكنها على الرغم من ذلك تتعلق بما هو من مقوماته وهو « استقراره » فيكون التقدير : « زيد مستقر عندك » أما إذا قلنا « زيد اليوم » فلا يمكن أن يعد « اليوم » من مقومات زيد ، ولا يمكن كذلك أن يتعلق اليوم بوصف يتبادر إلى الفهم كما تبادر الاستقرار إلى العندية .
و إذا فلا وجه لتأويل ذلك ، ومن ثم يمتنع التركيب من حيث يؤدى إلى اللبس .

ولكن هذه القاعدة العامة تتفرع عنها قاعدة أخرى مستثناة منها ، ومشروطة بأمن اللبس ويفهم هـذا الشرط من قول ابن مالك « وإن يفد فأخبرا » وهى تتمة بيت الألفية الذى أشرنا إليه منذ قليل وإنما تكون الإفادة وأمن اللبس إذا اصلح المبتدأ لأن يكون مضافا إليه والمضاف من أسماء المعانى (كالمصادر مثلا) فعندئذ لا يكون الإخبار بالزمان إخبارا به عن جثه وإنما يكون عن معنى فإذا قلت « الهلال الليلة » والمعروف أن الهلال جرم يصدق عليه أنه جثه ، صح التركيب ، لكن على تأويل حذف مضاف إلى الهلال . والتقدير « طلوع الهلال الليلة » أو ظهور الهلال الليلة » ولا شك أن الطلوع والظهور مصدران ، والمصادر معان لا جثث ، ومن هنا يكون الإخبار بالزمان فى هذا التركيب « عن معنى لا عن جثة وبهذا نصل إلى الإفادة ونحقق أمن اللبس » .

٣ ـ القاعدة العامة : « أى الموصولة معربة » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقولة : « أى كذا وأعربت » ومقتضى هذه القاعدة أنها معربة فى التراكيب التالية .

(ا) رأيت أيا قادم .

(ب) رأيت أيا هو قادم .

(ح) رأيت أيهم هو قادم .

ولكن لهذه القاعدة العامة الأصلية قاعدة أخرى فرعية مستثناة منها ، هي بناء « أى » إذا أضيفت وحذف أول ركنى جملة الصلة وهو ضمير وقد عبر ابن مالك عن ذلك أيضا بقوله :

. . . مالم تضف

وصدر وصلها ضميراً نحذف

وهكذا تصبح « أى » مبنية فى أمثال التركيب التالى :

(د) رأيت أيهم قادم .

وبناؤها هنا على الضم فلماذا بنيت فى هذه الصورة التركيبية دون غيرها ؟ إننى أتصور الأمر هنا أيضا راجعا إلى أمن اللبس ، لأننا لو تصورنا لصلة « أى » أن يكون الخبر فيها من مادة اشتقاقية متعدية ، نحو « رأيت أيهم ضارب » لاحتملت « أى » (إذا كانت معربة مع حذف صدر الصله) أن تكون مفعولا مقدما لاسم الفاعل « ضارب » ، واحتمل فى الضمير المحذوف من صدر الصله أن يكون « أبا » ، فيكون مآلنا إلى تقدير جملة ملبسه لا يدرى معها ما إذا كانت « أى » مفعولا للفعل « رأيت » أو لاسم الفاعل « ضارب » وحكم النحو هنا كحكم الفقه : «ما أسكر كثيره فقليله حرام» ،أى أنه إذا كان بعض صور التركيب ملبسا امتنع كله ، وبنيت « أى » لأمن اللبس وليس هذا وارداً على المثال رقم (١) السابق «رأيت أيا قادم» أوحتى «رأيت أياضارب» لأن ثمة من الأسباب مايدعو إلى تقدير ضمير الغائب فقط فى صدر الصلة ، وذلك بسبب قطع أى عن الإضافة ، والتعويض عن الإضافة بالتنوين ، ثم مافى الاسم الظاهر « ضارب » من معنى الغيبة « لأنه فى قوة ضمير الغائب وأخيراً لأن الفعل أقوى فى طلب المفعول من اسم الفاعل . كل ذلك يرشح الموقع الذى بين « أى » و « ضارب » أن يحله ضمير الغيبة ، لا التكلم ولا الخطاب . وبذا يؤمن اللبس ولا تدعو الحاجه إلى البناء .

٤ — القاعدة العامة « رتبة الخبر التأخر عن المتبدأ » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله :

والأصل فى الأخبار أن تؤخرا . . .

ولكن هذه القاعدة العامة تخصصها قاعدة فرعيه تقول بجواز التقديم إذا لم يترتب على ذلك لبس أو مخالفة لأصول الصناعة وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله :

. . وجوزوا التقديم إذ لاضررا

ومثلوا لإمكان ذلك بنحو « قائم زيد » من حيث إن « زيد » معرفه و « قائم » نكرة والمعرفة أولى من النكرة أن تكون هى المبتدأ وهكذا يتقدم الخبر وهذا التأويل أولى من تأويل المثال بأن « زيد » فاعل قائم وقد أغنى عن خبره ، لأن هذا تأويل ضعيف عبر ابن مالك عن ضعفه بقوله :

. . . وقد

يجوز نحو فائز أولو الرشد

فقوله : « قد يجوز » دليل على ضعف التأويل وكذلك مثلوا له بنحو « قائم أبوه زيد » فلو جعلنا « قائم » مبتدأ للزم فى « زيد » أن

يكون بدلا من الضمير ، ولو كان كذلك لعاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، أما لفظا فواضح ، وأما رتبة فلأن البدل متأخر عن المبدل منه فى الرتبة لأنه تابع ولو أعدنا الضمير على متأخر لفظا ورتبه لنقضنا بذلك قاعدة أكبر خطرا لاتصالها بأمن اللبس من حيث ينبغى لمرجع الضمير أن يتقدم على الضمير ، ليجبر ما للضمير من عموم الدلالة على مطلق غائب أو حاضر وكذلك مثلوا بنحو « أبوه منطلق زيد » ، للسبب المتقدم نفسه ، ونحو « فى الدار زيد » و عندك زيد لأحقيه زيد « بالابتداء فى الحالتين : والضرر الذى يشير إليه ابن مالك بقوله «وجوزوا التقديم إذا لا ضررا » يوجب حفظ رتبة الخبر من المبتدأ ولا يخلو هذا الضرر من أن يكون واقعا على أمن اللبس أو على أصل من أصول صناعه النحو ، فمن ذلك .

(ا) خوف تساوى احتمالات الإعراب بلا مرجح نحو : أخى صديقى .

(ب) خوف ضياع معنى زائد على الإسناد كالتأكيد أو الحصر نحو لزيد قائم وإنما زيد قائم

(ح) خوف تساوى احتمالى نمط الجملة (أهى اسمية أم فعليه) نحو زيد قام

(د) خوف إهدار قاعدة الصدارة نحو من أنت ؟

فيعرب الأول فى كل ذلك مبتدأ والثانى خبراً لضمان أمن اللبس فى المثالين الأولين ، وللحفاظ على أصول الصناعة فى المثالين الأخيرين ولو انعكس الوضع لوقع ماعده ابن مالك من قبيل « الضرر » ، وما عبر عنه الشراح بقولهم ولو اشتبه الفاعل بالمفعول لراد الخطر وعم الضرر . وقد جاء ذلك تعليقاً على قولهم « ضرب موسى عيسى وهو شبيه باختلاط المبتدأ و الخبر فى المثال الأول من الأمثلة المتقدمة .

لعل فيما قدمناه عناء لتوضيح المقصود بالقاعدة الأصلية والقاعدة الفرعية ، وعلاقة كل منهما بالأخرى .

* * *

يأتى بعد ذلك إيضاح المقصود بالقاعدة الموقعية ، ومعنى لفظ « الموقعية » أن هذه القاعدة ترتبط بـ « موقع » واحد لاتتعداه إلى غيره من المواقع ، وأن هذا الموقع قبل صدق القاعدة عليه ربما اتفق مع أصل عام من أصول الصناعة التى حردها النحاة ، وربما خضع لقاعدة أخرى أصلية (أى عامه) أو فرعية فلو استصحب الأصل أو طبقت القاعدة لخرج الاستعمال عن السنة المتبعة ، ومن هنا تأتى القاعدة الموقعية (فى هذا الموقع المذكور) لتفسر سبب العدول عن الأصل أو لتخرق القاعدة بقاعدة وإليك الأمثلة :

١ ــ الأصل فى كلمة « ميزان » هو « موزان » على صيغه اسم الآلة . ولكن هذا الأصل

لايمكن استصحابه لما فيه من ثقل مرجعه إلى أن الكسرة والواو ضدان لايتجاوران ومن هنا جاءت القاعدة لتفسر العدول عن الأصل أو لتضبطه ، فقالت : إذا وقعت (لاحظ لفظ « وقعت » وعلاقته الاشتقاقية بلفظ « موقعية ») الواو ساكنة بعد كسرة قلبت الواو ياء .

٢ — أصل كلمة « كساء » هو « كساو » بدليل قولك « كسوت » و « كسوة » وأصل كلمة « بناء » هو « بناى » بدليل قولك « بنيت » وكذلك « بنية » والعدول عن الأصل الذى هو « كساو » و « بناى » إلى الفرع المستعمل « كساء » « وبناء » تحكمه قاعدة موقعيه تقول . إذا وقعت (قارن لفظ « موقعية ») الواو أو الياء متطرفة إثر ألف زائدة قلبت همزة .

٣ — أصل الفعل « قال » هو « قول » ، وقد حدث العدول عن هذا الأصل بقاعدة تقول إذا تحركت الواو أو الياء وانفتح ماقبلها قلبت ألفاً .

٤ — أصل كلمة « دنيا » هو « دنوا » وأصل « عليا » هو « علوا » ، بدليل « دنوت » « وعلوت » وقد جاء العدول عن الأصل فيهما بقاعدة تقول . إذا وقعت (!) الواو لاما لصيغة « فعلى » وصفا قلبت ياء .

٥ — أصل لفظ « إقامة » هو « إقوام » وقد حدث العدول عن هذا الأصل بحسب قاعدتين بينهما رتبة محفوظة فلابد لأولاهما أن تطبق قبل تطبيق الثانية تقول القاعدة الأولى .

(أ) تنقل حركة المعتل إلى الساكن الصحيح قبله .

فإذا طبقنا هذه القاعدة وصلنا بتطبيقها إلى موقع تأباه أصول الصناعة النحوية والصرفية ، وهو موقع التقاء الساكنين وهذان الساكنان أولهما الواو التى سلبت حركتها بواسطة النقل إلى ما قبلها ، فلما سلبت حركتها سكنت ، وثانيهما الألف التى بعد الواو فى الأصل « إقوام » هنا تأتى قاعدة موقعية أخرى تقول :

(ب) إذا التقى ساكنان حذف أولهما . عندئذ تصبح الكلمة « إقام » كما فى قوله تعالى : « وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ثم لنا أن نبقى على هذه الكلمة على حالها كما استعملها القرآن ، أو أن نضيف إليها تاء أخيرة للتعويض عن الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين .

هكذا يعدل عن الأصل بقواعد فرعية موقعية تلخص اتجاها استعماليا ذوقيا يسعى دائما إلى طلب الخفة ولكن القواعد الموقعية لم تقصرهمها على تفسير العدول عن الأصل فقط ، وإنما تخطت معارضة الأصول إلى معارضة القواعد إذا ترتب على تطبيق إحدى هذه القواعد مخالفة أصل من أصول الصناعه أو سنة من سنن الاستعمال وإليك الأمثلة :

١ — القاعدة الأصلية أن يكون لآخر الكلمه ما يستحقه من علامة إعراب

بحسب موقعه أو حركة بناء ، ولكن ولكن الكلمة إذا وقعت آخر الجملة المنطوقة الموقوف عليها وردت عليها قاعدة موقعية (أى ترتبط بموقع الوقف) وهى التى تعرف بقاعدة الوقف فلفظ الرجل من قولنا «جاء الرجل» يستحق علامة الرفع بحسب القاعدة العامة للإعراب ، ولكنه عند الوقف عليه يستحق السكون بقاعدة تكسر تلك القاعدة وكذلك «أمس» من قولك «جاء الرجل أمس» مبنى على الكسر بأصل وضعه ولكن يسكن عند الوقف .

٢ — القاعدة الأصلية أن يبنى الماضى عند عدم اتصال الضمائر به على الفتح فإذا وقع موقعا تتصل به فيه واو الجماعة طرأت قاعدة موقعية تبنيه على الضم ، وهذه القاعدة ترد على المضارع والأمر كذلك ، إذ تخرجها عن مطابقتهما لقاعدة أصلية خاصة بكل منهما . وهكذا تقول ضربوا ، لم يضربوا اضربوا والأمر شبيه بذلك بالنسبة للياء فى تضربين ، واضربى وتعود القاعدة الموقعية فى مثل هذه الحالات إلى ظاهرة «المناسبة» أى جعل حركة لام الكلمة مناسبة للضمير المتصل .

٣ — القاعدة الأصلية أن يبنى الأمر فى أبسط صوره على السكون فإذا وقع بعده لفظ يبدأ بالساكن (ومن ثم يستحق همزة الوصل إذا بدئ به الكلام) وردت عليه قاعدة موقعية تخرق قاعدة البناء على السكون وتجعل آخر الأمر مكسوراً لالتقاء الساكنين (إن كان الأمر صحيح الآخر) فتقول مثلا . «اقرأ الدرس» بكسر لام الفعل . أما اذا كان آخره معتلا فإن القاعدة الأصلية تبنيه على حذف حرف العلة وتلزم عين الفعل حركة مناسبة تدل على نوع حرف العلة المحذوف نحو ألقِ العصا ، وارعَ الأخوة وارجُ الله . ومعنى هذا أن حذف حرف العلة قاعدة أصلية وأن نوع الحركة على عين الفعل قاعدة موقعية .

٤ — القاعدة الأصلية أن يدل «فعل» وما كان من قبيله أى افتعل واستفعل إلخ) على الزمن الماضى ولكن هذا الفعل إذا وقع بعد الشرط وردت عليه قاعدة موقعية يدل بحسبها على الاستقبال . ويدل المضارع بحسب القاعدة الأصلية على الحال أو الاستقبال فإذا وقع بعد «لم» دل على نفى الوقوع فى الماضى ، وإذا وقع بعد «لن» دل على نفى الوقوع فى المستقبل ، وإذا وقع بعد «أن» لم يدل وقوع أو عدمه وإنما يتفرغ للدلالة على مطلق الحدث الذى هو معنى المصدر الصريح .

وليس يلزم فى كل قاعدة موقعية أن تفسر عدولا عن أصل أو تخرق قاعدة أصلية أو فرعية فاقد يحدث أحيانا أن يتنوع مظهر العنصر اللغوى (أى المبنى) بحسب موقعه دون أن يكون أحد أنواع

السلوك أصلا ويكون غيره فرعا ، وإليك الأمثلة :

١ – إذا وقع لفظ الجلالة بعد فتح أو ضم جاءت لامه مفخمة ، أما إذا وقع بعد كسرة أو بعد الياء فإن هذه اللام ترقق تقول وايم الله ، والله ، لكن بالله ، عبدى الله . وليس يدعى لأى من التفخيم والترقيق أنه أصل وأن الآخر فرع له .

٢ – إذا وقع ضمير الغيبة المتصل بعد بعد فتح أو ضم ضمت هاؤه ، وإذا وقع بعد الكسرة أو الياء كسرت هاؤه ، فتقول لهم كتابهم وله كتابه ، ولهما كتابهما ، ولكن أشار إليه فى كتابه ، وإليهما فى كتابهما ، وإليهم فى كتابهم وليس يدعى لأى من حركتى الهاء أنها أصل وأن الثانية فرع لها

٣ – إذا وقع ضمير المفرد الغائب المتصل بين حركتين أشبعت حركته سواء أكان مضموما أم مكسوراً أما إذا سبقه أو لحقه سكون فإن الإشباع يمتنع هذا فى الكلام المرسل ، أما فى الشعر فإن هذه الظاهرة تخضع للوزن تقول فى الكلام : ضربه بالعصا (بالإشباع) بعد أن ضاق به ذرعا (بالإشباع) ، ولكن . لم يضربه (دون إشباع) وإن سخر به اليوم (دون إشباع أيضا) وليس أحد الأمرين أصلا لا الآخر فرعا .

وهكذا نرى القاعدة الموقعية هنا بموقعها الذى أعدت له فهى ليست أصلية لعدم عمومها ، وليست فرعية لعدم اتصالها بأمن اللبس ولا بمراعاة أصول الصناعة ، بل إنها على العكس من ذلك : إما تفسير للعدول عن هذه الأصول وإما كسر القاعدة أصلية أو فرعية ولكنها فى كل الأحوال انتصار للذوق الاستعمالى على الاستصحاب والاطراد ، وما يصاحبهما من قيود على طلب الخفة .

* * *

عرضنا حتى الآن لثلاث درجات من القواعد هى : القاعدة الأصلية ، والقاعدة الفرعيه ، والقاعدة الموقعيه ، واضح أن أعلاها درجه هى الأصليه وأدناها الموقعيه ويرتبط العلو والتوسط والدنو هنا باتساع مجال تطبيق القاعده وعدمه فتعريف المبتدأ مثلا هو أساس التركيب العربى للجملة الاسميه ، وأما تنكيره فاستثناء مشروط بفيد الإفادة ، وهو أمر يتحقق بأمن اللبس والمحافظة على أصول الصناعة فإذا تحقق شرط الإفادة أمكن الابتداء بالنكرة مهما كان الموقع وأما تفخيم لفظ الجلالة فقاعدته ترتبط بموقع خاص تأتى فيه اللام بعد فتح أو ضم ، والقاعدة المذكورة لا تتعدى هذا الموقع أبدا ، وإذا كانت الإفادة هى المبرر للقاعدة الفرعيه فإن مبرر القاعدة الموقعية فى جملة الحالات هو طلب الخفة .

عند هذه النقطة نصل إلى درجة من الصواب تأباها القاعدة وترتضيها السنة

المتبعة أي أن معيار الصواب هنا ليس نحويا وإنما هو عرفي وهذا الصواب العرفي غير النحوى يمثل عدولا عن أصل الوضع أو أصل القاعدة، ومن هنا يحلو لى أن أسميه «الاستعمال العدولى» ومع أن الاستعمال العدولى يسعى أن يعد خطأ بمعايير القواعد النحويه . لم نجد أحداً من النحاة قدمائهم ومحدثيهم يصمه بوصمة الخطأ ، وربما كان ذلك لشيوعه فى كلام أصحاب السليقة بل لانتشاره فى أسلوب القرآن والحديث وربما قال قائل : ما بالك تفرد الاستعمال العدولى بعلاج خاص مادام فى جوهره عدولا عن الأصل (أصل الوضع أو أصل القاعدة) . أليست القاعدة الموقعية عدولا عن الأصل كذلك ؟ ولماذا أفردت كل منهما بعلاج خاص ؟ الجواب أن الفرق بينهما من وجهين

(أ) القاعدة تطرد وهذا الاستعمال اختيار أسلوبى لك أن تأخذه أو تدعه .

(ب) القاعدة مرهونة بموقع خاص بخلاف الاستعمال العدولى .

يخيل إلى أننى أطلت الكلام فى تنظير الاستعمال العدولى قبل أن أقول ما هو ، فليس يغنى عن شرحه والاستشهاد له أن نوضح الفرق بينه وبين القاعدة الموقعية .
ولهذا يحسن أن أبدأ فى سرد الظواهر العدولية واحدة بعد الأخرى قدر ما يسمح الحيز المخصص لها فى هذا البحث .

إن الدخول المناسب إلى مسرح الاستعمال العدولى إنما هو من مدخل القرائن النحوية اللفظية ويمكن باختصار أن نسوق بيانا تخطيطيا لهذه القرائن وأنواع العدول التى تعرض لكل منها على النحو التالى

طرق العدول عن القرائن

- البنية
  - النقل
  - التضمين
- الإعراب
  - المناسبة الصوتية (الجوار)
    - تسخير اللفظ لتوليد المعنى
    - الترخيم
- الربط
  - الالتفات
  - التغليب
  - التوسع
- الرتبة
  - التقديم
- التضام
  - الحذف
  - الزيادة
  - الفصل
  - الاعتراض
  - تجاهل الاختصاص

وسنتناول كلا من ذلك على حدة .

١ - البنية

لبنية الكلمة أو نمط الجملة صور متعددة للخروج بها من أصل استعمالها وقد اعترف بهذه الصور وإن اختلفت وجهة نظرهم إليها وصياغة المصطلحات لها ولعل أولى هذه الصور بالذكر ما يلي

(ا) النقل

اعترف العلماء بالنقل وسموه بهذا الاسم في بابي العلم والتمييز ، فالعلم قد يكون منقولا عن الفعلية كيزيد ، أو الوصفية كخالد ، أو المصدرية كفضل . أو عن الدلالة على مسمى آخر كبدر ، أو عن تركيب إسنادي كجاد الحق. والتمييز قد يكون منقولا عن الفاعل نحو اشتعل الرأس شيبا وحسنت مستقرا ومقاما . وقد يكون محولا عن المفعول نحو ألهمت شعوره حماسا وكذلك اعترف البلاغيون في تعريفهم للمجاز أنه نقل الكلمة من معناها الأصلي إلى معنى آخر ينسب إليها بعلاقة وقرينة

ولكن ظاهرة النقل سميت بأسماء أخرى في أماكن أخرى غير بابي العلم والتمييز والمجاز إذ إنها سميت « النيابة » في باب المفعول المطلق . وقد ينوب عنه ما عليه دل

كجد كل الجد وافرح الجذل

وسميت النيابة أيضا في باب النائب عن الفاعل . وكذلك في القول بأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . أي ينقل بعضها إلى استعمال بعض

أما نقل الأسماء إلى استعمال الظروف فقد أطلقوا عليه اسم « التصرف » فالظرف المتصرف « ما يرى ظرفا وغير ظرف » أو بعبارة أخرى . ما ليس ظرفا بحسب الأصل وإنما نقل إلى الظرفية واستعمل استعمال الظروف

ولقد سميت ظاهرة النقل « إغناء » في مواضع أخرى . فلقد يقع الوصف مبتدأ فيغنى فاعله عن الخبر نحو أقائم زيد ، وقد تغنى الحال عن الخبر في نحو أكثر ما يعجبنى زيد خطيبا . ومثل ذلك إغناء أن وما دخلت عليه عن مفعولى ظن وسدادها مسدهما . ومنه في باب النداء ما رآه الفراء من أن « يا » ضمنت معنى « أدعو » فعملت عملها وسدت مسدها أى أغنت عنها وفي كل هذه الحالات عدل بالكلمة عن أصلها ونقلت إلى استعمال آخر

وقد ينقل نمط الجملة الخبرية إلى الدعاء نحو « بارك الله فيك » ، أو إلى التنزيه نحو « تبارك الله » وقد ينقل النفي إلى الدعاء نحو « لا فض فوك » ، وإلى الإنكار نحو « ما هذا ! » . وإلى التقرير نحو « ألست بربكم » . وفي كل هذه الحالات وأمثالها ينقل النمط التركيبي من معناه الأصلي (وهو الخبر في الحالة الأولى والنفي في الثانية) إلى معان أخرى طلبية أو إفصاحية لم تكن له بحسب الأصل .

(ب) التضمين

وإذا كان النقل عدولا عن أصل المعنى الوظيفي فإن التضمين عدول عن المعنى

الأسلوبى . فقد يجد المتكلم فائدة أسلوبية « ما » كالتأكيد أو الابتكار أو التلخيص والاختصار أو نحو ذلك فى إحلال كلمة محل أخرى ، وإعطائها معناها ، بحيث تغنى عنها دون أن يشعر السامع بأن شيئاً غريبا قد حدث ، انظر إلى قوله تعالى : « فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » (فصلت ١٧) وسترى أن الفعل « استحبوا » لا يحمل فى معناه المفرد معنى التفضيل ، ولكن وجود حرف الجر « على » نقله بالتضمين إلى هذا المعنى ، ففهم منه معنى « فضلوا » . ثم انظر إلى قوله تعالى . « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » (الفرقان ٣٠) ، والمعروف أن « اتخذ » إذ تنصب مفعولين يعبر الثانى منهما عن معنى الانتفاع ، إذ تقول . اتخذت فلانا صديقاً ، أى انتفعت بصداقته ، واتخذت فلانا خادماً أى انتفعت بخدمته . وليس هذا المعنى مناسبا لكلمة « مهجوراً » ، مما يفهم منه أن « اتخذوا » قد ضمن معنى مطلق التحويل الذى يعبر عنه بالفعل « جعلوا » أو « صيروا » . وانظر إلى قوله : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما » (آل عمران ٧٥) وستعلم أن الفعل « ما دام » من أخوات « كان » وأنه وهو ناقص لا يصلح للوقوع بعد أداة الاستثناء « إلا » وإذا لم يصلح ذلك فلا بد أن تكون « دام » غير ناقصة وأن تكون « ما » فقدت معنى المصدرية واحتفظت بمعنى الظرفية ثم ضمنت معنى « إذا » ، فيكون التقدير : « إلا إذا دمت قائما عليه » على أن « قائما » حال وأن « دمت » بمعنى « استمررت وثبت » . وانظر إلى قوله تعالى : « فتبسم ضاحكا من قولها » (النمل ١٩) تجد أن ضحك من كذا يفيد معنى السخرية (أى سخر من كذا) ، ولم يكن سليمان بضحكه ساخرا من النملة وإنما كان متعجبا من قولها . وبهذا يكون « ضاحكا » قد ضمن معنى « متعجبا » .

ويحدث حينا أن يضمن تركيب كامل معنى تركيب كامل (ليس من وجهة النظر الوظيفية كما ذكرنا فى الكلام عن الخبر والنفى وإنما من وجهة النظر الأسلوبية) من ذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (آل عمران ١٠٢) . فلو أخذنا تركيب حمله النهى . « لا تموتن » على علاته لكان المعنى نهيا عن الموت إلا على الإسلام ولكن الإنسان لا ينهى عن أمر لا حيلة له فيه ، فالله الذى قضى الموت لم يجعل للإنسان فيه خياراً وإذا انتفت الخيرة لم يعد للنهى معنى .

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

وإذاً لابد أن يكون النهى ذا معنى آخر . والمعنى المطلوب : « لا تفرطوا فى الإسلام

حتى تموتوا » ، وهذا التضمين شبيه بما يقول به تشومسكي من مفهوم « البنية العميقة » DEEP STRUCTUTE

(ج) تسخير اللفظ لتوليد المعنى :

وهذه أيضاً صورة من صور العدول عن أصل استعمال بنية اللفظ إلى مسالك أسلوبية تصبح البنية معها صالحة للإيحاء بمعنى لم يكن لها من قبل . وهذه الحيلة الأسلوبية كانت وما تزال مسرحا من مسارح تفوق البلغاء . ويأتى هذا التسخير بواسطة أمور منها جرس اللفظ ، أو علاقاته الذهنية أو العاطفية ، أو انعكاسات استعماله عليه ، أو علاقاته الفنية الخ . فأما الجرس فقد رصد البلاغيون مبدأ حكاية الصوت للمعنى أخذا عن المصطلح اليونانى onomatopoea

كما قسم النقاد الكلمات إلى شعريةوغير شعرية ، وتكلم فقهاء اللغة عن الكلمات الفصيحة والحوشية . ودعا الشعراء الرمزيون المحدثون إلى الاعتماد على إيحاءات الجرس على حساب المعانى المعجمية للكلمات .

وأما تسخير اللفظ فى إثارة معان عقلية فأشهر ما يدل اللفظ عليه من ذلك لازم المعنى كما يتضح فى الكناية والتورية والمجاز المرسل ففى الكناية والتورية معنى قريب بحسب الأصل وآخر بعيد بحسب اللزوم العقلى أما فى المجاز المرسل فلازم المعنى

قد يكون غاية(السبب والمسبب)أو كمية (الكل والبعض) أو مكانا(الحاليةوالمحلية) أو زمانا (ماكان وما يكون) . ومن المعانى العقلية المعنى التضمنى ، وهى وإن دنا كثيراً من فكرة الكمية لا يعد منها لأنه أوسع تطبيقاً إذ يشمل أحيانا ما يسمى حذف المضاف فى نحو « حرمت عليكم أمهاتكم » أى قرب خاص منهن .

ويمكن أن نعد من تسخير اللفظ لنقل شحنة انفعالية من المعنى لم تكن له بأصل الوضع أن نورد اللفظ فى المقام المناسب وفى مجرى السياق الملائم . فكلمة الشرف بحكم معناها الأصلى لا تثير انفعالا وإنما تثير فكرة التضاد مع الضعة . ولكن المتنبى حين ساط الأذى على الشرف فى قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وجعل الدم عقابا على النيل من الشرف جعل البيت الشعرى يحمل حملا عاطفيا عظيما . وكلمة « مثل » بمعنى « شبيه » من الأسماء المبهمة التى لا ينسب إليها معنى معين إلا بعد الإضافة ، وما كان لها أن تثير عاطفة أو تبعث انفعالا . ولكن أبا فراس حين قال :

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة
ولكن مثلى لا يذاع له سر

وضع الكلمة موضعاً جعلها تحمل من الاستعلاء ما لا قبل لها به في سياق عادى ذلك أنه جعل « مثل » في موقع ضمير المتكلم (أى ولكني) ولولا ما ذكرناه من ضرورة إضافتها ما جاءت معها ياء المتكلم . وتعبير أبي فراس هذا محاكاة للعبارة القرآنية . « ليس كمثله شيء » ثم انظر إلى ما نقلته كلمة الأم في الحديث الشريف بواسطة تكرارها ، إذ جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ! قال ثم من ؟ قال . أمك ! قال ثم من ؟ قال أمك ! قال : ثم من ؟ قال : أبوك ومثاله التوكيد اللفظي في قول الشاعر

أخاك أخاك إن من لا أخا له

كساع إلى الهيجا بغير سلاح

أما انعكاس استعمال اللفظ عليه فنستطيع أن نضرب له مثلا عبارة . « أنا عربي » ظلت هذه العبارة خلال التاريخ ، وستظل إن شاء الله تثير في نفس العربي الاعتزاز بها لما وراءها من تاريخ رائع وتراث غني . ولكن هذه الكلمة فيما بين سنتي ١٩٦٧ و١٩٧٣ فقدت الإيحاء بهذا الاعتزاز وكان بعض العرب يتهربون منها إذا سئلوا عن هويتهم خارج بلادهم فلما وقعت حرب العاشر من رمضان أصاب العرب ما أصاب بني أنف الناقة الذين خجلوا من لقبهم بين القبائل حتى قال فيهم الشاعر

قوم هم الأنف والأذناب غيرهمو

ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وقد ينعكس على اللفظ دناءة مدلوله أو فحشه أو قذارته فيصبح محظورا الذكر Taboo كالكلمات التي تدل على الجنس أو قضاء الحاجات الطبيعية ونحوها لاحظ قوله تعالى « فلما تغشاها » . « أولامستم النساء » . « فأتوا حرثكم أنى شئتم » « أو جاء أحد منكم من الغائط » ففي كل ذلك ازورار عن كلمات أخرى تدل مباشرة على هذه المعاني

وأما العلاقات الفنية التي تعين على استعمال بنية اللفظ لتوليد المعنى الجديد فأشهرها علاقة المشابهة التي نشأ عنها المجاز اللغوي بأنواعه ولابد أن نشير إلى أن التعبير عن هذه العلاقة مرجعه إلى اختيار المتكلم لا إلى نظام اللغة لأن أوجه الشبه قد تتعدد للشيء الواحد إزاء غيره من الأشياء التي تشبهه وكل متكلم يختار من هذه الأوجه ما يروق له ومن الأشياء المتشابهة لموضوعه ما يروق له أيضاً

وحسبنا أن نضرب لذلك مثلا قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس » ، فهذه الآية اختارت من كل خصائص وقت الصبح نسيمه الرطب الذي يصادف راحة في النفس تبعث فيها النشاط والخفة ولأن النشاط والخفة حياة آثرت الآية أن تنسب الحياة نسبة فنية إلى الصبح فجعلته يتنفس وهكذا أصبح تسخير لفظ « التنفس » لتوليد معنى جديد غاية هامة وسيلتها العلاقات الفنية للكلمة

وهناك علاقات فنية أخرى غير المشابهة نلحظها في استعمال البنية اللغوية لتوليد آثار ذوقية معينة لدى السامع أو القارئ بواسطة ما يفهم عند استعمال البنية من تعميم ، أو إبهام ، أو تأكيد ، أو مفهوم مخالفة بعينه .. إلخ . وأشهر وسائل ذلك التجريد من أداة التعريف ، أو إلحاقها بالاسم ، وإلحاقها بالوصف ، أو استعمال الموصولات الحرفية المختلفة ، أو الضمير ، أو الموصول الاسمي وغير ذلك ، والمعروف أن للمتكلم مندوحة عن استعمال أي صورة من صور البنية المذكورة ، فاختيار واحدة منها يقع في نطاق الأسلوب لا القاعدة .

فمن الوسائل لتوليد المعنى الفني من اللفظ تجريد اللفظ من أداة التعريف ليئول إلى التنكير المؤدى إلى التعميم حينا وإلى الإبهام حينا آخر . انظر مثلا إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة » (عبس ٣٨) وفي هذا عدول عن عبارة « وجوه المتقين » وقوله جل شأنه . « من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها » (النساء ٤٧) عدولا عن « وجوهكم » ، وقوله سبحانه . « علمت نفس ما أحضرت » (الانفطار ٥) عدولا عن « كل نفس » ، وقوله ، تبارك اسمه « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها » (النحل ٩٤) عدولا عن « قدمكم » أو أقدامكم » ، وأما قوله تعالى : « وتعيها أذن واعية » (الحاقة ١٢) فهي شبيهة بقوله : « علمت نفس ما أحضرت » التي سبق إيرادها لأن كلتيهما للتعميم والمعنى المعدول عنه وتعيها كل أذن واعية . وفي قوله تعالى . « أم على قلوب أقفالها » (محمد ٢٤) المقصود المعدول عنه « قلوبهم » وقد يعمل التنكير حينا على إفساح المجال لخيال السامع أن يسبح في عباب الوهم الفني ، فيضيف إلى الصورة الفنية الأدبية تهاويل من عنده ، ربما لم ترد على خاطر صاحب النص . نلمح ذلك في قول الشاعر .

ضربنا كموا حتى تفرق جمعكم
وطارت أكف منكموا وجماجم

وعادت على البيت الحرام عوابس
وأنت على خوف عليك التمائم

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة
سترقى بها يوما إليك السلالم

وقوله ·
ويوم كيوم البعث ما فيه حاكم
وقوله ولا عاصم إلا قنا ودروع

وإنى فى الحرب العوان موكل
بإقدام نفس لا أريد بقاءها

وربما تحقق توليد معنى الشمول بواسطة المقترن بأداة التعريف إذا أفادت الأداة استغراق الجنس . عندئذ يصبح المقترن بالأداة صالحا لأن يضاف إليه لفظ «كل» كقول الشاعر :

وكم من فارس لا تزدريه
إذا شخصت لموقفه العيون

أى «كل العيون» أو «العيون كلها» ، وقوله :

أنا ابن التارك البكرى بشر
عليه الطير ترقبه وقوعا

أى «كل الطير» أو «الطير كلها»
وقد يوصل بالتعريف إلى معنى يشبه القصر البلاغى ، كما فى قول الشاعر :

وحقك أنت المنى والطلب
وأنت المراد وأنت الأرب

أى الذى لا منى غيره ولا طلب سواه ولا مراد من دونه ولا أرب إلا هو .

وقد يوصل بالموصول (اسميا كان أم حرفيا) إلى معنى الشرط . وآية ذلك ما نعرفه فى النحو من باب الإخبار بالذى والألف واللام ، وما يتحتم فى الخبر عندئذ من الاقتران بالفاء فى المواضع ذاتها التى يقترن جواب الشرط فيها بالفاء .

ومن ذلك قوله تعالى : «والذين كفروا فتعسا لهم» (محمد ٨) وقوله : «والزانية والزانى فاجلدوا» (النور ٢) وفى هذا دليل على أن الجملة الاسمية هنا تشربت معنى الشرط ، أى أن المعنى (من كفروا فتعسا لهم) ، وكذلك (من زنت ومن زنى فاجلدوا)
وكذا يؤدى الموصول إلى التعميم أو التعظيم أو التحقير . فمن قصد التعميم بالموصول :

تعز فلا شىء على الأرض باقيا
ولا وزر مما قضى الله واقيا

أى من أى قضاء قضاه الله ومن التعظيم

الضاربون الكبش يبرق بيضه
ضربا يطيح له بنان المفصل

ومن التحقير قوله تعالى : « والذى قال لوالديه أف لكما » (الأحقاف ١٧) .

ومن استعمال البنية استعمالا عدوليا « الترخيم » فى باب النداء ، وهو فى معناه الأعم من قبيل الحذف سواء على لغة من ينتظر أم على لغة لا ينتظر . وقد عنى النحاة . شرح هذه الظاهرة بما يعرض للمبنى أكثر عن عنايتهم بما يعرض للمعنى . والذى يبدو لى أن الغاية من الترخيم هى التمليح أو التدليل فهو شبيه باختصارنا نطق أسماء أبنائنا فى الوقت الحاضر وهذا هو المعنى المولد .

٢ — الإعراب :

يتمثل العدول الأسلوبى الفنى عن الإعراب فى صورة مناسبة صوتية بين الكلمتين المتجاورتين ، تستحق كل منهما إعرابا يختلف عن إعراب الأخرى ولكن صاحب النص يجعل حركة آخرهما واحدة ، إذ يحتفل بالجرس أكثر من احتفاله بالقاعده والنحاة يسمون ذلك « إعراب الجوار » إلا إذا تمكنوا من تأويله إلى قياس آخر متكلف فى أغلب الأحيان . قالت العرب : « جحر ضب خرب » بجـــر « خرب » فنسب النحاة ذلك إلى إعراب الجـــوار ، وقال ابن جنى إن هذا من قبيل النعت السببى الذى حذف منه فاعل الصفة المشبهة « خرب » وقدره « جحر ضب خرب جحره » ، فأفرغ الشاهد من مضمونه النحوى بل ربما أفرغه أيضاً من مضمونه الدلالى أيضاً لكن ماذا عسى أن تبلغ رغبة ابن جنى فى التأويل فى قراءة « عاليهم ثياب سندس خضر » (الدهر ٢١) بجر « خضر » لجوارها للسندس . وكيف يؤول قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله
كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر « مزمل » بسبب مجاورة البجاد . لكن هذه المناسبة لا تأتى مع الجر فى جميع الحالات بل قد تتعدى ذلك إلى النصب أيضاً بدليل : « إن هذان لساحران » (طه ٦٢) ، وقول الشاعر :

إن أباها وأبا أباهـــا
قد بلغا فى المجد غايتاها

ولعل تجاور القوافى هو الذى جعل الفرزدق يفضل جرس القافية على اطراد القاعدة فى قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع
من المال إلا — مسحتا أو مجلف

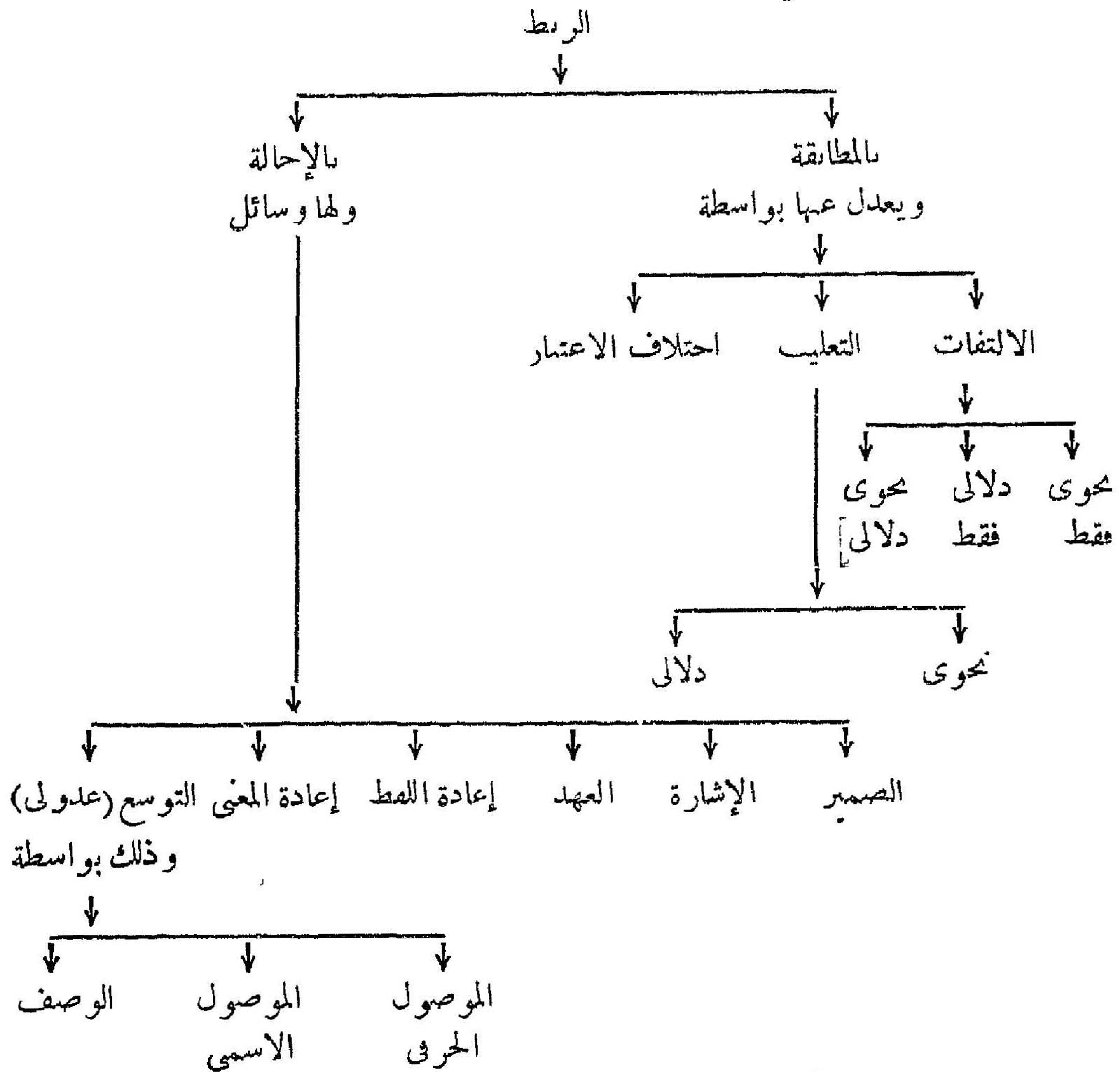
كل أولئك يعود إلى أصل واحد هو المناسبة الصوتيه التى تعد إجراء عدوليا فنيا عن قرينة الإعراب .

* * *

٣ ـ الربط . المعنى عن الأصل النحوى ويمكن إيضاح

الربط نوعان : ربط بالمطابقة ، وربط ذلك مما يلى

بالإحالة ولكل من النوعين طرق للعدول



فالالتفات النحوى فقط (أى الذى يختلف معه الضمير والمدلول واحد) كقوله تعالى «وأنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى» (طه ٥٣) ، فالمنزل والمخرج هو الله تعالى وإن اختلف الضمير بين الغيبة والتكلم . وأما الدلالى فقط مع اتحاد صورة الضمير ، فذلك كقوله تعالى يخاطب بنى إسرائيل : «يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين» (البقرة ٤٧) ثم تأتى ظروف الزمان بعد ذلك متعلقة بلفظ «اذكروا» الذى فى هذه الآية على النحو التالى .

«وإذ نجيناكم من آل فرعون» «البقرة ٤٩»

«وإذ فرقنا بكم البحر» (٥٠) .

«وإذ واعدنا موسى» (٥١)

«وإذ آتينا موسى الكتاب» (٥٣)

« وإذ قال موسى لقومه » (٥٤)
« وإذ قلتم يا موسى » (٥٥)
« وإذ قلنا ادخلوا » (٥٨)
« وإذ استسقى موسى » (٦٠)
« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر » (٦١)
« وإذ أخذنا ميثاقكم » (٦٣)
« وإذ قال موسى لقومه » (٦٧)

ثم يلتفت النص دلاليا لانحويا (بسبب اتحاد صورة الضمير) فيقول للنبي والمؤمنين « افتطمعون أن يؤمنوا لكم » (البقره ٧٥) وأما الالتفات الذى يتحقق له الجانبان النحوى والدلالى، فنحو قوله تعالى « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا ») البقره ٢٤ — ٢٥ فالضمير فى « تفعلوا » الناس الذين ناداهم فى الآية (٢١) ، والضمير فى « بشر » للنبي صلى الله عليه وسلم ، فاختلف الضمير والمدلول معا

والتغليب أيضاً قد يكون نحويا وقد يكون دلاليا وقد اجتمعا فى قوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » ، « الإسراء ٢٣ » فالتغلب دلالى فى لفظ (الوالدين) لأن الأب لا يلد كما تلد الأم . وهو نحوى فى « أحدهما أو كلاهما » لأن الذى يناسب الاثنتين هو إحداهما أو كلتاهما . ولكن الآية غلبت المذكر على المؤنث وقد غلبت فى أولها المؤنث على المذكر

وأما اختلاف الاعتبار فيتضح فى قول النحاة واللغويين « قالت العرب » ، أو « العرب تقول » ، ثم قولهم فى مكان آخر « قال العرب » أو « العرب يقولون » . فاختلف اعتبار العرب بين الجماعة والجمع[*] ذلك ما يعرض للمطابقة من عدول فى أسلوبى عن الأصل . ويأتى بعد ذلك ما يعرض للربط بالإحالة . أى بالإشارة إلى مذكور حقه أن يسبق ما يحيل إليه

ولا شك أن الأصل فى الإحالة أن تكون بتكرار ، اللفظ ، وكل ما عدا ذلك إنما هو كناية عنه أو بديل منه وتكون الكناية ضميرا أو إشارة أو أداة تعريف للعهد أو إعادة للمعنى بلفظ آخر الخ ومع أن هذه الكنايات قد أشار إليها النحاة نحسن أن نشير إلى كل منها إشارة مجملة مع شاهد نسوقه لها او شاهدين ، لنصل من بعد ذلك إلى موضوع كلامنا وهو مظهر العدول عن الربط بالإحالة وهو الذى أطلقنا عليه « التوسع » بأقسامه المختلفة

قلنا إنه يستغنى بالضمير عن إعادة اللفظ ولكن الإضمار تحف به الشروط التى إذا لم تتحقق فلا بد من العودة إلى الإظهار الذى هو الأصل . إنهما شرطان أولهما مطابقة اللفظ ، وثانيهما مطابقة المدلول .

وإذا تخلف أحدهما لم يصح الإضمار .
فقد يتحد اللفظ ويختلف المقصود ، نحو قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » (آل عمران ٢٦) فالملك الأول ملكوت الله والملك الثاني آتاه الله لمن شاء وأما الملك الثالث فقد نزعه من شخص آخر غير الذي رضي عنه فآتاه ملكا . وهذه الملاحظة صادقة أيضاً على تكرار لفظ « من تشاء » إذ المدلول مختلف في الحالة الأولى عنه في الثانية . وهكذا لا يتأتى الإضمار
وقد يتحد القصد ويختلف اللفظ لغرض بياني ، وإذا لا يمكن الإضمار . وهذه قضية ستجرى مناقشتها بعد قليل عند الكلام عن التوسع .
أما إذا اختلف اللفظ والقصد كلاهما ، فواضح أنه لا يدعو داع إلى الإضمار ويصبح الإضمار أمراً يأباه المعنى .

وقد يستغنى بالإشارة عن إعادة اللفظ كما في قوله : « ولباس التقوى ذلك خير (الأعراف ٢٦) (واللباس هنا مصدر لابس يلابس) ، وقد يستغنى عن إعادته باستبدال (ال) بالإضافة نحو « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » (النازعات ٤٠) أي مأواه وأما الربط باعادة المعنى دون اللفظ فيشهد له قوله تعالى . « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام (يونس ١٠) .

نصل الآن إلى التوسع ، وهو شائع في الأسلوب القرآني ، قليل في غيره . من ذلك الربط بأل الموصولة (وهي غير أل العهدية التي سبق ذكرها) ، وذلك كما في قوله تعالى . « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (الأنعام ٣٣) أي ولكنهم ، وكذلك . « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » (إبراهيم ١٣) ، ومثله « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » (الفرقان ٢٢) وكذلك « وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين » (الشعراء ١٧٣) أي مطرهم .

ومن ذلك أيضا الربط بالموصول الاسمي وهو من وما والذي الخ ، فمن ذلك قوله « قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها » (العنكبوت ٣٢) أي به ، وكذلك « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (الكهف ٣٠) أي أجرهم . ومثله . « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » (النساء ١١٥) أي نوله شقاقه وكذلك : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما

كانوا يصنعون » (النحل ١١٢) أى بكفرهم وهذه الأخيرة تحتمل المصدرية أيضاً .

ومن الربط بالموصول الاسمى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » (الأنعام ٧) أى لقالوا ، وكذلك . « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » (يونس ٤٥) أى قد خسروا وكذلك . « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقـول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون »(الأنعام ٢٢) أى ثم نقول لهم ومن الاستعمال العدولى فى الربط مما يقع فى نطاق التوسع فيه أن يتم الربط بالوصف كما فى قوله تعالى :« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » أى فقاتلوهم وكذلك . « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهـدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » (التوبة ١٢) أى فقاتلوهم ، وأيضاً : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » (التوبة ١٤) أى ويشف قلوبكم .

* * *

٤ — الرتبة :

فى النحو العربى نوعان من الرتبة ، أحدهما الرتبة المحفوظة وثانيهما الرتبة غير المحفوظة وأما المحفوظة فلا يتناولها الاستعمال العدولى إذ لا سبيل إلى قبول تشويشها واحتسابه بين صور الاختيار الأسلوبى . فاذا ورد ما يظهر معه تشويش الرتبة المحفوظة فإن ذلك يعد من قبيل الترخص(وسيأتى بيانه) وليس من قبيل الأسلوب العدولى . ولهذا النوع من تشويش الرتبة المحفوظة شواهد من والقرآن الشعر ، كقوله تعالى« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » (هود ٣٨) أى سخروا منه وهو يصنع الفلك . وكذلك قوله تعالى « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه » (هود ٤٢) أى ونادى نوح ابنه وهى تجرى بهم . ومنه قول الشاعر :

ألا يا نخلة فى ذات عرق

عليك ورحمة الله السلام

أى عليك السلام ورحمة الله . فكل ذلك من قبيل الترخص عند أمن اللبس ، أى التصرف فى القاعدة عند التأكد من وضوح المعنى . وما دام تشويش الرتبة المحفوظة لا يعد أسلوبا واختياراً فلا دخل للدراسات البلاغية ولا الأسلوبية به ، لأنه ترخص كما سبق والرخصة مرهونة بمحلها لا تتعداه ولا يقاس عليها .

أما الرتبة غير المحفوظة فهى التى تسمح بالاختيار الأسلوبى تقدما وتأخرا ، وكل جهود البلاغيين فى هذا المجال محصورة فى نطاق الرتبة غير المحفوظة . وليس كون الرتبة غير محفوظة أنه لا رتبة ، كما أنه ليس معناه

عدم حفظها إذا طرأ عليها ما يدعو إلى حفظها

فاقد يجب تقديم المبتدأ أحيانا، فتتحول رتبته عبر المحفوظة إلى وجوب الحفظ وذلك أن يكون المبتدأ متلا مما له الصدارة، أو أن يكون الخبر محصوراً الخ. وفى أحيان أخرى يعرض ما يوجب تقديم الخبر وحتى حين يحب تقديمه لابد من النظر إليه مع حسبانه مقدما من تأخير » وأن أصله أن يتأخر ومعنى ذلك أن القول بحرية الرتبة أمر نسبى يصدق عند عدم العارض فإذا لم يعرض موجب لحفظها أو مانع منه. دخلت فى نطاق الاختيار الأسلوبى فيقدم المتكلم أى العنصرين أبلغ أثرا عند التقديم وأكفأ فى تبليغ ظلال المعنى المطلوب تبليغه فالتقديم والتأخير إما أن يكون مرتبطا بعادة تركيبية خاصة تمكنت من المتكلم، وإما أن يكون اختيارا متعمدا لإحدى طريقتين صحيحتين من حيث النحو، متفاوتتين من حيث الإفصاح بمكنون المعنى فإذا كان التقديم عادة كان مجال دراسته كل ما أنشأه الأديب. وإن كان اختيارا كان مجال دراسته الموضع الذى وقع فيه الاختيار الأسلوبى المعين

٥ - التضام

الجملة العربية نمط تترابط فيه الكلمات بعضها مع بعض بسمات وأصول معينة منها

(أ) الذكر فالأصل فى كل كلمة فى الجملة أن تكون مذكورة بحيث يعد استتارها أو حذفها على غير الأصل

(ب) الوصل. فالأصل فى الكلمتين المترابطتين فى داخل الجملة أن تتجاورا بلا فاصل، فالفصل بينهما على خلاف الأصل

(ج) الوظيفة. والمقصود أن كل كلمة فى الجملة يناط بها أداء وظيفة سياقية خاصة فإذا وجد فى الجملة ما لا تناط به وظيفة نحوية بعينها فذلك على خلاف الأصل أيضا

(د) الكفاية فالأصل فى كل كلمة سيقت لبيان معنى ما أن تكون كافية لأداء هذا المعنى

(هـ) الاختصاص وهو رابطة سياقية تربط بين الكلمة وما تدخل عليه سواء أكانت الكلمة تركيبية كالحروف والأدوات والضمائر الخ، أو معجمية كالكلمات المفردة فهذه الكلمات المفردة تنتظمها حقول معجمية تجعل بعضها صالحا للورود مع بعض الكلمات الأخرى دون بعض. انظر مثلا عبارة (فخر عليهم السقف من تحتهم) (١).

هذا هو الأصل ولو التزم الاستعمال به لصح أن نسميه «الاستعمال الأصولى» ولكن القرائن بأنواعها قد تعنى بين حين وآخر عن استصحاب هذا الأصل، فيجعل الحذف بديلا للذكر، ويجعل الفصل أو الاعتراض بديلا للوصل، ويجعل الزيادة بديلا للوظيفة ويجعل تجاهل الاختصاص بديلا من مراعاته وسنحاول فيما يلى أن نعرض باختصار للحذف ثم الزيادة ثم الفصل، ثم الاعتراض ثم تجاهل الاختصاص

---

(١) هذه عبارة وليست الآية الكريمة التى تقول

* فخر عليهم السقف من فوقهم *

(أ) الحذف :

الحذف عدول عن الذكر ، وشرطه أن يقوم دليل على المحذوف ، أو بعبارة أخرى أن يتم الحذف مع وجود القرينه الدالة على المعنى وقد يقسمون الحذف إلى نحوى تقضى بتقدير المحذوف فيه أصول الصناعه، وبيانى يستقيم بتقديره المعنى ويفهم بدون تقديره السياق . وكلا النوعين وارد عند التفكير فى الأسلوب العدولى . ثم إن المحذوف قد يكون حرفا ، أو كلمة ، أو شطر جملة ، أو جملة ، أو كلاما متصلا طويلا لا يستقيم المعنى إلا بتقديره وسنأتى لكل نوع من هذا بشاهد أو أكثر ، مع المحافظة على عدم الإطالة

فمن حذف الحرف ما نجده فى قوله تعالى « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » (التوبة ٩٢) فهناك حرف عطف محذوف هو الفاء ، إما أن تعطف « قلت » على « أتوك » فيكون الجواب « تولوا » . وإما أن تعطف « تولوا » على « قلت » فيكون الجواب « قلت » ولا مناص من تقدير الفاء إذ تقضى به أصول الصناعه

ومن حذف الكلمة ما فى قوله تعالى « وحملناه على ذات ألواح ودسر » (القمر ١٣) ، وسوغ الحذف أن الصفة خاصة بالمحذوف ، إذ لا يوصف بهذه الصفة إلا السفينة ، أضف إلى ذلك دلالة « وحملناه » « تجرى بأعيننا » ، وعود الضمير إلى نوح ، وقصته مذكورة قبل هذا الشاهد

وأما حذف شطر الجملة فمنه ما فى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » (يس ٤٥ — ٤٦) والمحذوف جواب « إذا » وتقديره « أعرضوا » ودليله قوله « إلا كانوا عنها معرضين » .

وأما حذف كلام طويل يقتضيه المقام فنجده فى قوله تعالى : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » (يوسف ٣٢ — ٣٣) أى وظل على استعصامه ولم يفعل ما أمرته به فنفذوا أمرها فيه وأرسلوه إلى السجن فلم يرجعه ذلك عن الاستعصام ، فقال رب السجن أحب إلى . وهذا النوع الأخير من الحذف يكثر فى القصص القرآنى فيقع من القصة موقع الحـــركة على المسرح من الحوار فتستغنى القصه عن تفصيله كما يستغنى الحوار على المسرح عن تفاصيل حركات الممثلين ، وتقوم القرائن فى القصص القرآنى مقام عين المشاهد فى المسرح : هذه تعين على فهم معنى الحذف ، وتلك تعين على مشاهدة الحركة المسرحيه .

(ب) الزيادة

يسعى النحو إلى الكشف عن وظائف عناصر الجملة (المفردات) ، وتسعى

البلاغة إلى إيضاح دلالات الجمل ، فضالة النحو المعنى الوظيفى ، وضالة البلاغة المعنى الاجتماعى أو المعنى العام.فاذا صادف النحو فى الجملة عنصرا ليس له وظيفة « نحوية » عده زائداً فى ا لجملة مادام لايمكن أن ينسب إلى إعراب معين ، فيقال مثلا : هذا فاعل أو هذا حال أو تمييز إلخ . وهذاالذى يعده النحويون زائداً لايراه البلاغيون كذلك ، وإنما ينسبون إلى وجوده زيادة فى المعنى ، لأن « زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى » كما يقولون . فالفرق بين « ما زيد قائم » ، أو« ما زيد بقائم » أن الثانية أوكد من الأولى بسبب وجود الباء . وفيما يلى شاهدان على زيادة الحرف لتأكيد المعنى مأخوذان من القرآن الأول قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات » (فاطر ١٩ — ٢١) فقد زيد « لا » مع النور والحرور والأموات ، وذلك لتأكيد المعنى والثانى قوله تعالى . « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا » (هود ٢٤) فالذى معنـــا فى الآيـــة هو شخصان لا أربعة بدليل قوله : « هل يستويان » ومعنى هذا أن الواو زيدت قبل الأصم وقبل السميع ، وأن المعنى « مثل الفريقين كالأعمى الأصم والبصير السميع » والواوان زائدتان للتأكيد وبيان قصور أول الرجلين لكونه بعاهتين ثم تفوق الثانى لخلوه منهما ولوضعه فى مقابل الأول ذى العاهتين .

(ج) الفصل

الأصل فى الكلام أن يكون متصلا والوصل هو الأسلوب الأصولى الملتزم بالأطر النظريه العامة للغة . ويترتب على ذلك أن الفصل أسلوب عدولى. وهو على نوعين : أحدهما نحوى والثانى بلاغى وأما النحوى فيفهم فى حدود الجمله الواحدة من حيث حيلولته بين عنصرين متلازمين فى الجملة أن يتصل أحدهما بالآخر وقد يكون بأجنبى أو بغير أجنبى والفصل بأجنبى ممجوج مستثقل وهو موضع سخط النحاة كقول الشاعر :

سراة بنى أبى بكر تســـامى
على — كان — المسومة العراب

ففصل بين الجار والمجرور بما ليس من تتمة معناهما أما الفصل بغير أجنبى فهو اختيار أسلوبى يعد مسرحا من مسارح الإحسان والإجادة ومنه قوله تعالى « يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » (الأنعام ١٥٨) إذ جاء الفصل بالفاعل بين المفعول وصفته الجملة فلو قدم الفاعل لعاد الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ، ولو أخره عن الصفة لطال الكلام بين الفعل وفاعله المفرد ،ومن ثم يندر موضع الفاعل قلقا غير وثيق الصله

بالفعل . أما الحذف بمعناه البلاغي فيكون بين الجملتين اللتين بينهما تمام الانقطاع كما يقول البلاغيون، كما يكون في مواطن انفعال المتكلم بالخوف أو الغضب أو نحوهما فتمام الانقطاع كأن تقول . ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ، اللهم اجمعهما لنا فالأولى تعجب والثانية دعاء ولا يكون بينهما عطف . وأما الفصل في مواقف الانفعال فالشواهد القرآنية عليه كثيرة منها

«ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ قال الذين حق عليهم القول ربنا — هؤلاء الذين أغوينا — أغويناهم كما غوينا — تبرأنا إليك — ما كانوا إيانا يعبدون »(القصص ٦٣) فصلوا بين الجمل لخوف العقاب

« وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك — ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق — إن كنت قلته فقد علمته - تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك — إنك أنت علام الغيوب» المائدة ١١٦) فصل لدفع التهمة « فلما ألقوا قال موسى : ما جئتم به السحر — إن الله سيبطله — إن الله لا يصلح عمل المفسدين » (يونس ٨١) فصل للدهشة وخوف الفشل .

«وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه — قد شغفها حبا — إنا لنراها في ضلال مبين » (يوسف ٣٠) فصلن للانفعال بمتعة الغيبة .

«وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً . ما لهم به من علم ولا لآبائهم — كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » (الكهف ٤ ٥) فصل لإظهار الغضب من إفكهم وبهتانهم .

(د) الاعتراض :

الفرق بين الفصل بين المتلازمين وبين الاعتراض . أن الفصل يكون بما دون الجملة ولا يكون الاعتراض إلا بالجملة والجملة المعترضة غريبة في العادة عن السياق الأصلي للكلام ، حتى بها لغرض من أغراض المعنى . والاعتراض كالفصل من حيث ينتمي كلاهما إلى الأسلوب العدولي . وفيما يلي طائفة من شواهد الاعتراض ، نسوقها طلبا لإدراك الغاية التي يرمي كل اعتراض إليها . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) ولا مستأنسين لحديث » (الأحزاب ٥٣) فجرى القول في الآية « غير ناظرين إناه ولا مستأنسين لحديث » ، ولكن الاعتراض جاء لتخفيف وطأة النهي وبيان مداه .

وقال تعالى : « ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين (ليس لك من الأمر شيء) أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » (آل عمران ١٢٧ – ١٢٨) ، فمجرى القول فى الآية « ليقطع طرفا . . . أو يكبتهم . . أو يتوب عليهم » ، والاعتراض لبيان أن كل شيء يصيب الذين كفروا إنما هو بإرادة الله فقط .

وقال تعالى : «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله غفوراً رحيما » (النساء ٣٣) فمجرى القول فى الآية «. وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن . . وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » ، وإنما جاء الاعتراض لعدم كفاية مفهوم المخالفة المستفاد من قوله « اللاتى دخلتم بهن » فأكد الاعتراض هذا المفهوم .

بذا يتضح أن تحقيق معنى إلصاق بواسطة الاعتراض مطلب فنى يجعل الاعتراض أسلوبا عدوليا ذا غايات أدبية .

(هـ) تجاهل الاختصاص :

سبقت الإشارة إلى دور الاختصاص فى إطار قرينة التضام . كما سبق القول بأن للاختصاص جانبا معجميا أيضا يتمثل فى أن كلمات المعجم قبائل يتآلف بعض ويكره بعضا آخر فلا يتآلف معه لما بين معنى هذا البعض وذاك من تعارض . وضربنا لذلك مثلا بعبارة « فخر عليهم السقف من تحتهم » (١) .

والمقصود بالاختصاص النحوى أن بعض الكلمات لا يرد إلا مع ما تتحقق فيه شروط خاصة من الكلمات الأخرى ، وتشيع ظاهرة الاختصاص بين الحروف والأدوات حتى إنها تتحول فى بعض الحالات إلى افتقار متأصل (أى بحسب أصل الوضع) إلى عنصر لغوى ذى شروط خاصة بعينها فحروف الجر تدخل على الأسماء دون الأفعال ، وحروف الجزم تدخل على الأفعال المضارعة دون بقية الأفعال ودون الأسماء ، وهلم جرا

وقد يدعو داع فنى أسلوبى إلى تجاهل اختصاص الكلمة بأختها ، فتدخل على غير ما تختص به والمعروف أن هناك مطابقة بين الموصوف والصفة فى التعريف والتنكير ولكن اختصاص النكرة بالنكرة تجوهل فى عدة مواضع من القرآن ، منها .

* « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلها آخر » (ق ٢٤ – ٢٦) .

* « هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » (ق ٣٢ – ٣٣) ،

(١) هذه عبارة وليست الآية الكريمة
. فخر عليهم السقف من فوقهم *

* « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون . . » (الحديد ٢٣-٢٤) ،

* « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده » (الهُمَزة ١ – ٣) . فقد وصف الكفار فى الآية الأولى « بالذى جعل » ، ووصف الأواب الثانية « بمن خشى » ، ووصف المختال فى الثانية « بالذين » ، ووصف الهمزة فى الرابعة « بالذى جمع » وقد سهل هذا أمران .

الأول . إضافة النكرة إلى لفظ « كل » فى جميع الحالات

الثانى . وصف النكرة بالنكرة قبل وصفها بالمعرفة فى جميع الحالات أيضا .

وكلا الأمرين يفيد النكرة تخصيصا وقد سبق أن قلنا إن التخصيص صنو التعريف .

وأما تجاهل الاختصاص المعجمى فلا يتم إلا مع استبدال العلاقة العرفية بين اللفظ والمعنى بعلاقة أخرى فنية كما سبقت الإشارة عند الكلام على مبدأ « النقل » ، فإذا تم التجاهل على هذه الصورة كانت النتيجة هى المجاز . فى قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهـدى » تجاهل الاختصاص الشراء بالسلع والتعارض بين الشراء والضلالة ، وقد يأبى المعنى هذا التجاهل أحيانا كما فى المثال الذى سبق فى أول كلامنا عن هذه الظاهرة فى عبارة « فخر عليهم السقف من تحتهم » ، وعندئذ يستعصى التركيب على الاستعمال .

* * *

نصل الآن إلى مبدأ الترخص فى القرينة عند أمن اللبس . إن الإدراك الإنسانى قد لا تنبهه القرينة الواحدة ، فالطبيب لا يستطيع تحديد نوع المرض من ارتفاع الحرارة فقط ، لأن من طبيعة القرينة أن تدخل فى تحالف مع عدد من القرائن الأخرى يختلف نوعه باختلاف المدلول . وهكذا إذا انضم إلى درجة الحرارة قرائن أخرى معينة دل مجموع القرائن على مرض ما وإذا انضمت إليها قرائن أخرى دلت القرائن فى مجموعها على مرض آخر وكذلك لا تستقل العلامة الإعرابية ببيان الباب النحوى ولو سيقت وحدها لبيانه لاختلط الفاعل بنائبه وبالمبتدأ وبالخبر . وهكذا كل ما استحق الرفع من أبواب النحو ، ولاختلط المفعول به بكل ما استحق النصب ، واختلط المجرور بالحرف بكل ما استحق الجر . لابد للنحو إذاً أن تتعدد قرائنه ليكون منها الإعراب والبنية والمطابقة والربط والرتبة والتضام والأداة ونغمة الكلام وسياق النص الخ . ولابد لكل باب نحوى أن يستدل عليه باثنين أو أكثر من هذه القرائن ، لأن القرينة الواحدة – كما سبق – لا يستحوذ على انتباه

السامع ولذا يتم تعزيزها بأختها «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى». ويحدث في الكثير من الحالات أن يتضافر عدد من القرائن على بيان المعنى ، وبعض هذه القرائن قد يكون زيادة على الضروري منها ، حتى ليمكن القول في هذا البعض: «إن المعنى هو الذي يقتضيه ولا يقتضي هو المعنى» . وهذا القول واضح في إعراب «قام موسى» إذ أن المعنى هو الذي اقتضى الرفع بمقدار الضمة ، ولا وجود للضمة حتى تقتضي هي الفاعلية وهكذا أمن اللبس حتى مع عدم الرفع وقد تكون القرينة موجودة وماثلة في النص ولكن المعنى يقتضيها أيضاً فتصبح زائدة عن المطلوب كما في «قرأ التلميذ الدرس» إذ الفاعل واضح والمفعول واضح بدون الضمة في الأول والفتحة في الثاني . هنا نقول إن المعنى اقتضى القرينة وليست القرينة هي التي اقتضت المعنى فلو نصبنا الفاعل ورفعنا المفعول لظل الفاعل فاعلا والمفعول مفعولا على الرغم من ذلك وقديماً رفعت العرب الثوب ونصبت المسمار في قولهم «خرق الثوب المسمار» دون أن يخشوا اللبس في المعنى . هكذا ترخص العرب في العربية

وكل قرينة مما ذكرنا سابقاً خضعت للترخص على ألسنة الفصحاء دون استثناء وأفصح الكلام كتاب الله تعالى ومن بعده أحاديث النبي ﷺ ثم شعر الجاهليين ثم من بعدهم . وقد وردت ظاهرة الترخص في القرائن عند أمن اللبس في كل هذه الأنواع من الكلام على نحو ما نرى في الشواهد التالية

١ - الإعراب .

(أ) قال تعالى

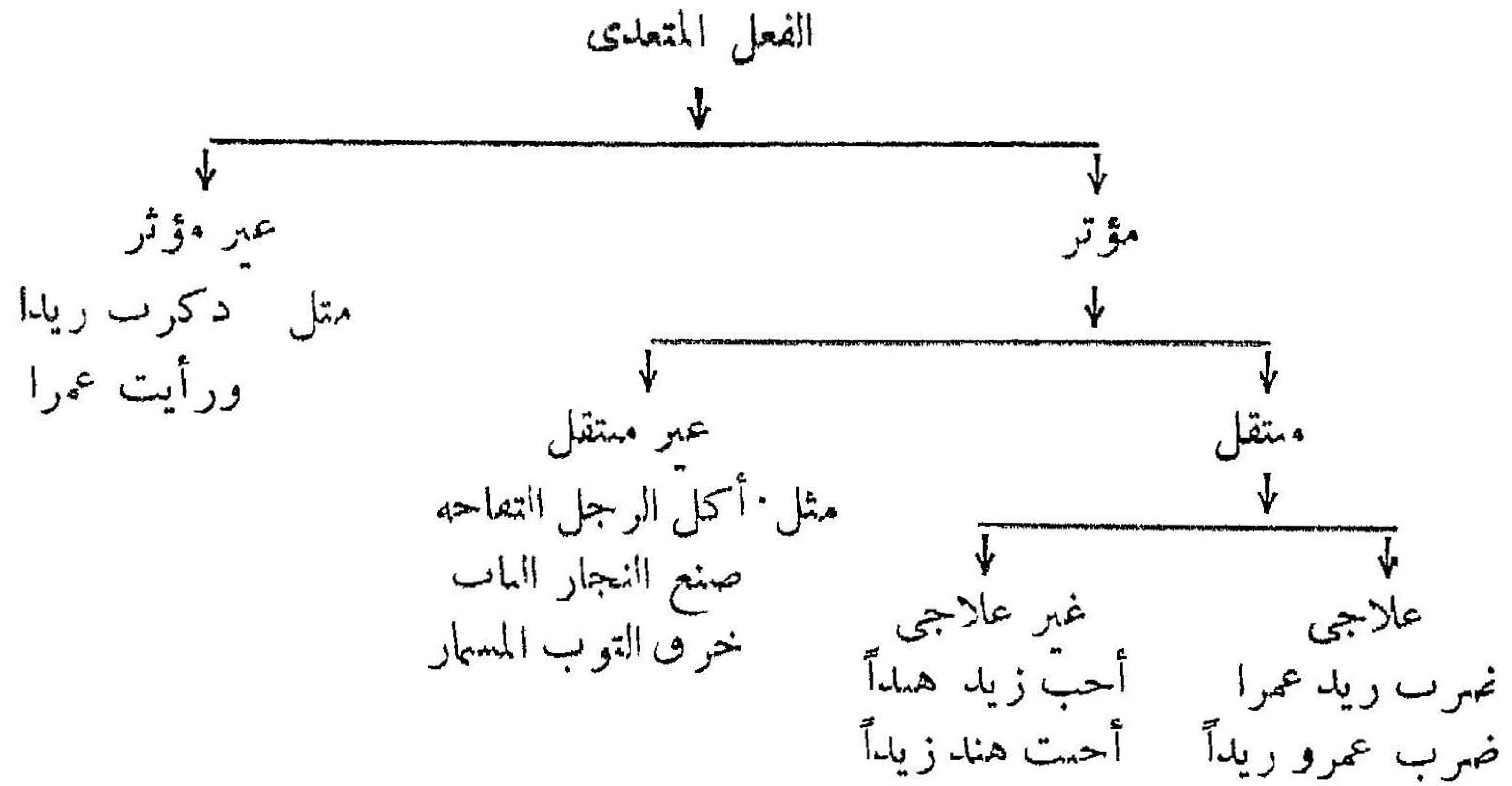
«لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما» (النساء ١٦٢) وقعت كلمة المقيمين بين مرفوعين ومعها الواو الدالة على العطف . فكان العطف مسوغاً للترخص في الإعراب .

(ب) قال الشاعر :

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن
خطاك خفافا إن حراسا أسدا

لو كان لدينا كلمتا «حراسا» و «أسدا» وأردنا بناء جملة اسمية لكانت «حراسا» مبتدأ لأنها معرفة . ولكانت «أسدا» خبرا لما فيها من معنى الوصف ويؤيد ذلك أن القاعدة تقضي بأنه لا يفصل بين «إن» واسمها إلا خبرها الظرف أو الجار والمجرور فعلم إذاً أن «حراسا» في بيت الشعر المذكور هي اسم «إن» فلم يبق لكلمة «أسدا» إلا أن تكون خبرا مع الترخص في الإعراب بسبب أمن اللبس .

(ج) قالت العرب : « خرق الثوب المسمار » . والفعل « حرق » فعل غير منتقل أى لا يمكن لفاعله ومفعوله أن يتبادلا التأثير بإيقاع الحدث . وبيان ذلك كما يلى ·



فإذا كان الفعل غير منتقل اتضح الفاعل من المفعول فأصبح لدينا قرينتان معنويتان هما الإسناد والتعدية وتغنى كلتاهما عندئذ عن الإعراب إذا حدث فيه ترخص ويصبح الإعراب قرينة زائدة عن المطلوب إذا بقى دون ترخص .

(د) قالت العرب أيضا « جحر ضب خرب » بجر الصفة « خرب » على الجوار هنا نعود مرة أخرى إلى الاختصاص المعجمى وقائل الكلمات فليس بين الضب والخراب مناسبة معجمية كالتى بين الجحر والخراب أى أن الجحر يمكن أن يوصف بالخراب ولا يوصف به الضب وهكذا تصبح المناسبة المعجمية (أو الاختصاص المعجمى إن شئت) قرينة على التبعية تجعل الإعراب أمراً غير ذى بال .

وهنا يحدث الترخص فى الإعراب بسبب أمن اللبس

٢ — المبنى ·

ترخص القرآن فى كلمة « سيناء » فسماها « سينين » وفى « إلياس » فقال · « إلياسين » وجعل « ميكائيل » على صورة « ميكال » و « مكة » صيرها « بكة » وترخص فى صيغ المبالغة فاستحدث من الكبر « كُباراً » ومن العجب « عجاب » وفى صيغة المصدر فجعل « كِذاباً » مصدراً للفعل « كذب » وفى صيغة المضارع من الافتعال فقال « يَهِدّى » و « يَخِصّمون » إلخ . وترخص الراجز فى « الأجل » فقال « الحمد لله العلى الأجلل » ، وفى الحمام فقال : « أو الفا مكة

من ورق الحمى » ، وترخص الشاعر فى «كيف » فقال :

كى تجنحون إلى سلم وما ثئرت
قتلاكمو ولظى الهيجاء تستعر

وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

* * *

٣ – الربط :

وهاك أمثلة وشواهد على الترخص فى الربط :

(أ) قال تعالى : « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » (الأنعام ١٢١) ، حذفت الفاء الرابطة من جواب الشرط ، لوضوح المعنى بدونها بقرينة إيمانهم وهو قرينة خارجية ، من خارج النص

(ب) قالوا : «مررت بالبُر قفيز بدرهم» أى منه ، فحذف الرابط ترخصا لاختصاص البر و القفيز أحـدهما بالآخر . ولذلك لا يجوز « مررت بالعدو اصبع على الزناد » إذ لا يمكن الجزم بصاحب الاصبع : أهو المار أم العدو ؟ .

(ج) قال تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » (البقره ٤٨) أى فيه حذف الرابط لوضوح المعنى بقرينة الجزاء وعدم التناصر وهما من خصائص يوم القيامة .

٤ – المطابقة ·

وهذه شواهد قرآنية على الترخص فى المطابقة ·

(أ) قال تعالى · « هذان خصمان اختصموا » (الحج ١٩)

(ب)قال تعالى · «فظلت أعناقهم لها خاضعين » (الشعراء ٤)

(ح) قال تعالى · « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » (الحجرات ٩)

(د) قال تعالى · « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » (ص ٢١)

(ه) قال تعالى: « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين » (الشعراء ١٦)

(و) قال تعالى · « قالتا أتينا طائعين » (فصلت ١١)

(ز) قال تعالى· « السماء منفطر به، كان وعده مفعولا » (المزمل ١٨)

* * *

٥ – الرتبة .

سبق أن ذكرنا أن تشويش الرتبة المحفوظة لا يمكن احتسابه أسلوبا عدوليا ، وإنما يعتبر ترخصا فى قرينة الرتبة ، بخلاف تشويش الرتبة غير المحفوظة ، إذ يعد اختياراً أسلوبيا فيما تتوارد عنه ظلال المعانى ومن شواهد الترخص فى الرتبة المحفوظة ، ما سبق

من قوله تعالى : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » (هود ٣٨) وذلك لأن جملة الحال رتبتها التأخير فى كل الحالات وتقدير الكلام. وكلما مر عليه ملأ من قومه وهو يصنع الفلك سخروا منه . ومثله قوله تعالى . « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه » (هود ٤٢) أى ونادى نوح ابنه وهى تجرى بهم فى موج كالجبال . ومن ذلك قول الشاعر :

لعن الإله وزوجها معها
هند الهنود طويلة البظر

وقوله :

ألا يا نخلة فى ذات عرق
عليك ورحمة الله السلام

* * *

٦ — التضام :

وفيما يلى شواهد على الترخص فى قرينة التضام عند أمن اللبس .

(أ) « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف » (يوسف ٨٥) أى لا تفتأ، فحذفت الأداة من فعل لا يستعمل إلا مقترنا بها ، ولذلك احتفظ بمعناه عند حذفها لأن الفعل اقتضى الأداة

(ب) قال صلى الله عليه وسلم « إن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم » ، أى إن مما ينبت الربيع ما يقتل أو يلم بالقتل ، أى يكاد يقتل ذلك أن « من » فى قوله « مما » تفيد البعضية وهى لا يعبر عنها بالأفعال (مثل يقتل) بل بالأسماء والضمائر (مثل « ما » المقدرة) .

(ج) قال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى « لا أبرح » ويقال فيه ما قيل فى « تفتأ » فى رقم أ .

(د) قال الشاعر :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته
.. ..

أى « الذى ترضى » لأن « ال » الموصولة لاتضام الأفعال وإنما تكون صلتها صفة صريحة على حد قول ابن مالك . فعلم برغم ما قيل أن المقصود « الذى ترضى » .

(هـ) قال الشاعر :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

اعتمد الترخص على قرينتين : الأولى أنه لا يقال : زجره يفعل ، وإنما يقال زجره أن يفعل، والثانية وجود أن مع الفعل المعطوف وهو « أن أشهد » مما يدل على وجوب تقديرها مع الأول .

(و) قال الشاعر :

نحن الأولى فاجمع جمو
عك ثم وجههم إلينا

أى نحن الأولى نتحداك ، بقرينه «اجمع جموعك ثم وجههم إلينا»

* * *

هذه الشواهد المتقدمه تدل على ترخص الفصحاء فى فرائش الكلام عند أمن اللبس طلبا للخفه أو سعيا وراء الابتكار والإغراب أو خضوعا للضروره غير أن الترخص أدنى درجات الصواب لأنه يخالف القاعدة والسمة المتبعة كلتيهما. ولايشفع له إلا أن اللبس معه مأمون .

ماذا يبقى بعد كل أولئك ؟

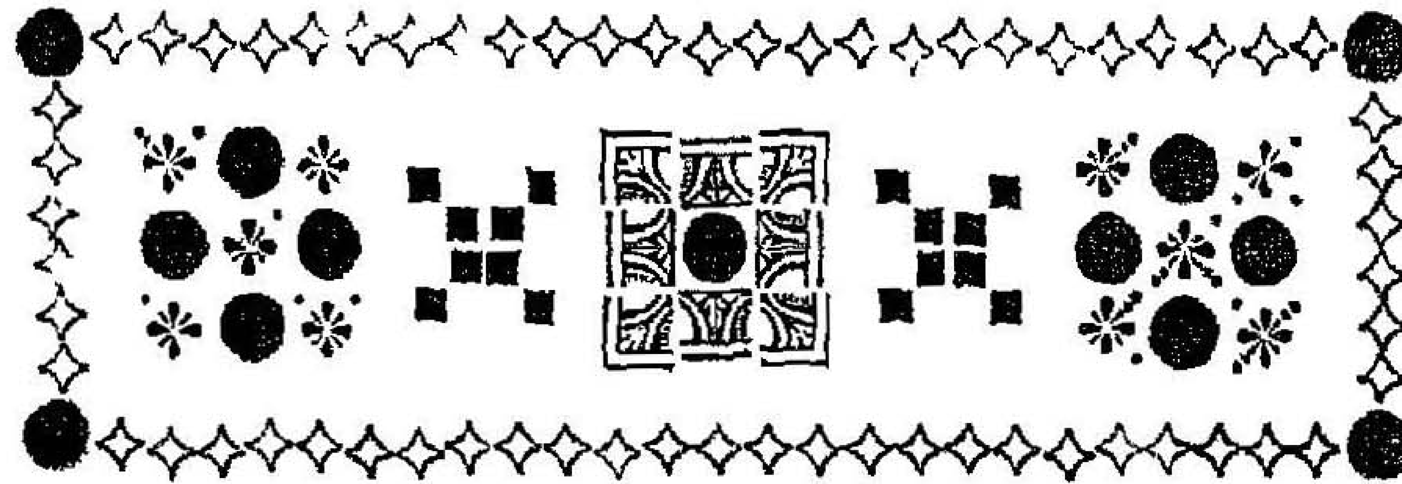
لايبقى إلا الخطأ الواضح الذى لاسند له من قاعدة أو أسلوب أو أمن لبس وقد جوز بعض المتقدمين الخطأ على الفصحاء ، وهو أمر غريب حقا لسببين

١ — أن الفصيح إذا ترخص كان على ثقه من أمن اللبس ، وإذا كان الكلام غير ملبس فهو صواب ولئن صح أن تحتسب الرخصة من قبيل الشاذ أو القليل أو النادر أو المسموع الذى يحفظ ولايقاس عليه ، لقد كان احتسابها كذلك أكرم للفصحاء ، وأولى بما حشا بعض شواهده من النصوص القرآنية

٢ — أن هذا النوع من ترخص الفصحاء هو منبع مايطلق عليه فى علم اللغة «الابتداع فى اللغه» أو «الابتكار اللغوى» . وهو فى بعض صوره يستهوى المجتمع . فيصبح سنه فى الكلام . ويكون سببا فى تطور اللغه من عصر إلى عصر وربما كانت الفروق التى نلحظها اليوم بين لغة القرون الأولى واللغه العربية الفصحى المعاصرة ناشئة عن تأثير هذا النوع من الترخص . بل ربما جاءت عن ترسخ أخطاء ذوى الجاه. وهى أحوج إلى التبرير من ترخص الفصحاء

والله ولى التوفيق ؛

تمام حسان
عضو المجمع



بين لغة الأدب ولغة العلم
للدكتور توفيق الطويل

اللغة الفنيه هى أداه التعبير عن خصائص الأدب كفن جميل ، والرياضه هى أداة التعبير الوحيده عن خصائص المعرفه العلميه وبين الأدب والعلم فوارق ضخمه تصور ما بينهما من تعارض يبلغ حد التناقض فى أكثر الحالات ، ويقتضينا المنهج العلمى أن نستهل حديثنا بتعريف ما نقصده بمفهوم الأدب ومفهوم العلم .

مفهـوم الأدب :

حين يرى الأديب مشاهد الطبيعه وأحوال المجتمع وأحداث الحياه ، وحين يتأمل عبر التاريخ ويستشف بشائر المستقبل ، يتحول كل هذا فى نفسه إلى انطباعات تتمثل فى أحاسيس ووجدانات وخواطر ، يعبر عنها فى صور أدبيه نثراً أو شعراً ، فى لغه يحسن اختيار ألفاظها وتركيب جملها ، ويضفى عليها معانى ودلالات جديده ، وجمال أدائه يثير فى نفس قارئه أو سامعه مشاعر وخواطر تشيع فيه البهجه والإمتاع ، ومن أجل أن يحقق الأديب هذا ، يبيح لنفسه حين يبنى عباراته أن يقدم لفظا ويؤخر لفظاً ، ويحذف ثالثا ويضيف رابعا ، ويستخدم خياله الذى يتجاوز المعانى الحقيقيه للألفاظ ، إلى دلالات جديده ، ويزيد فيصطنع فى تعبيراته المجاز والتشبيه والاستعاره ونحوها ، مما يمكنه من خلق صور أدبيه يستعين بها على رسم أحاسيسه وانفعالاته وخواطره فى لوحات قد تمثل منظرا طبيعيا أو جوا نفسيا أو مشهدا من مشاهد الحياه . وإن كان الدكتور طه حسين يقول فى كتابه «حافظ وشوقى» : « إن العقل هو مصدر الإجاده الفنيه ، فإنها إن كانت أثرا من آثار الشعور ، ومظهرا من مظاهر الحس القوى . والعواطف الرقيقه . والخيال الخصب . فهى لغو إذا لم تستمد غذاءها الحقيقى من العقل والعلم » .

والأديب بإحساسه بألفاظ اللغه وخصائصها والعـلاقات الخفيه القائمه بين بعضها

(*) ألقى البحث فى الجلسة الخامسة ٣ / ٥ / ١٩٨٥ م

وبعض ، وبقدرته على صياغة العبارات ورسم الصـور ، وبموهبته الفنية ورصيده الأدبى يستطيع أن يولد عند قارئه أحاسيس جديدة وصور طريفة ، ويثير فى نفسه الإعجاب والإمتاع .

ولكل أديب أسلوبه ، أى طريقته فى التعبير ، ويكون أسلوبه وليد موهبته الفنية وثقافته وتذوقه للغة وطرقها فى الأداء ، وهو يتأثر ببيئته وروح عصره والأدباء يختلفون فى تركيب عباراتهم بين إيجاز وإسهاب ، وغموض وإيضاح ، وبساطة وإغراب ،وسهولة وتعقيد ،وتنافر وجمال. ونحو هذا مما نراه كثيرا . ومرد الأمر فى الأسلوب الأدبى إلى البلاغة ، وهى فى تعريفها الشائع «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» بل ذهب القدماء إلى القول بأن الأسلوب بمعناه العام هو « طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإيضاح والتأثير ، أو الضرب من النظم والطريقة فيه كما قال عبد القاهر الجرجانى ت / ٤٧ هـ فى دلائل الإعجاز

والأسلوب البليغ هو الذى يعبر بصدق عن شخصية صاحبه ، فالأسلوب هو الرجل أو الإنسان نفسه كما قال العالم الفرنسى بوفون ١٧٨٨ G. L. L. Buffon وقد شاعت قولته وأريد بها أن الأسلوب هو مرآة لشخصية الأديب [1] ومن هنا شاع القول بأن الأدب هو صدق التعبير الفنى عن إحساس صادق لصاحبه وإن كان علينا أن نعرف أن الأديب لا يعبر دائما عن تجارب شخصية عاشها ، بل هو قادر بقوة خياله على أن يعيش أى تجربة إنسانية ويعبر عنها متخطيا زمانها ومكانها .

وكان أناتول فرنس ١٩٢٤ A. France يقول إن الأسلوب الأمثل فى الأدب هو الأسلوب السهل الذى لا يكد الذهن ، فللعلم علينا حق الانتباه والتأمل ، وليس للفنون ذلك الحق ، لأنها بطبيعتها تسر ولا تفيد ، ووظيفتها أن تعجب ولا وظيفة لها غير ذلك ، فيجب أن تكون جذابة بغير شرط . .

يروى العقاد هذا الرأى فى أحد مقالاته له عن الأسلوب فى « مراجعات فى الآداب والفنون » ثم يناقش الرأى فيقول « إنما تمتدح السهولة فى الأدب حين تدل على السوغ والمقدرة ، إذا أدى بها الأديب المعانى التى يؤديها غيره بمشقة وإعتساف ... والصور الخيالية والمعانى الذهنية هى الأصل فى جمال الأساليب فى الأدب والفنون .

(١) عالم نبات . قال فى « خطة فى الأسلوب » محاضرة ألقاها فى ٢٥ / ٨ / ١٧٥٣ أمام الأكاديمية الفرنسية ، ونص قوله هو الأسلوب هو الرجل نفسه » le Style est l'homme même.

ويقول طه حسين فى الجزء الأول من حديث الأربعاء : إن الأديب عندى هو الذى يصنع أدبه ويعمله عملا ، ويتهيأ له فيطيل التهيؤ ، ويفكر فيه فيمعن فى التفكير ويتكلف لذلك من الجهد والمشقة ما يضنيه ويعييه . . . أما الشاعر الذى ينحت من صخر فهو الذى يعجبنى ويرضينى لأنه لا يقول الشعر وإنما يعمله . . . ولأن الشعر لا يصدر عن طبعه وحده ، وإنما يصدر عن طبعه وعقله وإرادته . »

هذه كلمة عجلة خاطفة عن مفهوم الأدب ، فماذا نريد بمفهوم العلم ؟

مفهوم العلم :

يراد بالعلم فى معناه الواسع الفضفاض أى فرع من فروع المعرفة البشرية يجرى على نهج ونظام ، ومنه علم الأدب ، أما بمعناه الاصطلاحى الضيق ، وهو ما نقصده فى هذا الحديث ، فيراد به منذ أن ظهرت مناهج البحث العلمى الحديث فى مطلع عصورنا الحديثة (1) — يراد به العلم الطبيعى أى علم الفيزياء وما تفرع عنه من علوم تشاركه فى مناهجه التجريبية . والعلم بهذا المعنى هو كل دراسة تتوافر فيها أربعة أركان مجتمعة لا يغنى بعضها عن بعض ، أولها منهج البحث الذى يتحتم أن يكون تجريبيا استقرائيا يقوم على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، إن كانت ممكنة ، والملاحظة توجيه للذهن والحواس إلى ظاهرة أو ظواهر حسية للكشف عن صفاتها وخصائصها ، توصلا إلى كسب معرفة جديدة . والتجربة ملاحظة يتدخل أثناءها الباحث ليلاحظ الظاهرة فى ظروف هيأها وأعدها بإرادته ليدرس الظاهرة فى الوقت الذى يريده ، وليحقق بذلك أغراضه ، وفى الحالين يستخدم آلات وأجهزة تعوض قصور الحواس . أما ثانى أركان المنهج فيتفرع عن أولها ، إذ طالما كان أول الأركان هو الاعتماد على الحواس فى ملاحظة الظواهر ، فإن ذلك يستتبع أن يكون موضوع البحث جزئيات محسوسة ، أى ظواهر طبيعية أو وقائع جزئية فى عالمنا الواقعى المحسوس ، فلا يجوز للعالم أن يتجاوزها فى بحثه إلى دراسة ما وراء المحسوس من حقائق — كعالم الأرواح — أن يدرسها ويؤمن بها كإنسان أو مفكر أو فيلسوف وليس كعالم . وثالثها وهو أهم أركان العلم أن يتوصل العالم عن طريق دراسته التجريبية للوقائع الجزئية إلى وضع قانون عام يفسر الظاهرة التى يدرسها . يقول برتراند رسل ١٩٧١ Bertrand Russell فى كتابه . Scientific Outlook إن العلم وإن كان يبدأ بدراسة الوقائع الجزئية

---

(١) وإن سبق إلى معرفته من العرب جابر بن حيان ت ٨١٣ أ والحسن بن الهيثم ت ١٠٢٩ م انظر كتابنا العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى ص ٣٠ وما بعدها .

إلا أن معرفتنا التجريبية بهذه الوقائع لا تكفى لقيام العلم ، لأن العلم لا يستقيم إلا إذا كشفنا عن القوانين العامة التى تكون هذه الوقائع الجزئية تطبيقا لها ، ومن هنا كانت أهمية الواقعة الجزئية تقوم فى أنها مجرد مثل يشهد بقانون من قوانين الطبيعة « وهذا الركن – وضع القوانين العامة – لا يتوافر فى رأينا فى الدراسات الإنسانية التى يزعم اليوم أصحابه أنها أصبحت اليوم علوما ، متفرعة من العلوم الفيزيائية[1] وإن كان هذا الرأى يغضب المشتغلين بها من زملائنا .»

ورابع الأركان – وهو لا يقل اليوم أهمية عن ثالثها – هو أن تترجم نتائج الدراسة العلمية (وهى القوانين) إلى رموز رياضية أى أرقام عددية ، فالعلم اليوم مولع بتحويل الكيفيات (وهى الصفات التى لا تقاس) إلى كميات عددية ، تحقيقا للدقة والضبط ، ولهذا تأكد القول بأن لغة العلم الوحيدة هى الرياضة فلا علم إذا لم تقم دراسته على القياس أو الوزن ولهذا حولت الدراسات العلمية الضوء إلى طـول الموجات وقصرها والصوت إلى سعة الذبذبة ، والحرارة إلى موجات حرارية ، واللون إلى موجات ضوئية يحدثها .. زهاء حرا ، وذلك لإمكان قياس هذه الظواهر والتعبير عنها بأرقام

ومن تعريف الأدب وتعريف العلم على النحو السالف الذكر ، نستشف أن الخلاف بين لغة الأدب ولغة العلم هو خلاف تعارض قد يبلغ حد التناقض فى كثير من الحالات .

وسنعرض فيما يلى أهم وجوه الخلاف بين لغة الأدب ولغة العلم ، وقد حصرنا المهم منها فى سبعة فروق

١ – الجديد والقديم فى الأدب وفى العلم :

يستهدف العمل الأدبى إرضاء حساسية القارىء وإشباع ذوقه الفنى ، وإن روائع المقطوعات الأدبية شعرا ونثرا تعيش عصوراً طويلة جنبا إلى جنب ، والجديد منها لا يستبعد قديمها ولا يقلل من روعته ، إن القطعة الأدبية الرائعة تعيش أبدا ولا تموت بمضى الزمان ، إن مقطوعات الشعراء وروائع الأدباء منذ أقدم العصور لا تزال حتى اليوم تثير عند قرائها أعمق مكامن الإعجاب ، ويستمتع بها أصحاب الأذواق حتى من المحدثين والمعاصرين إن الأدب لا يغنى حاضره عن ماضيه ، لأن ماضيه يجرى فياضا متجددا مع كل أديب عبقرى فى كل عصر من عصور التاريخ ، يشيع بهجة القارىء ويثير متعة السامع ويهز المشاعر ويريح الأعصاب . وليس هذا هو الحال فى العلم . فمن الميسور والمألوف إغفال العلماء

(١) من بحث لنا تحت عنوان إشكالية العلوم الاجتماعية أنها ليست علوما ، وقد نوقش البحث فى ندوة علمية فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة .

والناس الماضيه ، لأن تاريخ العلم مختلف عن العلم نفسه ، يقول « ليون روبان L. Robin» فى كتابه « الفكر الإغريقى وأصول الروح العلمية[1]. إن ماضى العلم هو الجزء الميت الفانى من المحاولات التى قام بها العلماء ابتغاء التوصل إلى الحقيقة ، أو هو الجهد الذى أدركه النسيان بعد أن بلغ أصحابه الغاية المطلوبة منه ، وهذا الماضى يشبع رغبة الطامع فى التوسع فى المعرفه ولا يتجاوز هذا الحد ، وفى وسع دارس تاريخ العلم أن يقنع بمعرفة النتائج التى انتهت إليها بحوث سابقيه من العلماء ، دون الرجوع إلى تطور التفكير الذى أسلم إليها ، ولهذا فإن العالم يبدأ بحوثه عادة من حيث انتهى سابقوه من العلماء ، ينظر إلى الأمام ولا يتلفت وراءه ، وقوانين العلم يلتقى عندها العلماء جميعا ، وإن نشب بين بعضهم والبعض ، بصدد أحدها ، خلاف ، حسموا الخلاف بالرجوع إلى الواقع ، واستفتاء التجربه ، وإذا كانت المقطوعة الأدبية تصدر عن صاحبها ، ولا تعزى إلى أحد غيره ، فإن قوانين العلم لا تنسب إلى أصحابها إلا على سبيل التاريخ ، لأنها ملك مشاع بين كل العلماء وجميع الناس .

٢ — ذاتية الأديب وموضوعية العالم :

واضح مما أسلفنا أن الأدب عند صاحبه مبدعاً ومتلقياً قوامه الذاتيه الخالصه Subjectivity لأنه يصدر عن مشاعر صاحبه وانفعالاته وأخيلته وخواطره . وأما العلم فلا قيام له بغير الالتزام فى بحوثه بالموضوعية بقدر ما تسمح الطاقه البشريه . وقد عبر « كلود برنار ١٨٧٨ Claud Bernerd » عن هذه التفرقة بين المنهجين بقوله . « الفن أنا والعلم نحن » فالمنظر الطبيعى الواحد يصوره مجموعة من الشعراء فى قصائد رائعة متباينه وبمقدار ما يكون بين بعضها والبعض من فوارق فى تعبيراتها الأدبية وصورها الفنيه ، يمكن أن تكون عبقرية كل من اصحابها ، أما فى حال العلم فإن الظاهرة الواحده إذا عرض لدراستها مجموعه من العلماء ، انتهوا آخر المطاف بشأنها إلى نتائج واحده ، لأن سبيلهم جميعا إلى دراستها هو الملاحظه الحسيه التى تستهدف وصف الظاهره وبيان خصائصها ، ثم إجراء التجربة التى يمكن تكرارها للتثبت من صواب نتائج الدراسه ، فإن اختلف بشأنها بعضهم مع بعض ارتدوا إلى الواقع مره أخرى واستفتوا التجربه لتحسم أى خلاف يقوم بهذا الصدد .

ويراد بموضوعيه البحث Objectivity إقصاء الخبره الذاتيه لمعرفه الأشياء كما هى

---

(١) Lenin Robin La pensée Gréque etles Origines de l'Esprit Scientifique Greek نقله إلى الانجليزية M. R. Dobie تحت عنوان Thought the Grigines of th suentific spirit

فى الواقع ،وليس كما يتمنى الباحث ويريد أما الخبرة الذاتية فهى قوام الفنون ، ومنها الأدب ، لأن صاحبها ينظر إلى الشىء من خلال عواطفه وأحاسيسه وانفعالاته وأخيلته فالفنون ابتداع ذهنى تلقائى ، والشخصية الفردية فى الفنون تحتفظ بذاتها على مر الزمان ».

٣ - صدق الأديب ونزاهة العالم :

إن نقاد الأدب المتميز شعراً أو نثراً يجعلون معيار تقييمه هو صدق صاحبه فى التعبير الفنى عن مشاعره وخواطره ، ولا يفسحون مجالا للحديث عن إبعاد عواطفه وميوله ورغباته فى مجال إبداعه ،لأنه لو فعل هذا لعز عليه أن يكون أديبا بينما الأمر على نقيض هذا فى حال العلم ، فإن من أخص خصائص العالم أن يكون نزيها ، ويراد بالنزاهـة disinterestedness إماتة الذات self-mortification أو تنحية الذات وإبعادها عن مجال البحث self-elimination أى طراح الهوى والتزام الحيدة واستبعاد الاعتبارات الشخصيه وغير هذا مما ييسر للباحث الكشف عن هدفه من غير عائق ، فالعالم عليه ألا يخضع بحثه لمصلحة شخصية أو شهوة فردية ، أو عقيدة دينية أو نظرية علمية أو فكرة قومية .. إلى الحد الذى تنتفى فيه أمانته فى تقصى الحقيقة ، بل عليه أن يجرد نفسه من أهوائها ونزواتها وميولها ما مكنته طبيعته البشرية من ذلك[1] ».

والنزاهة تقتضى إنكار الذات self-denial or abnegation والعروف عن استغلال العلم لتحقيق مآرب شخصية ، فالعالم يظل فقيرا ، بينما يثرى أصحاب المصانع الذين يطبقون قوانينه ، لأنه اختار البحث والتأمل ، وبالتالى آثر الفقر . . .

ومن دلالات النزاهة أن العالم قد يتوخى دعوة الآخرين إلى نقده وإثبات خطئه إن كان قد ضل السبيل فى بحوثه ، هكذا فعل باستير L. Pasteur ١٨٩٥ . حين شجع بوشيه Bouchet على أن يثبت صواب نظرية التولد التلقائى Spontaneous Generation التى كان باستير قد أثبت خطأها ، ومعنى هـذا أن العالم يتقمص روح القاضى النزيه ، فيتجرد عن أهوائه وميوله ورغباته ومصالحـه ما أمكنه ، وينتظر فى صبر حتى يعرف كل ظروف

---

(١) كان فلوجل J Flugel مات منذ بضع سنين - صاحب A 100 years of Psychology وغيره من إنتاج غزير - كان أستاذا مساعدا لعلم النفس (Reader) بجامعة لندن ، وخلا كرسى أستاذ المادة فتقدم له مرشحا وحيدا ، ولكن اللجنة رأت أنه متحمس جدا لنظريات فرويد S. Freud إلى حد أنه يراها الحق كله ، ويرى كل ما عداها باطلا . وهذا يطعن فى موضوعية بحوثه ونزاهته كعالم ، فحرمته من أن يكون رئيسا لقسم علم النفس

القصيه التى يتصدى للحكم فيها ، ويفحص كل الأدلة المؤيدة والمعارضة لها ، وكل هذا يقتضيه طاقة أخلاقية وذكاء ذهنيا ونزوعا نقديا لا يسهل توافره ، ولا سيما فى العلوم الإنسانية التى تتخذ الحقائق البشرية موضوعا لدراستها ، والعالم الذى تعوزه النزاهة ، يكون موضع استخفاف واحتقار فى دوائر العلماء(1)

٤ — وسيلة التعبير فى الأدب وفى العلم :

لغة الأديب أداة إثارة وتأثير وإقناع ، إنه يعبر عن مشاعره وخواطره فى صور فنية تثير فى قارئه المتعة والراحة ، أما العالم فحرص على التخلص من الألفاظ والصور الفنية وغموضها ، ويتجنب إثارة المشاعر والوجدانات ، ولهذا فإن دراساته لا تكون إلا متى أمكن القياس أو الوزن ، كما أشرنا من قبل ، فالعلم الحديث كلف بتحويل الكيفيات (الصفات التى لا تقاس) إلى رموز رياضية أو كميات عدديه ، ومن أجل هذا لازمت البحوث العلميه آلات وأجهزه تعبر عن نتائج دراساته بأرقام يتساوى جميع الناس فى فهمها ، وبهذا اختفت فى ساحه العلم الأحكام الذاتيه والتقديرات الشخصيه ، وأصبحت لغة العلم الوحيدة هى الرياضة ، يقــول سليفيان J. W. Sullivan. فى كتابه القيم : أسس العلم الحديث « The Bases of Modern Sience » إن أقصى غايه للعلم أن يقدم لنا وصفا رياضيا شاملا للظواهر فى عبارات تضم أقل عدد ممكن من المبادىء والحقائق العقلية . إن الرياضيات هى اللغة الوحيدة التى يستخدمها العلم ، ونقول هذا مكررين دون أن نمل التكرار ، وبعد أن كانت الملاحظة الحسيه أهم ركن فى منهج البحث العلمى ، احتل مكان الصدارة فى عصرنا هذا رد الوقائع إلى أرقام تقرأ على مراقم ومقاييس ، وأصبح الاتجــاه الحديث الآن هو ترجمة الظواهر الطبيعيه إلى رسوم بيانية ولوحات فوتوغرافيه ، وهكذا

---

(1) قيل إن العالم الألمانى هيكل ١٩١٩ E Haekel قد زور مرة فى صورة لجنس حيوان حتى تبدو قريبة الشبه بجنين الإنسان فيثبت بهذه نظريته الجديدة فى التطور آملا فى أن يذيع اسمه فلما كشف العلماء تزويره واحتفلت أكاديمية برلين بعيدها المئوى دعت العلماء من شتى بقاع الأرض لحضور احتفالها ، ولكنها حرصت على أن تغفل دعوة مواطنها هيكل ، احتقارا له .

وفى أكتوبر ١٩٧٦ طالعتنا كبريات الصحف البريطانية بآخر فضيحة اهتزت لها الأوساط العلمية فى العالم المتمدين ، ذلك أن السير سيريل بيرت ١٩٧٢ Cyril Burt كبير علماء النفس فى بريطانيا قد ثبت أنه استعمارى تعوزه الأمانة العلمية إذ كان يؤكد فى كتبه أن الجنس الأبيض يمتاز على غيره من الأجناس الملونة بالذكاء والقدرات العقلية التى لا تحى وبالتالى يتعين على المستعمرين أن يضعوا برامج لتعليم الملونين بحيث تتلاءم مع مستوى ذكائهم وعقولهم وروج تلاميذه لهذه النظرية المزعومة ثم تصدى للكشف عن كذبها بعد موته باحثون من علماء النفس فى إنجلترا وأمريكا وأكثرهم من تلاميذه وزملائه تبين لهم من مراجعة مصادر كتبه أنها مختلقة لا وجود لها إلا فى ذهن كاتبها وأن الإحصاءات التى أيد بها نظريته مختلقة وملفقة . . فكان بهذا موضع احتقار من علماء العالم المتمدين » .

أصبحت وقائع الحس في لغة العلم رموزاً رياضية، وصياغات رمزية . كما أصبحت القوانين مجرد دلالات رياضية . وبهذا تغير الوضع في القرن العشرين عما كان عليه الحال في العصور السابقة .

قيل إن جاليليو ١٩٤٢ Galileo قد كشف قانون القصور الذاتي الذي يقرر أن كل جسم يظل على حالة سكونه أو حركته المنتظمة ، ما لم يوجد ما يغير حالته . وظل هذا بعد قانونا حتى آخر القرن الماضي . ولكن علماء القرن العشرين قد اشترطوا ظاهرة التعبير عن القوانين بأرقام ، يقولون اليوم إن هذا مجرد وصف للجسم المتحرك ، وليس بقانون ، فإن أريد له أن يكون قانونا وجب أن يصاغ في رموز رياضية

٥ — الخيال بين لغة الأدب ولغة العلم :

إن دور الخيال في العمل الأدبي أساسي لا يستغني عنه أديب ، بل إنه أهم عناصر الأسلوب الفني . فإن الأديب يستعين به على تكوين الصور الأدبية التي تمنح الألفاظ في تعبيراته مفاهيم جديدة تثير متعة القارئ وبهجة السامع . والعالم بدوره لا غنى له عن الخيال . فإنه مضطر في بحوثه — بعد مرحلة الملاحظة والتجربة — أن يفرض فرضا يتخيله لتفسير الظاهرة حتى يتوصل إلى قانون لتفسيرها ، وعلى الباحث أن يمتحن الفرض — الذي تخيله كتفسير مؤقت — للتثبت من صوابه ، فإن ثبتت بالتجربة بطلانه عدل عنه إلى فرض ثان فثالث فرابع ، حتى يهتدي بخياله إلى فرض يثبت بالتجربة صوابه فيكون قانونا ، ولجون ستورت مل ١٨٧٣ J S. Mill في كتابه System of logic خمس قواعد للتثبت من صحة الفروض[١] . فإن ثبت صواب الفرض أصبح قانونا عاما . وهكذا نرى أن قوام الفرض العلمي هو الخيال الذي يتفاوت فيه الباحثون بتفاوت حظهم من الذكاء وسرعة البديهة وصفاء الذهن وسعة الاطلاع وغير هذا مما يساعد على تخيل الفرض الصحيح

ولكن خيال العالم غير خيال الأديب فخيال العالم وسيلة يستعان بها لكشف حقيقة ، ولهذا كان مرتبطا بالواقع ، فنتائجه تندمج في الواقع إلى حد أن العالم لا يتردد في التضحية بخياله الجميل ، متى ثبت له بالتجربة بطلانها ، أما خيال الأديب الفنان فإنه يستعين بالحقيقة وسيلة إلى كشف الجمال . ولهذا يستهدف الفنان تحريك المشاعر حتى تتجاوب معه .

---

(١) فطن إليه الأصوليون من فقهاء المسلمين ومتكلميهم منذ العصور الوسطى ، فقالوا عن طريقة التلازم في الوقوع إن العلة مطردة أي تدور مع الحكم وجودا ، وقالوا عن طريقة التلازم في التخلف إن العلة منعكسة أي أنها تدور مع الحكم عدما ، وعن طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف عبروا عنهم بدوران العلة مع معلولها وجودا وعدما — أو الطرد والعكس فيما ذكروا ويقولون . انظر كتاب أصول الفلسفة ط ٧ ص ١٦٤ وما بعدها

٦ ـ معيار التقييم فى الأدب وفى العلم :

إذا كان قد قيل إن الأدب هو التعبير الجميل الصادق عن إحساس صادق ، فإن معيار جماله يقوم فى الذوق الفنى عند صاحبه وقارئه ، حقيقة إن الأديب يعيش بمقدار ما يحس التعبير عن أحاسيسه وانفعالاته وخواطره؛ بشرط أن تكون إنسانية تتخطى الزمان والمكان ، ولا تكون مجرد صدى لبيئته أو روح عصره ، وإلا مات أدبه بتغيير معالم البيئة وروح العصر ، عاش شكسبير لأنه صور العواطف والغرائز البشرية ، ولم يصورها مرتبطة بأهل بلده وعصره الذى عاش ، ومع هذا فليس ثمة مقياس يقاس به جمال الأدب ، يكون خارج مشاعر الأديب وقارئه،وليس هذا هو الحال عند العالم ، وإن من أخص خصائص العلم إمكان التثبت من صحة قوانينه بالرجوع إلى الواقع واستفتاء الخبرة والملاحظة الحسيه فى أمرها ، ولا مجال هنا لذوق العالم أو إحساسه أو غير ذلك من أدوات اختبار الصدق فى حالات الفنون أو مما لا يدخل فى وسائل الإثبات العلمى

وكذلك يبدو الصدق فى الأدب مختلفا باختلاف الأفراد وذوقهم الفنى ، وروح عصرهم ، بينما يتميز الصدق فى حال العلم بالثبات مع اختلاف الأفراد والجماعات زمانا ومكانا ، وإذا أثبتت التجربة أن المعادن تتمدد بالحرارة ، كان من المحتم أن نتوقع من كل معدن ـ لم يختلط بغيره من مواد تمنع تمدده ـ أن يتمدد بالحرارة فى كل مكان وكل زمان . وليس هذا هو الحال فى الأدب وغيره من فنون ، ومن أمثلة هذا ما نراه فى شعر شوقى أمير الشعراء ، حمل على جناحه جمهرة قرائه إلى أقصى مراحل الإعجاب،بينما كان فى الوقت نفسه مثارا لحملة ضارية شنها عليه العقاد والمازنى ومن ذهب مذهبهما ممن جردوه من أبسط مقومات الفن الأصيل . . .

وليس هذا هو الحال فى العلم ، لأن نتائجه تتمثل فى أرقام يتساوى الناس فى فهمها ، يقول كارل بيرسون K. Pearson فى كتابه القيم Grammer of sience إن أحكام العلم لا تتأثر بالوجدان الشخصى أو الأحكام الذاتية أو الأهواء الشخصيه ، وتستبعد التحيز وتتوخى النزاهه العقلية .

٧ ـ بين أهداف لغة الأدب وأهداف لغة العلم :

علمنا إن اللغة هى أداه التعبير فى العمل الأدبى ، وإن الرياضة هى لغة العلم الوحيدة فى كل صوره ، فما الأهداف التى تنتهى إليها تلك الوسيلة فى الحالين . . . ؟

أما أهداف لغة الأدب فتبدو فى اتجاهين تحددهما مدرستان ، مدرسة ترى أن الأدب يصدر عن صاحبه كما يصدر الأرج عن الأزهار ، أو النور عن الشمس ، أو الخضرة عن النبات،وأما توجيه الأدب إلى تحقيق أعراض بعينها ترسم له أهدافا يفضى إلى

تحقيقها ، فهو إتلاف لطبيعته الفنية وإفساد لروحه . ليس للأدب هدف مباشر يقصد إلى تحقيقه غير الجمال .

أما المدرسة الثانية فاعل رائدها في النصف الأخير من القرن الماضي هو كارل ماركس K. Marks ١٨٨٢ وترى هذه المدرسة أن يسخر الأدب وغيره من الفنون لخدمة الإنسان في حياته الدنيا ، فيعالج الآفات الاجتماعية في مجتمعه ، يشخص أعراضها ويرسم طرق علاجها ، ومن ثم يصبح الأدب دعوة إلى تعبئة الجهود وتكتل القوى لرفع مستوى الشعب ، والنهوض به في شتى مجالات الحياة السياسية والأخلاقية والاجتماعية بوجه عام ومنذ سنوات هاجم خروشوف الفنانين الذين لا يسخرون لخدمة الحياة ، وأثار بهذا الكثيرين حتى من أهل عقيدته

ومن رواد هذا الاتجاه في أدبنا العربي المعاصر الدكتور طه حسين ، فهو يقول في « ألوان » أين الأدب إذا اعتزل الحياة أصبح لغوا من اللغو ، وسخفا لا غناء فيه . . إن الفن الجميل على اختلاف أنواعه هو السلم الذي يتيح للشعب أن يرقى ويسمو ويعنى بعظائم الأمور وجلائل الأعمال ويقول في : « أدبنا المعاصر » . . .

فالأدب لا يقاس بالجمال ولا يقاس بإرضاء الذوق ، ولا يقاس بتعميق المعاني والآراء ، ولا بهذا المذهب الفلسفي أو ذاك وإنما يقاس قبل كل شيء بالإعراب عن حاجة الشعوب إلى ما يقيم حياتهم المادية قبل كل شيء .

ومن الباحثين من ربط الفن بالأخلاق ، ورأى أن دارسه الخير وثيقة الاتصال بدراسة الجمال إلى حد جعل اليونان يستخدمون لفظا واحدا للتعبير عن الجمال والسلوك الخلقي ، ويوحدون بين الكمال والجمال وإلى مثل هذا ذهب بعض المحدثين ، من أمثال هربارت ١٨٤٤ J. H Herbart مؤسس علم الجمال وأفلاطوني كمبردج وأصحاب مذهب الحاسة الخلقية وغيرهم [1]

وكرد فعل لهذا الاتجاه ظهر مذهب الطبيعيين الذي أنشأه بازاك ونشر به في فرنسا زعيم هـــذه المدرسة إميل زولا ١٩٠٢ E. Zola الذي طبق في الفن القصصي المنهج التجريبي (الذي أخذه عن كلود برنار) فصور الحياة في أدب مكشوف Ponography ولا شيء سوى هذه الحياة المكشوفة يعد أدبا ، لأن رسالة الفنان في رأيهم ليست رسالة وعظ وإرشاد ودين ، بل رسالة حق

---

(١) انظر كتابنا . أسس الفلسفة ب ؛ ف ١ ص ٣٨٣ - ٣٨٩

وجمال ، والشر حق موجود فى الحياة ، وفى تصويره البارع جمال [1] .

لكن الاعتراض على هذا الرأى قديم فقد هاجم أفلاطون فى جمهوريته القصص الشعرى الذى يبدو أنه يفسد الضمير ويشوه المثل العليا ، وكان يرى أن الشعر والتصوير وغيرهما دجل يعمد إلى العواطف فيثيرها ولا يلجأ إلى العقل المتزن الرزين ، لأنه لا يجد فيه مجالا لعمله ويحسن تصوير الكثير من الشهوات والنزعات المنحطة حتى يحملنا على الإعجاب بما ذكره ، ولهذا كان من واجب المشرع ألا يسمح بمثل هذا الفن العابث فى المدينة (الفاضلة) حتى يكفل لفضيلة الحياة وعلى الناس أن يضعوا على رأس هذا الشاعر الماجن إكليلا آية تقديرهم له وإعجابهم بفنه ، ثم يشيعونه إلى حدود المدينة ليطردوه منها وهم يتغنون بمدحه واتباع غايه

ومن المحدثين من يقول أن الفن الرفيع لا يهدف إلى التهذيب والإصلاح ، وإن قصد إلى ذلك جاء هذا عن طريق غير مباشر ، بل إن آثار التهذيب والإصلاح ليست أجمل ما انتخب عبقرية الفن من روائع — فيما يقول بوب pop's Essay on man ويرى الدكتور أن شكسبير ١٦١٦ كان يكتب فيما يبدو بغير غرض أخلاقى ، ولم يكن على الدوام حريصا على أن يشير إلى السخط على الشرير ، وما يشبه هذا ممكن أن يقال فى الفردوس المفقود لملتون J. Milton ١٦٧٤ والكوميديا الإلهية لدانت Dante ١٣٢١ وثورة الملائكة لأناتول فرانس ١٩٢٤ Anatole France وغير هذا من آثار الفن الخالدة وهل يجدى مثل هذا الفن فى رفع مستوى الأخلاق عند الناس ؟ إن مثاله سيكون مثل الشحاذ الذى يعرج فى موكب صاخب ، وعلى غير جدوى يلتمس بعرجه انتباه أولئك الذين يسيرون فى المركب متحاملين له فيما يقول كاريت Caritt's Theory of Beauty

لكن الأدنى إلى الصواب أن يقال إن كلا الرأيين المتطرفين قد جانب الصواب فليس من الحكمة أن تخضع الفن لقيود العرف ومقتضيات التقاليد ، لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان وآثار الفن الخالدة

---

(١) من ذلك أن الشاعر الفرنسى بودلير * ١٨٦٧ Baudelaire أصدر ديوان شعره : « أزهار الشر » متضمنا مقطوعات شعرية تصور الأجسام المتحللة والحس المادى ، فرفع أمره إلى القضاء وأدين بغرامة (٣٠٠ فرنك) مع حذف المقطوعات التى تنافى الأخلاق . وأثار حكم القضاء أنصاره واتهم فكتور هوجو مع غيره القضاء بالظلم والجور على قدسية الفن ! ولكن الحكم قد سر القائلين بتسخير الفن للحياة والأخلاق ، وكان فولتير ١٩١٠ ممن يطالبون بإخضاع الفن لمبادىء الأخلاق ، ويرفضون الفصل بين الفن والحياة . (أسس الفلسفة ط ٧ ص ٣٨٥ .)

تعيش بفصل ما تضم من عناصر إنسانية خالدة ، ولكن من العبث أيضا أن نطالب بتحرير الفن من مبادىء الأخلاق وقيمها العليا ، وهى أصلا إنسانية خالصة لا يحدها زمان ولا مكان فيما يقول بيرى Perry's The Moral Economy

أما عن القائلين بتسخير الأدب لخدمة الحياة فإنهم يبالغون فى دعوتهم إلى الحد الذى يتحول فيه الأديب إلى مصلح اجتماعى إن الأدب قد يصور الحياة، ولكنه ليس صورة لها ولا بديلا عنها ، ولا إصلاحا لعيوبها ، وقيمة العمل الأدبى تقوم فى أثره فى نفوسنا ، والأدب خلق فى يخالف عناصر الحياة التى نشأ عنها ، ويترك فينا أثرا أعمق من آثار تلك العناصر .

كان أرسطو يقول إن الواقعية ليست فى أن نصور ما حدث ، بل ما يمكن أن يحتمل حدوثه لا حسب منطق الحياه كما نعرفها، بل حسب منطق الحياة فى القصة نفسها . . ولو توقعنا من العمل الأدبى أن يكون صورة صادقة للحياة ، لأغنتنا كتب التاريخ عن الأعمال الأدبية حقيقة إن العمل الأدبى يصدر عن الحياة ، ولكن الأديب إذا أحس بناءه عاش فى خدمة الحياة مئات السنين .

هذه فكرة عابرة عن أهداف العمل الأدبى ، فما هى أهداف البحث العلمى ؟

أهداف لغة العلم :

فى أهداف لغة العلم اتجاهان يحددهما مدرستان شبيهتان فى بعض الوجوه بالمدرستين السابقتين ، فالأولى تتمثل قديماً فى فلسفة اليونان،وهى ترى أن العلم فى كل صوره يكون هدفه العلم ، أى الكشف عن الحقيقة بباعث من اللذة الفعلية دون نظر إلى ما يحتمل أن يترتب على ذلك من خدمة فى حياتنا العملية أو إشباع لعواطفنا الدينية ، كما كان الحال فى حكمة الشرق القديم أما المدرسه الثانية فهى أعم وأشيع ، وهى تربط بين نتائج البحث العلمى ومطالب الحياة الدنيا، وإن كان النظر يسبق العمل، ولعل أكبر من مهد لهذا الاتجاه من الأوربيين المحدثين فرنسيس بيكون ١٦٢٦ F Bacon

واضع اصول المنهج العلمى :

رأى بيكون أن أسمى أنواع العلم هى التى تمكننا من السيطرة على ظواهر الطبيعية للتحكم فيها من أجل مصلحة الإنسان فى حياته ، وبهذا أوجب بيكون أن يسخر العلم لتحسين أحوال الناس وتحقيق رفاهيتهم ورفع مستوى معيشتهم ، فقيمة العلم مرهونة بأثره فى حياتنا العملية ، «والمعرفة قوة» ، كما كان يقول دائما .وأكد هذه الروح العملية من المعاصرين أصحاب الفلسفة البرجماتية من من الأمريكيين فيقول« جون ديوى»١٩٥٢ J. Dewey : إن العلم مجرد فن تطبيقى أو

(١) انظر كتابنا . أسس الفلسفة ط ٧ الفصل الأول من الباب الرابع

مشروع عملى ، والقوانين العلمية ليست تفسيراً للظواهر الطبيعية ، إنما هى وسيلة لإجراء صفقات ناجحة فى التعامل مع الوقائع الحسية ، والهدف من ذلك تحقيق أغراض بشرية نافعة . . . إلى آخر ما يراه فى بحوثه فى المنطق التجريبى وما يتردد فى كتابات غيره من دعاة الفلسفة العملية البرجماتيه .

ومن آثار النزعة العملية فى تصور العلم أن اتجه الباحثون منذ القرن الثامن عشر إلى تطبيقات القوانين العلمية ، فكان ما نسميه اليوم بالتكنولوجيا ، وهى قوام حضارتنا المادية فى عصرنا الحاضر[1] فالبحث العلمى أساس التقدم ، والتكنولوجيا هى السبيل لتحويل ثمار هذا البحث إلى مواد وأجهزة ومعدات قابلة للاستخدام فى الحياة العملية (كما يقول معجم العلوم الاجتماعية) .

حسبنا هذا من فروق تميز بين لغة الأدب ولغة العلم . .

ولا بأس من أن نختتم حديثاً بكلمتين ، نجمل فى أولاهما موقف الأدب الحديث من العلم ، ونوضح فى ثانيتهما خطأ النقاد والناس فى استخفافهم بالأدب والقول بأنه مجرد تسلية ومضيعة للوقت :

(ا) موقف الأدب الحديث من العلم :

تقدم العلم فى القرن الماضى تقدماً مذهلا وأصبحت نظرياته آية فى الدقة والإحكام وأمكن تطبيقها فكانت مخترعات يسرت حياة الناس من ناحية ودمرت الكثير من أسباب الحضارة الإنسانية من ناحية أخرى ، اخترعت الآلات فأدت إلى إتقان الصناعة والزراعة وتيسير وسائل النقل ، وكان انقلاباً فى حياة الإنسان لم يسبق له مثيل ، ولكن كثرت المصانع التى تستخدم الآلات الحديثة فكان شيوع البطالة بين العمال ، إذ استغنى أصحاب المصانع عن كثيرين منهم ، فحدث فى إنجلترا فى أوائل القرن الماضى أن تجمهر العمال وأضربوا وهجموا على المصانع لتحطيمها وطالبوا بنصيبهم فى ثرواتها لأنها نشأت عن كدهم ، وظهر المتطرفون من الاشتراكيين الذين يريدون هدم نظام التملك القائم وقتذاك ووسط الجو المضطرب المعتم كان للمحدثين من الأدباء موقف من الآلة والمدنية العلمية نشير إليه فى الكلمات التاليات

نتخير ثلاثة من أئمة الأدب الإنجليزى المعاصر ، من أصحاب النزعات الصوفية الرومانسيه ، لنشير إلى تمردهم على الآلة التى ظنوا أنها جمدت الحياة الحديثة ، وأحالتها إلى ضجر مجدب ، وهؤلاء هم : دافيد هربرت لورنس ١٩٣٠ وتوماس ستيرن اليوت ١٩٦٥ والدوس هكسلى ١٩٦٣ .

وأما لورنس فيقول إن الآلة هى المسئولة عن العقم الذى أصاب الحياة الإنسانية فى

(١) وإن عرفتها المجتمعات البدائية وأرادت بها المعرفة المتاحة لتشكيل الأشياء المصنوعة فى الحرف والمهن اليدوية ، كما تدل على المهارات فى صنع الآلات .

العصر الحديث ، لأن الإنسان أصبح خادمها وكان سيدها ، فتضاءل شعوره بفرديته وكيانه كإنسان ، وأضحى موقفه من الحياة لا يعدو أن يكون موقف المتفرج .

ويتفق معه « إليوت » فى نقد الحياة العصريه ، ويصمها بالعقم والفشل ، ويرجع ذلك إلى المدنية العلمية التى يعترف بأنها أدت للإنسان الكثير من وجوه الخير المادى ، وزودته بالمعرفه والعلم ، ولكنها باعدت بينه وبين الحياه وكنهها ، وطمست إدراكه الروحى ، وتركته وهو أشقى مما كان قبل أن يعرفها . إنها لم تعطه مزيداً من الحكمة ولا من الإنسانية، بل شغلته عن نفسه فأضاع حياته فيما جد عليه من شئون العيش وأضاع العلم نفسه فيما جمع من شتى المعارف.

أما «ألدوس هكسلى » فقد خالف زميليه قليلا فى ثورته على المدنية العلمية ، فهو فى روايته Brave New Waild وهى تدور حول قصة العالم مستقبلا يصور بطلها شاعراً رقيقاً ينشد الحب والشعر والجمال والحرية والفضيلة ، ولكنه يفتقد فى الحضارة الجديدة كل هذه المعانى الحبيبه إلى نفسه . . .

وهؤلاء الأدباء الثلاثة لا تختلف فكرتهم حول المدنية العلمية عن فكرة شعراء الحركة الرومانسية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، من أمثال ورد زويرث ١٨٥٠ وشيلى shelley وبيرون ١٨٢٤ فى ثورتهم على تصنيع إنجلترا فى عهدهم مع فارق واحد هو أن أولئك يضيقون بالواقع ، ويهربون منه ، بينما كان أدباؤنا الثلاثة المعاصرون يضيقون بالواقع ، ولكنهم يواجهونه مواجهة صريحة قويه فعالة .

ونضيف إلى هذا موقف أديب فرنسى سبق هؤلاء إلى ما يشبه هذا الموقف هو جان جاك روسو J. J. Rausseau ١٨٧٨ فقد ذهب فى صدر شبابه إلى أن ازدهار العلم يؤدى إلى انحطاط الخلق . وأن التفكير مناقض لطبيعة الإنسان ، وأن الإنسان الذى يفكر ويتعقل حيوان فاسد الأخلاق .

مع أننا نرى أن الإنسان ميزته على الحيوان الأعجم عقله وتفكيره : وعلى أى حال عدل « روسو » عن الكثير من أفكاره فى كتابه « إميل »(١)

ومع هذا فما من شك فى أن الأدب قد تأثر بالتقدم العلمى الحديث ، ومن دلالات هذا شيوع القصة العلميه فى الأربعين عاماً الأخيرة ، شيوعاً أدى بالكثيرين من أئمة الفكر والأدب فى أوربا إلى التوجس من أن يؤثر ذلك على أنواع القصص الأخرى . . . . ومنذ ثلاثين عاماً ظهرت فى عام واحد، وفى شارع واحد

---

(١) انظر كتابنا العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى ص ٣٧٩ - ٣٨١

من شوارع لندن عشرة محلات تخصصت جميعاً فى بيع القصص العامية ، وكثرت محلات بيعها فى نيويورك، إلى أحد يجعل السائح يتوهم أن نيويورك لا تقرأ إلا هذا النوع من القصص ، كما كان يقول صديقنا المرحوم الدكتور رشاد رشدى .

ولعل ما قلناه عن الأدب الفرنسى ، الإنجليزى المعاصر كان له صداه عند بعض المعاصرين من أدبائنا فى مصر .

(ب) الأدب فى خدمة الفلسفة :

كثر الحديث عن الأدب الذى يتطلب صدق التعبير عن أحاسيس صاحبه ، مشاعره وخواطره، فى لغة يتخير ألفاظها ويحسن وضعها من الجمل ، مع تخيل الصور الفنية التى ترضى حساسية القارىء ، تشيع فى فى نفسه الامتاع ، وشاع القول بأن الأدب يستهدف تصوير الجمال ولا يتجاوز هذا الحد إلى الاهتمام بآفات الحياة الاجتماعية وعلاج مشكلاتها ، وقد أدت هذه الأقوال بالكثيرين من الباحثين والنقاد والمتعالمين إلى الاستخفاف بالأدب شعرا ونثراً ، والقول بأنه مجرد تسلية ومضيعة للوقت ، وهؤلاء مخطئون أشد الخطأ وأفدحه ، وحسبنا للتدليل على خطئهم أن نقول: إن استقراء تاريخ النهضات شرقا وغرباً يشهد بأن يقظة الشعوب تبدأ بالحركات الأدبية ، ثم تليها النهضة العلمية فى كل الحالات هكذا كان الحال مع العرب أيام بنى العباس وكان هذا أيضاً هو الحال فى نهضة أوربا فى مطالع عصورها الحديثة .

لقد بدأ عصر الإسلام الذهبى علم وفلسفة وحضارة — فى منتصف القرن الثامن للميلاد — الثانى للهجرة — بعد أن سبقته نهضة أدبية تمثلت فى أواخر العصر الأموى فى شعراء من أمثال جرير والوليد بن يزيد ، وفى كتاب من أمثال سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الكاتب — وهو أشهر من أن يعرف — والحسن البصرى وغيرهم .

وأما عن عصر النهضة الأوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فيكفى أن يقول عنه أكبر مؤرخى العلم « جورج سارتون » ١٩٥٦ فى كتابه History of Science newhumanism — إنه عصر ذهبى فى الفنون والآدب ولكنه عصر مخيب لآمال مؤرخ العلم أى أن مؤرخ العلم لا يجد فيه من العلم ما يستحق أن يؤرخه . (١)

ولكن اليقظة قد أعقبت عصر النهضة ، وكانت طلائعها فى القرن السابع عشر على يد تيخـــو براه ١٦٠٩ Tycho-Brahe عالم الفلك الدنمركى الذى كان يباشر عمله

---

(١) مع استثناء ليونارد و دافنشى ١٥١٩ ومكيا وللى ١٥٢٧ والمصورين الفلورنسيين الذين مهدوا لنشأة علم التشريح ، وفيساليوس ١٥٦٤ وكوبر نيكوس ١٥٤٣ ولم يكن هؤلاء من أهل العلم الأصلى

فى أول مرصد عرفته أوربا ، وتلميذه كبلر ١٦٣٠ Kepler الذى استغل ملاحظاته فى تحديد مدار المريخ حتى توصل بعد تسع سنين إلى المدار البيضى وشرع فى وضع قوانينه ، وجاليليو ١٦٤٢ Galileo الذى أتم علمياً رأى كوبرنيكوس ١٥٤٣ Copernicus فى القول بدوران الأرض ، واختراع المقرب (التلسكوب Telescope) وكان فجر النهضة العلمية الحديثة ، وكان أول رائد حديث شغف بالرياضيات واعتبرها أداة العلوم الفيزيائية . . وغير هؤلاء

بل تقول فى التدليل على خطأ الذين يستخفون بالأدب ويعتبرونه مضيعة للوقت . إن الفلسفة تقوم أصلا على منطق العقل ، وتستبعد العاطفة والخيال ، وتهتم بالتجريد فتصعد من المحسوس إلى المعقول المجرد ومع ذلك فإن الناظر فى تاريخها ، قديمه وحديثه ، لا يملك إلا أن يقول إنها استعانت بالأدب ، شعره ونثره ، فى التعبير عن أعمق الأفكار وأدق المعانى .

فالفلسفة منذ أيام أفلاطون — أى منذ نحو أربعة وعشرين قرناً من الزمان — حتى يومنا هذا لم تستعن فى فترة من حياتها عن الخيال أو تتخلى عن الشعر . . . فمن قديم الزمان أدرك حكماء البشرية أن الحقيقة كثيراً ما تختفى وراء الأساطير والخرافات والأقاصيص والحكم الشعبية ، ولهذا قيل إن الفيلسوف مهما حاول أن يجعل عقله حكماً فى كل قضية تعرض له ، أو أن يعد فلسفته مجرد أنظار عقلية أو حكمة تمتاز بالدقة فإنه يجد نفسه محمولا على أجنحة الخيال إلى عالم تختلط فيه الحقيقة بالشعر ، ويمتزج فيه الواقع بالخيال .

وحديثا عبر الوجوديون عن المواقف الميتافيزيقية بالأسلوب الروائى ، فكانت الروايات والقصص والمسرحيات عندهم هى التعبير الحى عن تجارب الإنسان بوصفه موجودا ميتافيزيقيا ، والحقيقة عندهم لا تدرك بالعقل وحده ، ولهذا يعبرون عن الواقع كما يتكشف لهم خلال العلاقة بين الإنسان والعالم ، وهى فعل وعاطفة قبل أن تكون فكرا وتصورا كما تقول « سيمون دى بوفوار » ، ومن ثم أصبحت الرواية غير دخيلة على الفلسفة ، بل تعبيرا حيا عن المواقف الميتافيزيقية ، وبها تنكشف علاقة الإنسان بالعالم وبالآخرين .

ومن الفلاسفة المحدثين من كان يقدر الشعراء حق قدرهم ، وفى مقدمة هؤلاء

« برجسون » ١٩٤١ وكان هو نفسه من خيرة الكتاب المحدثين فى الفلسفة ، بل كان من الفلاسفة أدباء ، ومن الأدباء فلاسفة ، فكان كير كجار ١٨٥٥ Kierkegaard ونيتشه ١٩٠٠ Nietzsche والوجوديون المعاصرون من أمثال سارتر ١٩٨٠ وسيمون دى بوفوار يعبرون عن أفكارهم الفلسفية فى روايات ومسرحيات وأفلام سينمائية ، بل رأى الفليسوف الإنجليزى هويتهيد ١٩٤٧ A. N. Whitehead الالتجاء إلى الشعراء بين الحين والحين تيسيرا للتعبير عن بعض الأفكار الفلسفية العميقة .

وإذا كان هذا هو شأن الفلسفة مع الأدب ، فإن الأدب بدوره قد احتل فى فرنسا إبان السنتين سنة الأخيرة مجال الفلسفة ، ولا أدل على هذا مما نراه فى إنتاج الأدباء من مسرحيات وروايات وأشعار ومقالات . شغلت مجالات فلسفية عند أمثال بلزاك ١٨٥٠ وفكتور هوجو ١٨٨٥ V. Hugo وبول فاليرى ١٩٤٦ . ومع هذا فإن الأدباء يجأرون بالشكوى من " تطفل الفلسفة على موائد الأدب ، واحتلالها لأرضه على غير إرادته . ربما كان السبب فى ذلك شيوع الفلسفة فى فرنسا واتساع جمهورها بعد الحرب العالمية الثانية ، بدليل كثرة المجلات الفلسفية وتعدد الندوات الأدبية والفكرية إلى حد أن أصبحت الفلسفة حديث الناس فى الطرقات والملاهى والحوانيت ، ولعل مرجع ذلك إلى أن الفلاسفة قد ارتدوا إلى الاهتمام بدراسة الإنسان ، وهو موضوع الأدب المعاصر .

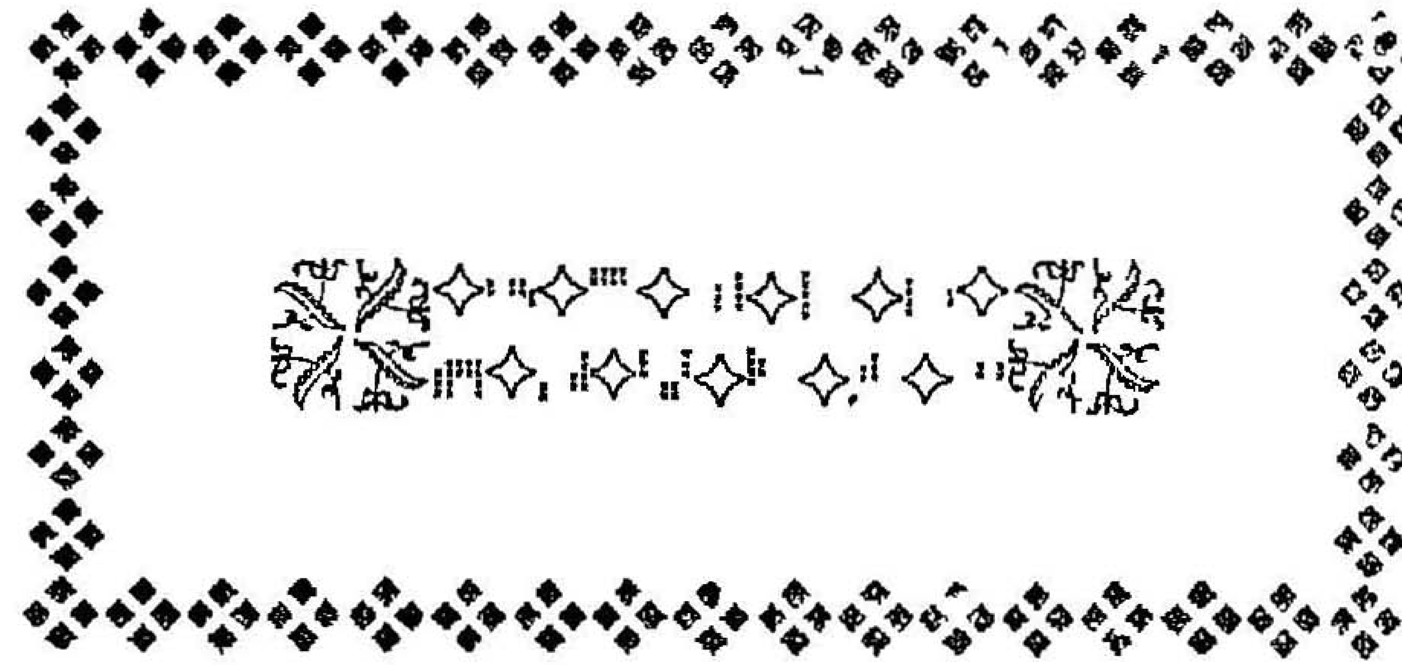
وإذا كان من الأدباء المعاصرين من يحتج على غزو الفلسفة لأرض الأدب ، فإن من الفلاسفة المعاصرين من يهاجم الخلط بين الفن والفلسفة ، فمن ذلك أن بعض أصحاب الوضعية المنطقية يندون بدعاة الميتافيزيقا الذين يمزجون الفلسفة بالفن ، ويتهمون مذاهبهم بأنها خاوية من الحقيقة ، لأن هؤلاء الوضعيين المنطقيين يرون أن وظيفة الفلسفة تقوم فى تحليل الألفاظ والعبارات تحليلا منطقيا ، فى ضوء ما سموه بمبدأ التحقق Principle of Verification ومؤداه أن كل لفظ لا يكون له مدلول حسى فى الواقع ، يكون فارغا من المعنى ، وبهذا رأوا أن المحسوس هو وحده الذى يحمل معنى ، وبهذا المعيار استبعدوا من مجالات البحث : الميتافيزيقا والعلوم الفلسفية المعيارية والفنون على اختلاف أشكالها ، وقالوا إن الميتافيزيقا تبحث فى المجردات دون المحسوسات ، وأنها عمل فنى لا يستقرئ الواقع ، بل يقوم على الخيال ، وأصحابها – فى رأيهم –

شعراء قد ضلوا سبيلهم وراحوا يقدمون قصائد من نسج الخيال . . . فداهيهم الميتافيزيقية ملاحم شعريه تعبر عن إحساس أصحابها بالوجود والحياة ، بل جاهر رودلف كارنب ١٩٧٠ Carnap بأن الموسيقى ربما كانت أقدر من فلسفتهم على تأدية هذه الوظيفه لأنها مجردة من كل عنصر موضوعى ، فالميتافيزيقيون فى هذه العصور موسيقيون عدموا كل موهبه موسيقيه. إلى آخر ما رآه فى كتابه عن العلم والميتافيزيقا مع أن الفلسفة فى حقيقة أمرها تستهدف الكشف عن الحقيقة وليس التعبير عن الجمال ، ومعيارها هو الصدق المنطقى ، لا الحسن وبراعة التعبير عن الأحاسيس.

حسبنا هذا بيانا لأهم الفروق الصخمة التى تميز بين لغة الأدب ولغة العلم ، وقد بدا لنا من خلالها أن التعارض بينهما كان يبلغ حد التناقص فى أكبر الحالات .

شكرا والسلام عليكم ورحمة الله بركاته

توفيق الطويل
عضو المجمع



مرّ السنين

قصيدة للدكتور حسن على إبراهيم

الوليد ترى ماذا يروعه ؟ ولم تسيل على الخدين أدمعه
أهاله صرف دهر ليس يعلمه ؟ أو هل تبدى له فى الأفق مصرعه
وغادر المهد وثابا وفارقــه   وصدر أم رؤوم كان يرضعه
سرعان مادب فى درب الحياة فتى   إن الطريق طويل سوف يذرعه
إن الشباب نعيم لا يحس به   بل إنه فى مسار العمر أينعــه
قد غره طيب عيش بات يغمره   وعنفوان شباب طل يخدعه
ما كان يحسب أن الدهر مرصده   وأن ثوب شباب سوف ينزعه
سباحة الميل ما كانت لتزهقه   وفرسخ الجرى سهل حين يزمعه
خاض الملاعب جبارًا يُدان له   ما من غريم وإلا كان يصرعه
ومارس الطب جراحاً وهام به   وكم تجول فى الأجسام مبضعه
خاض الغرام فتيا فاتكا شرهاً   ما من ضمير ونصح كان يردعه
تبدل الحال ما قد كان يولعه   بالأمس أصبح فى دا اليوم يفزعه
لم الوصال وقد زالت دواعه   ما كان يدفعه للوصل يمنعه
ماذا دهاه دبيب الشيب حل به   وخط المشيب بفود صار يبذعه

(*) ألقيت القصيدة فى الجلسة السادسة ٤ / ٥ / ١٩٨٥ م .

ماذا يريد من الدنيا وقد ذهبت — وهل شباب تولى سوف ترجعه

هل الطعام غدا صعبا تَلَوُّكه — لايستساغ أم الأَسنان توجعه

إن الضروس هى البلوى ليخلعها — فالضرس أصبح بعد الضرس يقلعه

قال الطبيب لكى تهدا مخاوفه — لكل سن بديل سوف أصنعه

اعتاض عنها بأَسنان تضايقه — أَيصنع الخلق مالخلاق مبدعه

والأَكل صار قليل منه يتخمه — وكان كل طعام ليس يشبعه

وسلم كان يجرى فى مصاعده — واليوم صار بشق النفس يطلعه

هل زاد ميل خطى قد كان يصعدها — أم هل علا درج بل كاد يوقعه

هذى العصا يشتريها كى تساعده — فساقه اليوم كانت ليس تدفعه

قد كان يسمع همس الريح عابرة — واليوم رعد دوى ما كاد يسمعه

كانت ذراعاه للأَثقال حاملة — واليوم ناءت بحمل الريش أذرعه

فالشتاء أتى بالبرد قارسه — ولم يكن فى قديم العهد يلدعه

كم سار فيه أسم الرأس حاسره — واليوم يبقى بعقر الدار يقبعه

والصيف هل زاد حرًّا كى ينو به — وكان يبهجه فى القيظ شعشعه

خيانة الناس والدنيا تؤرقه — يضيق صدرٌ بها والهم يوسعه

أين الأَحبة والأَتراب قد ذهبوا — من فرق الشمل يوماً هل سيجمعه

تعود الفقد والأَحباب قد دفنوا — فصار فَقْدُ قريب ليس يدمعه

ما ضاق بالخطب مهما ناء كلكله — والآن صار أقل الخطب يصرعه

كم نام نوماً عميقاً لاتؤرقه — رؤى تحيق ولا الأَفكار تحرعه

قد فارق النوم جفنيه وأسهده — ليل طويل قليل منه يهجعه

ما حرب الهم إلا هم نزوته — واليوم صار مصير الكون يفزعه

قد كان ينظر للدنيا وفتنتها — واليوم أصبح للأُخرى تطلعه

صدر يجيش بآمال وأخيلـــه ... واليوم ضاقت بصرف الدهر أضلعه
رؤى من الأمل المعسول ترفعه ... فكان فوق مسار النجم مطمعه
زالت أمانٍ كبارٌ كان ينشدها ... فاليوم صار أديم الأرض يقنعه
هذى المفاصل كم لانت ولم صلبت ... سير الزمان على عظم يصعضعه
تقوس الظهر وارتجت مفاصله ... وضاق من ألم فيها يروعه
هذى العويسات ما مرت بخاطره ... يعيرها اليوم خطٌّ ليس يقشعه
مارجفة فيه لو أن الدُّنيا ارتعشت ... واليوم ارتجفت فى الخط أصبعه
خانته ذاكرة كانت توآزره ... فكل ما مر فيها كان يرجعه
كل الحوادث حتى كل ما قربت ... تبخرت ومضت كالثوب يخلعه
ما عاد يذكر شيئاً كان يقرؤُه ... بالأمس سهواً وصار السهو يتبعه
عانى السعال وسهدا هز مضجعه ... وكل ماهز نبضا صار يسرعه
ناءت وناء بها أحمال أدويــة ... تخفف داءً كطودٍ بات يرفعه
إن الحياة مضت والموت مقترب ... كأْس المنية دانٍ سوف يجرعه
قالوا المشيب جميل فى رزانته ... وأنه فى طريق العمر أمتعـــه
تجمع العلم فيه والنهى رجحت ... وكل أمر أتاه صار يبدعــه
إن خر ركن الصبا فالعلم يَسْنِده ... ما هدَّه السن إن العلم يرفعه
تجمعت خبرة الأيام واكتملت ... فيه المعارف فهى اليوم تُلْمعه
فيه الحجى تَمّ واشتدت قوائمه ... وطول تجربة فى العمر تنفعه
ماذا يفيد ذرى علم وتجربة ... يغدو تراباً ببطن الأرض موضعه
وأى جـــدوى لعلم لا توآزره ... قوى الصبا وشباب ليس يدفعه
عانى من الشيب أهوالاً منغِّصَةً ... لو أن للشيب أنفاً كان يجدعه
مَتِّع شبابك بالدنيـــا وأنعمها ... فإن كل نعيم سوف تُمْنعـــه
أقول للناس عيشوا قدر طاقتكم ... مع الشباب وَقَوْلِى من سيسمعه

من كناشة النوادر

للأستاذ عبد السلام هارون

(٦)

الكرم الحاتمى :

عبارة خالدة امتدت عبر التاريخ من عصر المثل السائر : « أجود من حاتم »

إن أجواد العرب كثيرون ، تكفل صاحب العقد بسرد أخبارهم فى تفصيل ، وجعلهم فريقين فريق فى ظلال الجاهلية ، وفريق فى نور الإسلام . أما أهل الجاهلية فيشير صاحب العقد[1] إليهم قائلا : الذين انتهى إليهم الجود فى الجاهلية ثلاثة نفر : حاتم بن عبد الله الطائى ، وهرم بن سنان المرى ، وكعب ابن مامة الإيادى

وأما أجواد أهل الإسلام[2] فأحد عشر رجلا فى عصر واحد لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم فمن الحجاز ظهر عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص ، ثلاثة ، وخمسة معهم من أجواد البصرة عبد الله بن عامر بن كريز ، وعبيد الله بن أبى بكرة مولى رسول الله ، ومسلم ابن زياد ، وعبيد الله بن معمر القرشى ، وطلحة الطلحات الذى يقول له الشاعر :

نضّر الله أعظما دفنوها
بسجستان طلحة الطلحات

وثلاثة من أهل الكوفة . عتاب بن ورقاء الرياحى ، وأسماء بن خارجة الفزارى ، وعكرمة بن ربعى الفياض .

ورسم صاحب العقد لكل من هؤلاء صوراً رائعة من الجود والسماحة والندى تنبئ عن طيب العنصر العربى فى جاهليته وإسلامه ثم ألحق بكل أولئك طبقة ثانية من أجواد الإسلام تتمثل فى الحكم بن حنطب الذى كان والياً على منبج فقال رجل من أهلها : قدم علينا الحكم وهو مملق فقير فأغنانا وأثرانا فقيل له كيف أغناكم وهو فقير ؟ قال : علمنا المكارم فعاد غنينا على فقيرنا . يعنى ما كان فيه من فتوة وإعطاء .

(*) ألقيت فى يوم الاثنين ١٣ من جمادى الثانية سنة ١٤٠٥ هـ ٥ من مارس سنة ١٩١٥ .

(١) العقد ١ : ٢٨٧ .

(٢) العقد ١ : ٢٩٣ .

ومن رجال هذه الطبقة الثانية : معن بن زائدة الذى قيل فيه : «حدث عن البحر ولا حرج ،وحدث عن معن ولا حرج » . ومنهم كذلك . يزيد بن المهلب، الذى مر فى طريقه إلى البصرة بأعرابية فأهدت إليه عنزاً فقبلها وقال لابنه معاوية بن يزيد : ما عندك من نفقة ؟ قال . ثمانمائة درهم . قال ادفعها إليها . قال . إنها لاتعرفك ويرضيها اليسير . قال : إن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى . وإن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى لها إلا بالكثير .

ومنهم (١) يزيد بن حاتم الأزدى الذى قال الشاعر بينه وبين يزيد آخر ، وهو يزيد بن أسيد القيسى ، فى جود الأول وشح الثانى فقال

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى

يزيد سليم والأغر ابن حاتم

فهم الفتى الأزدى إتلاف ماله

وهم الفتى القيسى جمع الدراهم

ومنهم كذلك أبو دلف ، ومعن بن زائدة . وخالد بن عبد الله القسرى ، وعدى بن حاتم الطائى الذى قال فيه الشاعر

أبوك جواد لا يشق غباره

وأنت جواد ما تعذر بالعلل

ولا ريب أن رأس هؤلاء جميعا حاتم الطائى ، الذى نشأ فى بيت كله شهامة وكرم كانت أمه ذات يسار ، وكانت من أسخى الناس وأقراهم لضيف ، وكانت لا تمسك شيئا تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها ذلك حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، فمكثت دهرا لا يدفع إليها شىء منه ، حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها صرمة من إبلها ، أى قطيعا . فجاءتها إمرأة من هوازن كانت تأتيها فى كل سنة تسألها ، فقالت لها . دونك هذه الصرمة فخذيها ، فوالله لقد عضنى من الجوع ما لا أمنع معه سائلا .

هذه أمه أما بنته سفانة بنت حاتم فيقول أبو الفرج(٢) كانت من أجود نساء العرب . وكان أبوها يعطيها الصدقة بعد الصدقة من إبله فتنهبها وتعطيها الناس .

ولعل أعجب صوره حفظها التاريخ من صور كرمه مارواه أبو الفرج عند حدوث مجاعة بالبادية أذهبت الخف والظلف ، وجاءته إمرأة تشكو جوع صبيانها ، ولم يكن عنده ما يجود به ، فماذا يصنع ؟ قام حاتم إلى فرسه فذبحها ، ثم أوقد النار وأججها ، ودفع إلى المرأة شفرة حادة وقال لها . اشتوى وكلى ثم جعل يأتى بيوت الحى ويقول انهضوا ، عليكم بالنار . فاجتمعوا حول تلك الفرس وجلس ناحية ، يقول أبو الفرج . فما أصبحوا ومن الفرس قليل ولا كثير

---

(١) العقد ١١ ٣٠٢

(٢) الأغانى ١٦ ٩٣

(٣) الأغانى ١٦ . ٩٤ .

إلى عظم وحافر ، وإنه لأشد جوعاً منهم وما ذاقه .

هذه الصورة العظيمة من الإيثار مع الخصاصة هي التي خلدت ذكر حاتم ورفعته مكانا بين العرب عليا ، ولكن هل يسلم الشرف الرفيع من الأذى ؟

لقد لقى حاتم من شعراء عصره من يهجوه أقذع الهجاء ، ويقول فيه [1] :

لعمرى وما عمرى على بهين
لبئس الفتى المدعو بالليل حاتم
غداة أتى كالثور أحرج فاتقى
بجبهته أقتاله وهو قائم

كأن بصحراء العبيط نعامة
تبادرها جنح الظلام نعائم
أعارتك رجليها وهادى لبهـا
وقد جردت بيض المتون صوارم

جعله كالثور الحائر وقد أحيط به فلم يحر حراكا ، كما شبهه بالنعامة الشاردة الحمقاء وهذا غاية في الهجو .

وهجاه شاعر آخر بأنه لا يصنع المعروف ولا يستعمله ، وأنه بعيد كل البعد عن البر والإحسان فقال :

لعمرى وما عمرى على بهين
لقد ساءنى طورين في الشعر حاتم

أيقظان في بغضائنا وهجائنا
وأنت عن المعروف والبر نائم

وهكذا لا يستطيع امرؤ مهما بلغ قدره أن يلقى إجماعا على اعتراف الناس له بالفضل

ومن ذا الذى ترجى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

بر الأبناء :

هذا خالد بن عبد الله القسرى يضرب مثلا رائعا من أمثلة سماحة الإسلام الذى لا يكره أحداً على الدخول فيه « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وهناك أمر آخر حرص الإسلام عليه أشد الحرص ودعا إليه فى إيجاب محكم . « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » والأم الوالدة أحق الناس بحسن الرعاية وكريم الحنان .

ومن هذا المنطلق رأى خالد بن عبد الله القسرى ، وهو أمير الكوفة أن يبنى لأمه — وكانت نصرانية — بيعة تتعبد فيها هى ومن على نحلتها من المسيحيين

وقد وجدت هذا النص النادر فى معجم البلدان لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ [1] عند الكلام على (بيعة خالد) قال . منسوبة إلى خالد بن عبد الله القسرى ، كان بناها

---

(١) معجم البلدان ٢ . ٣٣٩ .

لأمه وكانت نصرانية ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص ، وذلك لتعمير هذه البقعة

ثم وجدت أبا الفرج الأصبهاني [1] السابق لياقوت بنحو ثلاثة قرون، يذكر هذا الخبر أيضا ويقول : إن أم خالد كانت رومية نصرانية ، فبنى لها كنيسة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة .

وفي تاريخ الطبري في عدة مواضع أنه كان يقال لخالد بن عبد الله القسري هذا : «ابن النصرانية» ولكنه مع هذا التعمير السابق لم يستطع عقوق أمه أو طرح البر بها ، بل مكنها كما مكن المسيحيون في صدر الإسلام السمحة من اداء شعائرهم الدينية

عيد الغطاس :

لعل أقدم من أجرى له ذكرا هو المؤرخ الجغرافي القديم أبو الحسن المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب [3]

والغطاس عيد من أعياد النصارى في مصر يقول المسعودي «وأهل مصر يسهرون بضفاف النيل في هذا الوقت . وفيه يختزن المياه أهل تنيس ، ودمياط ، وتونة [4]، وسائر قرى البحيرة ويسوق المسعودي تصويرا لما كان يجري في ليلة الغطاس فيقول «ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها ، وهي لليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والإخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو آلاف من الناس من المسلمين والنصارى من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي . والعزف والقصف . وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل . ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء.

ويأتي من بعده أحمد بن علي القلقشندي القاهري المتوفى سنة ٨٢١ فيذكر أن أعياد القبط المشهورة أربعة عشر عيدا [5]. وهي على

---

(١) الأغاني ١٩ ، ٥٩

(٢) الطبري ٦ ، ٩٠ و ١٠١ ، ١٥١ ، ٥٣٣ .

(٣) مروج الذهب ١ ، ٣٤٣

(٤) تونة بلدة جزيرة قرب تنيس ودمياط من الديار المصرية ، يضرب المثل بحسن معمول ثيابها وطرازها لها عمل فوت وأما البحيرة فهي تسمية قديمة جدا ، وياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ يسميها بحيرة الإسكندرية ويقول ليست بحيرة ماء ، إنما هي كورة معروفة من نواحي الإسكندرية بمصر تشتمل على قرى كثيرة ودخل واسع .

(٥) صبح الأعشى ٤ ، ٤٢٥ - ٤٢٦

ضربين : صغار وكبار ، ويجعل خاتمة الأعياد الكبار عيد الغطاس ، يقول . ويعملونه فى الحادى عشر من طوبة من شهور القبط ثم يذكر أن أصل هذا العيد أمر دينى . وهو أن يحيى بن زكريا عليه السلام ، ويعتونه بالمعمدان ، غسل عيسى عليه السلام ببحيرة الأردن . وأن عيسى لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة والنصارى يغمسون أولادهم فيه فى الماء مع أنه يقع فى شدة البرد .

ويقول القلقشندى بعد ذلك إلا أن عقبه حمى الوقت — أى تظهر حرارة الجو يقول المصريون غطستم صيفتم ، ونورزتم شتيتم». ومن المعروف أن عيد النيروز يكون فى شهر توت من أول السنة القبطية .

ويأتى من بعدهما شهاب الدين أحمد الحموى المتوفى سنة ١٠٩٨ فى كتابه «عجائب المخلوقات» وهو غير صاحب «عجائب المخلوقات» المعروف بالقزوينى والمتوفى سنة ٦٨٢ فيذكر نحوا مما ذكر القلقشندى . ويتولى نقله من بعد ذلك العلامة الآلوسى فى بلوغ الأرب[1] معزوا إليه

المسلم القبطى :

هذا هو أبو عمرو عبد الملك بن عمير بن سويد اللخمى الكوفى القبطى الفرسى . كان قاضيا على الكوفة بعد الشعبى يذكرون أنه رأى على بن أبى طالب . وروى عن جابر بن عبد الله . ويروى ابن خلكان[2] أنه قد عمر حتى بلغ عمره مائة سنة وثلاث سنوات .

وروى ابن خلكان عنه أنه قال : كنت عند عبد الملك بن مروان بقصر الكوفة حين جيء برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه . فرآنى قد ارتعدت . فقال لى : مالك ؟ فقلت أعيذك بالله يا أمير المؤمنين . كنت بهذا القصر بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن على بن أبى طالب بين يديه فى هذا المكان ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه . ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك . قال فقام عبد الملك من موضعه وأمر بهدم ذلك الطاق الذى كنا فيه[3]

ثم يقول ابن خلكان والقبطى بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وكسر الطاء المهملة ، هذه النسبة إلى ا . وهو فرس

---

(١) بلوغ الأرب ٢ . ٣٥٨ .

(٢) وفيات ١٩٠٠ - ٢٨٦

(٣) الطاق : ما عطف من الأبنية ، وعقد البناء حيث كان . والجمع طاقات وأطواق وطيقان .

سابق كان له فنسب إليه والفرسي نسبة إلى هذا الفرس أيضا وأكثر الناس يصحفه بالقرشي .

وقد ذكر القرسي في كتاب المشتبه (1) ، وقال «كان له فرس يقال له القبطي فعرف بفرسه» وفي حواشي المشتبه عن ابن ناصر الدين محمد بن أبي بكر القيسي «ومنهم جبر بن عبد الله القبطي ، مولى بني غفار ، وقد رسولا من المقوقس بمارية القبطية إلى رسول الله ﷺ قال سعيد بن عفير فالقبط تفتخر بجبر هذا الذي توفي سنه ٦٣» ومنهم أبو رافع القبطي مولى رسول الله ﷺ فهاتان النسبتان الأخيرتان إذن لم تكونا نسبة دينية ، بل نسبة إلى العنصر المصري الذي كان يسميه العرب بالقبط في ذلك الزمان القديم

تحقيق عسكري :

لاحظ المسعودي . وهو يقرأ كتب المغازي والسير أن المؤرخين يختلفون في عدد الغزوات والسرايا والسوارب والبعوث ، فعدها بعضهم ثلاثا وسبعين ، وبعضهم ستا وستين ، وبعضهم ستا وستين . وبعضهم نيفا وخمسين وأن محمد بن إسحاق جعلها خمسا وثلاثين والواقدي ثماني وأربعين والمسعودي محقق . وقد عزا ذلك الخلاف إلى أن منهم من يعتد بسرايا لا يعتد بها آخرون لأن بعض السرايا كان يطلق من بعض المغازي . فيفردها بعضهم . وجعلها البعض الآخر في جملة المغازي .

ثم ذكر أن الضابط الحق الذي اعتمده ذوو المعرفة بسياسة الحروب وتدبير العساكر والجيوش ومقاديرها وسماتها أن السرايا ما بين الثلاثة إلى الخمسمائة ، وهي التي تخرج بالليل . فأما التي تخرج بالنهار فهي السوارب . من قوله تعالى «من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار» . فالذين كثروا العدد ضموا السوارب إلى السرايا .

ثم يقول : وما زاد على الخمسمائة إلى دون الثمانمائة فهي المناسر . وما بلغ الثمانمائة فهو جيش . وما زاد على الثمانمائة إلى دون الألف فهو الخشخاش وما بلغ الألف فهو الجيش الأرلم ، وما بلغ الأربعة آلاف فهو الجيش الجحفل ، وما بلغ اثني عشر ألفا فهو الجيش الجرار . وإذا افترقت السرايا والسوارب بعد خروجها فما كان دون الأربعين فهي الجرائد ، وما كان من الأربعين إلى دون الثلاثمائة فهي المقانب . وما كان من الثلاثمائة إلى دون الخمسمائة فهي الجمرات وكانوا يسمون الأربعين رجلا إذا وجهوا العصبة .

ثم يقول «ويقول الناس فيما ذكرنا كلاما كثيرا . وقد ذكرنا من ذلك أفضل ما قيل وأوجزه (2) .

---

(1) المشتبه ١ ٢٨٦

(2) التنبيه والإشراف للمسعودي ٢٤٢ – ٢٤٤ .

حساب العقد :

يقول الجاحظ في حصره لأنواع الدلالات على المعاني، في كتاب البيان والتبيين[1]. «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد. أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات»

ويقول أيضا في تفسير النصبة[2]: إنها الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق. ومثل الجاحظ لذلك بالإسكندر الذي قام أحد الخطباء يؤبنه وقد قام الخطيب على سريره وهو مسجى، يقول: «الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس». فكأنه نطق بأن كل حي إلى فناء.

وكما نلحظ أنه جعل أنواع الدلالات في كتاب الحيوان[3] أربع دلالات فقط: لفظ، وخط، وعقد، وإشارة فأغفل ذكر النصبة هذه. وليس بين النصين تناقض، فإن الجاحظ وإن لم ينص في الحيوان عليها نصا صريحا، فإنه جاء بها في ختام هذا التقسيم ضمنا، إذ يقول بعد كلام طويل: «والأجسام الخرس الصامتة، ناطقة من جهة الدلالة ومعربة من جهة صحة الشهادة، كما خبر الهزال والكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال».

ويقول: «فمن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز في اللغة، وشاهد في العقل».

وبذلك يرتفع الخلاف بين هذين النصين

الذي يعنينا من هذا كله كلمة «العقد» الذي جعله الجاحظ ضرباً من ضروب الدلالة. وهو استعمال قديم جدا ترجع جذوره إلى عهود الجاهلية الأولى.

والعقد: نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له «حساب اليد». وهو طريقة حسابية إشارية كان العرب يستعملونها، يعبرون بها عن العدد ولا سيما عند المساومة على البيع.

وقد ورد في صحيح البخاري[4] من حديث سفيان بن عيينة يسوق السند إلى أم المؤمنين زينب بنت جحش، قالت

---

(١) البيان ١ : ٧٦.

(٢) البيان ١ : ٨١.

(٣) الحيوان ١ : ٣٣ - ٣٥

(٤) الألف المختارة، الحديث ٨٩٦.

«استيقظ النبي ﷺ من النوم محمرا وجهه يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب ، من شر قد اقترب . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه . وعقد سفيان تسعين أو مائة »

وقد فسر شراح الحديث عقد التسعين بأن يجعل الرجل طرف إصبعه السبابة اليمنى في أصلها ، ويضمها ضما محكما بحيث تنطوى عقدها حتى تصير كالحية المطوية وأن عقد المائة مثل عقد التسعين لكن بالخنصر اليمنى

وأقول أيضا إن استعمال العقد في الحساب لا يزال مستعملا عند العرب ، بل عند الشعوب قاطبة ، حيث تستعمل أصابع اليدين العشر في الدلالة على العدد ، فثنى الأصابع واحدة إثر أخرى بدءا بالإبهام أو الخنصر في إحدى اليدين .

لكن العقد عند العرب عقد له نظام متقن معقد يقول فيه البغدادى[1] « وقد ألفوا فيه كتبا وأراجيز منها أرجوزة أبى الحسن بن على ، الشهير بابن المغربى وقد شرحهما عبد القادر بن على بن شعبان العوفى ، منها في عقد الثلاثين :

واضممهما عند الثلاثين ترى
كقابض الإبرة من فوق الثرى

قال شارح الأرجوزة « أشار إلى أن الثلاثين تحصل بوضع إبهامك إلى طرف السبابة ، أى جمع طرفيهما كقابض الإبرة » .

ومن شواهد العقد في مأثور الأدب ما روى المرزبانى في الموشح[2] من أن نصيبا استنشد الكميت من شعره فاستمع له ، فكان فيما أنشده .

وقد رأينا بها حورا منعمة
بيضا تكامل فيها الدل والشنب

وأن نصيبا ثنى خنصره وفى روايه أخرى فعقد نصيب بيده واحداً ، فقال له الكميت ما تصنع ؟ قال أحصى خطأك . تباعدت في قولك . « تكامل فيها الدل والشنب » هلا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعس
وفى اللثات وفى أنيابها شنب

وهذا النص يشير إلى أن العرب كانوا يشيرون إلى الواحد بثنى الخنصر وهو أصغر الأصابع ومن ذلك قول العرب : فلان تثنى عليه الخناصر ، أى هو واحد دهره وفريد عصره

أخبركم فلان ، وحدثكم فلان :

المألوف في عبارات المحدثين عند الروايه أن يقول الراوى حدثنا فلان ، أو أخبرنا ، أو أنبأنا . وذلك حين يسمع الحديث من الشيخ ومعه غيره من طلاب الحديث . وأن يقول : حدثنى أو خبرنى ، أو أنبأنى إذا انفرد الراوى بالسماع من الشيخ . لكننا

(١) الخزانة ٧ : ٥٣٨

(٢) الموشح للمرزبانى ١٩٣ ، ١٩٤ أولى و ٣٠٤ ، ٣٠٥ ثانية

نجد في بعض عناصر الرواية مبدأ غريبا يتضمن التعريق بين أخبرنا وحدثنا ، وأن أول من أحدث الفرق بين هذين اللفظين هو ابن وهب محدث مصر . فعبارة حدثنا تقتضى أن الشيخ نطق بلفظ الحديث وأن الطالب قد سمعه منه . وأما أخبرنا فتقوم مقام قول القائل . «أنا قرأته عليه» لا أنه لفظ به لي .

ونجد نصا غريبا آخر ، وهو التفرقة بين أخبركم فلان أو حدثكم فلان . وهذه إنما تتأتى حين يحكى الطالب عند قراءته على الشيخ كتابا مسندا كصحيح البخارى من رواية معينة ، كرواية الفربرى فإذا قرأ الطالب ما أمامه في الكتاب فماذا يقول حين يترجمت ؟ لا بد على هذا أنه يقول : أخبركم أو حدثكم الفربرى ، لأن الطالب لم يخبره الفربرى ولم يحدثه

ومن المبالغة في الدقة في هذا ما وجدته في مقدمة ابن الصلاح عند الكلام على أقسام طرق نقل الحديث[1] من حكاية عن أبي حاتم الهروى أحد رؤساء أهل الحديث بخراسان ، أنه قرأ على بعض الشيوخ عن الفربرى صحيح البخارى ، وكان الشيخ يقول له في بدء كل حديث : « حدثكم الفربرى » فلما فرغ من الكتاب سمع الشيخ يذكر أنه إنما سمع الكتاب من الفربرى قراءة عليه ، أى إن الشيخ لم يسمع لفظ شيخه ، بل سمع لفظ القارئ عليه . فما كان من أبي حاتم الهروى المتزمت إلا أن أعاد قراءة صحيح البخارى كله على ذلك الشيخ مرة أخرى وكان هذه المرة يقول في بدء كل حديث : أخبركم الفربرى .

وقد وجدت تطبيقا لهذا في الجزء الأول من تفسير الطبرى : قال أبو جعفر إن سألنا سائل فقال إنك ذكرت أنه غير جائز أن يخاطب الله تعالى ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهم ، وأن يرسل إليه رسالة إلا باللسان الذي يفهمه . قال أنت قائل فيما حدثكم به محمد بن حميد الأزدى ، قال حدثنا حكام بن مسلم قال حدثنا عنبسة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن أبي موسى ، وفيما حدثكم به . . وفيما حدثكم به . . . يكرر هذا ثلاث مرات

ثم يقول . قال أبو جعفر وكل ما قلنا في هذا الكتاب حدثكم فقد حدثونا به .

ومهما يكن من أمر فإنها صنعة نادرة في الحديث ، يصعب الحصول عليها في كتب

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٥٥

(٢) تفسير الطبرى ١ ١٣

الحديث والآثار وهى مطهر من مظاهر الدقة الصارمة فى رواية الحديث .

الشيراز والشواريز :

ترد هاتان الكلمتان فى كثير من المخطوطات محرفتين على وجوه شتى ، فيقال شبراز وشبراد وشوارير وشوانيز وغير ذلك

والحق أن صواب الكلمة الأولى . « شيرار » ، وهو نوع من الجبن المأكول . وقد يظن أن الكلمة فارسية لأنها لم ترد فى معاجم اللغة العربية ، ولكن المعاجم الفارسية ومنها معجم استينجاس[1] تذكر الكلمة مقرونة بالرمز A الذى يدل على أن الفارسية أخذتها من العربية ، وبذلك تنتفى نسبتها إلى الفارسية ويثبت أنها من الكلمات الدخيلة على العربية وأن الفرس — بعد ذلك تلقفوها من العربية وقد فسرها استينجاس بقوله : Asort of cheese أى ضرب من الجبن . ووجدت فى كتاب الطبيخ[2] للبغدادى ضرباً من الأطعمة هو شيرار ببقول فيه النعناع والكرفس .

ويروى ياقوت فى معجم البلدان فى رسم (النهروان) قصة ليهودى ساحر أراد أن يدس سما إلى أحد الأكاسرة ، فقدم له عضارة من ذهب[3] فيها شيرار فى غاية الطيب ، وطرح فى الشيراز قرطاسا كان فيه سم ساعة . إلخ . والقصة فيه مطولة

ومن أقدم النصوص التى ورد فيها لفظ الشوارير القصة التى أوردها ابن النديم فى الفهرست[4] . عن أبى بكر بن دريد قال : رأيت رحلا فى الوراقين بالبصرة ، يقرأ كتاب المنطق لابن السكيت ، ويقدم الكوفيين فقلت للرياشى ، وكان قاعدا فى الوراقين ، ما قال — يعنى تقديمه للكوفيين — فقال — والرياشى بصرى — إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء أى الكوفيون أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ[5] والشواريز ، وكلاماً يشبه هذا .

وفاة ابن النديم سنة ٣٨٥ ووفاة الرياشى سنة ٢٥٧

وهذا النص يطلعنا أيضـــا على ظاهرة من ظواهر التعليم ، إذ كانت سوق الوراقين مجالا للتعليم والمدارسة ، يتلاقى فيها الطلاب والشيوخ يخدمون العلم . ولأمر ما نهض العرب الأول بذلك نهضة علمية مباركة .

---

(١) معجم استينجاس ٧٧٣

(٢) الطبيخ لمحمد بن حسن البغدادى المتوفى نحو سنة ٦٢٣ . وعندى منه نسخة مطبوعة نادرة .

(٣) العضارة : وعاء من خزف .

(٤) فهرست ابن النديم ٨٦

(٥) الكامخ . ضرب من الصبغ يؤتدم به ، نحو ما يقال له المستردة .

وهذا مظهر آخر من مظاهر الحرص على الثقافة، وفيه عجب أيضا. يروى السيوطي في البغية[1] في ترجمة محمد بن يوسف الجزري المتوفى سنة ٧١١ أنه كان حسن الصورة مليح الشكل حلو العبارة كريم الأخلاق، ساعيا في حوائج الناس، وأنه نصب نفسه للإقراء، فقرأ عليه المسلمون واليهود والنصارى.

باب الخلق:

تسمية حديثة جدا لهذا الحي من أحياء القاهرة الذي تقوم إلى الآن فيه دار الكتب المصرية القديمة وكان يجري فيه الخليج الذي أقيمت فوقه بعض القناطر، منها قنطرة سنقر، وقنطرة الذكة، وقنطرة الذي كسر

وقد شاهدنا هذا الخليج يابسا قبل أن يردم ويجري فيه الترام، وكان باب الخلق هذا متنزها شعبيا تحترق فيه الرياح، ولعل هذا سبب تسميته بباب الحرق.

وقد استمرت التسمية بباب الحرق بالراء إلى عهد علي مبارك صاحب الخطط التوفيقية المتوفى سنة ١٨٩٣ الذي كتب فيه بحثا طويلا في هذه الخطط وبين حدوده وما تفرع منه من الشوارع والحواري والأزقة، كما ذكر قصور بعض الأعيان الذين كانوا يقطنون في هذا الحي. وقال ابتداؤه من آخر شارع تحت الربع، وانتهاؤه أول شارع غيط العدة بجوار مسجد السلطان شاه.

وأقدم مرجع ذكره بهذه الصورة «باب الحرق» هو الخطط المقريزية لأحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ قال «قنطرة باب الحرق يقال للأرض البعيدة التي تحرقها الريح لاستوائها: الحرق»[2] وهذا تعليل للتسمية. ثم يقول: «وهذه القنطرة على الخليج الكبير كان موضعها ساحلا وموردة للسقائين في أيام الخلفاء الفاطميين. فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب الميدان السلطاني بأرض اللوق، وعمر به المناظر في سنة ٣٦٩ أنشأ هذه القنطرة ليمر عليها إلى الميدان المذكور. وقيل لها قنطرة باب الحرق» وهذا النص يطالعنا أيضا على بدء هذه التسمية التي حرفت من عهد قريب إلى باب الخلق، تأدبا

وفي خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمولى محمد أمين المحبي المتوفى سنة ١١١١ هجرية في ترجمة عبد الله بن محمد المعروف بابن الصبان، أن هذا المترجم ابن الصبان ذكره المناوي في طبقات الأولياء، وقال في ترجمته نشأ وقرأ القرآن عند ابن[4] المناديلي بباب الحرق

وهذا مثال من أمثلة التغيير في أعلام التاريخ، فلولا هذه الوثائق لسار في التاريخ

---

(١) بغية السيوطي ١٢٠

(٢) الخطط التوفيقية ٣ : ٥١ .

(٣) الخطط المقريزية ٢ : ١٤٧

(٤) خلاصة الأثر ٣ : ٦٤ .

أن هذه التسمية الجديدة المحرفة هي التسمية الأصيلة لهذا الحي . ولضاع معالم مهما يكن ضئيل القيمة فإن له قيمة تاريخية حضارية

العبـد اللاوى :

ويسميه العامة في مصر « العبدلاوى » بتشديد اللام . وهو ضرب من البطيخ يقال للأخضر منه في مصر « عجور » وإذا نضج اصفر واكتسب حلاوة ورائحة طيبة . فإلى أى شيء ترتمى هذه النسبة ؟

إن تسميته بذلك قديمة جدا ترجع إلى عهد الوالى العربى عبد الله بن طاهر الخراعى الذى ولى مصر من قبل المأمون سنة ٢١٠ وفيه يقول بعض الشعراء :

يقول أناس إن مصرا بعيدة
وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر

ويقول ابن خلكان(1) : « وذكر الوزير أبو القاسم بن المغربى فى كتاب أدب الخواص إن البطيخ العبدلاوى الموجود بالديار المصرية منسوب إلى عبد الله المذكور » ويقول ابن خلكان أيضا « وهذا النوع من البطيخ لم أره فى شىء من البلاد سوى الديار المصرية » وعال نسبته إليه بقوله «ولعله نسب إليه لأنه كان يستطيبه ، أو أنه أول من زرعه هناك » .

ويذكر الأمير مصطفى الشهابى فى معجمه(2) أن عبد اللاوى هو العبدلى والعبدلاوى على ما ذكره عبد اللطيف البغدادى وغيره »

وقد وجدته برسم (العبدلى) عند داود الأنطاكى فى رسم (البطيخ) ووصفه بأنه بطيخ له عنق طويل يلتوى ، وفى الجهة الأخرى رأس يطول إلى نحو شبر ، والوسط كبير ، أصله من سمرقند ، ويسمى عندنا الشرى ، وبمصر العبدلى

الملوخية :

كلمة لم تعرفها العرب ، ولا جرت على لسانها ، وإنما عرفوا أختها وشقيقتها : « الخبازى » التى تذكر المعاجم أنها بقلة معروفة عريضة الورق .

والملوخية أو الملوكية يعرفها النباتيون وعلماء المفردات الطبية أنها النوع البستانى من الخبازى البرية . ويذكر صاحب المعتمد يوسف بن رسولا صاحب اليمن المتوفى سنة ٦٩٥ أنها التى يسميها أهل الشام : الملوكية(3) . ويقول الأمير مصطفى الشهابى(4)

---

(١) وفيات الأعيان ١ ٢٦٢

(٢) معجم الألفاظ الزراعية ١٧٨

(٣) المعتمد لابن رسولا ص ٣٥٢

(٤) معجم الألفاظ الزراعية ص ١٨٤ .

لعل أصلها ملوكيه بالكاف ، كما ذكر الخفاجي فى شفاء الغليل[1] . ولكن الأرجح أنها من ملوخيون او ملوخي اليونانيتين الدالتين على الخبازى ، وقد انتقل اللفظ إلى السريانية فالعربية .

وفى المعتمد أيضا أنها الملوكية[2] ، وهى ضرب من الخبازى ، واجوده الأخضر العظيم الورق الذى قضبانه إلى الحمره . وذكرها دواد الأنطاكى فى التذكرة فى رسم الخبازى . ووصفها بنحو ما فى المعتمد .

وقد بين تاريخها صاحب شفاء الغليل فقال : « ولم تكن معروفه قديما وحدث بعد سنه ثلثمائه وستين من الهجرة ، وسببها ان المعز بانى القاهرة لما دخل إلى مصر لم يوافقه هواؤها وأصابه يبس فى مزاجه فدبر له الأطباء قانونا من العلاج من هذا الداء فوجد له نفعا عظيما فى التبريد والترطيب وعوفى من مرضه فتبرك بها ، واكثر هو وأتباعه من أكلها ، وسموها ملوكيه ، فحرفتها العامة وقالت . ملوخيا

هـذا ما كان من امر المعز لدين الله الفاطمى .

اما ما هو معروف ويذكره التاريخ للحاكم بأمر الله الفاطمى فإن الحاكم نهى عن بيع الفقاع والملوخيا والترمس والجرجير والسمك الذى لا قشر له ، كما انه منع من بيع العنب ، فى حكايات كثيره يسردها ابن خلكان فى ترجمته . والله أعلم .

الثلج فى مكه فى القديم والحديث :

اما فى الحديث فحدث عن الثلج ولا حرج فقد تكفلت به الكهرباء بوسائلها المختلفه من الأجهزه الحديثه المتعدده. وأما فى القديم فأقدم نص تاريخى هو ما عثرت عليه فى تاريخ الطبرى فى حوادث سنه ١٦٠ من الهجره إذيقول الطبرى : « وفى هذه السنه حمل محمد بن سليمان الثلج للمهدى حتى وافى به مكه ، فكان المهدى اول من حُمل له الثلج إلى مكه من الخلفاء » .

وهذا النص كما نرى نص عقلى ، لم يعيّن فيه الموضع الذى اجتلب منه الثلج ، والمظنون ان يكون من قمم الجبال العاليه القريبه من مكه على مستوى الجزيره العربيه .

وهو يذكرنا بالفكره الحديثه التى كانت المملكه السعوديه قد ارتأتها منذ زمن ليس بالبعيد . ان تسوق بوسائل النقل البحريه الكتل الضخمه من ثلج المحيط الجنوبى ، إلى السعوديه ، لتحيله إلى ماء للارتواء والزرع ولكن وجد بعد الدراسه المستوعبه المستفيضه انها باهظه التكاليف هائله الجدوى ، فعدل عنها .

---

(١) شفاء الغليل الخفاجى ص ١٩٦ .

(٢) المعتمد ص ٣٥٢

بيت عاثر من الشعر القديم :

سألنى عنه بعض الفضلاء فلم أعرف نسبته مع أنه بيت مشهور يتمثل به الكثيرون وقد عثرت على النسبة فى تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ١٥٩ يقول الطبرى : عزل المهدى إسماعيل بن إسماعيل عن الكوفة وولى مكانه إسحاق بن الصباح الكندى بمشورة شريك بن عبد الله قاضى الكوفة ولما أفرد شريك هذا بولاية الكوفة جعل على شرطها إسحاق بن الصباح هذا فلم يقم إسحاق بواجب الشكر لشريك الذى ولاه الشرط . فقال فيه شريك

صلى وصام لدنيا كان يأملها

فقد أصاب ولا صلى ولا صاما

ومن هذا يتضح أن عمر هذا البيت هو على التحديد الآن ١٣٤٦ عاما

بحر العلماء العرب فى خدمة العلم :

ولسنا بحاجة إلى ضرب الأمثال فى ذلك بخدمتهم لعلوم الحديث والتفسير والفقه . والتفريعات التى أجروها فى جميع مجالات الشئون الثقافية ولعل كتب الفتاوى المتعددة الأسماء والضروب وموسوعات الحديث والتفسير والفقه وأصوله ، وأمثلة رائعة فى ذلك لا نجد لها نظيرا أو مثيلا فى ثقافة غيرهم من الأمم ، وعناية أبى الفرج الأصفهانى بتسجيل أصوات الموسيقى فى كتابه الممارع مما يستوجب الدهشة وشديد الإعجاب .

ولأضرب مثلين من براعتهم الفائقة الحد فى عنايتهم بالنحو

أما المثل الأول فإننا نجده فى ترجمة السيوطى للنحوى الحسن بن الوليد القرطبى المعروف بابن العريف النحوى. وبعد أن نقل قول ابن القرطبى أنه كان نحويا مقدما فقيها فى المسائل ،حافظا للرأى ، خرج إلى مصر ورأس فيها ومات سنة ٣٦٧ قال قال : وضع لولد أبى عامر المنصور مسألة فيها من العرب مائتا ألف وجه واثنان وسبعون ألف وجه وثمانية وتسعون وجها أى ٢٧٢٠٩٨ :

أما المثل الثانى فما ورد فى كتاب المغنى لتقى الدين منصور بن فلاح اليمنى الذى فرغ من تأليفه سنة ٦٧٢ وهو ما سماه البحث التاسع فى الرياضة . يعرض نموذجا لتسلسل الأخبار فى نحو قولهم . زيد أبوه أخوه عمه خاله ابنه بنته صهرها جاريته سيدها صديقه قائم . وهو أسلوب صحيح على ما يبدو فيه من الاستكراه ، ولكنه رياضة ذهنية ترفيهية من الممكن أن تعالج بيسر إذا أعيد كتابتها على الورق ، ويقصد بهذا الأسلوب أن صديق سيد جارية صهر بنت ابن خال عم أخى أبى زيد قائم ، وكل منهما أسلوب صحيح واضح وإن كانا يحتاجان إلى معالجة ذهنية تستوجب شيئا من الذكاء .

ومع هذا يمكن أيضا أن يطول هذا الأسلوب الخيالى إلى ما لا نهاية له مع استعمال الضمائر الرابطة، ولكن فى هذا القدر كفاية كما يقولون.

ومن اجتهادات هؤلاء السلف ما يروى عن أحمد بن محمد بن يحيى اليزيدى النحوى المتوفى قبل سنة ٢٦٠ أنه صنع بيتاً يجمع حروف المعجم، وهو قوله:

ولقد شجتني طفلة برزت ضحى
كالشمس خثماء العظام بذى الغضا

بعض أخطاء الضبط:

(البيرونى) يخطئ كثير من الأدباء والعلماء فينطقون هذا العلم بفتح الباء، جريا منهم على ما ألفوا من النطق بنظيره البيروتى المنتهى بالتاء نسبة إلى بيروت الحبيبة والصواب الذى لا ريب فيه أن يقال الأول بكسر الباء .. والبيرونى هذا هو أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمى، الفيلسوف الرياضى المؤرخ المتوفى سنة ٤٤٠ الذى يقول فيه ياقوت فى بيان مؤلفاته «رأيت فهرستها فى وقف الجامع بمرو نحو الستين ورقة، بخط مكتنز» أى مجتمع ممتلىء. وهو صاحب الآثار الباقية عن القرون الخالية. والجماهر فى معرفة الجواهر، والقانون المسعودى

وليست هذه الكلمة نسبة إلى جنس أو إلى بلد معين، بل هى كلمة خوارزمية بمعنى البرانى مقابل الجوانى: كما ذكر ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ فى ترجمته، وقال: «سألت بعض الفضلاء عن ذلك فزعم أن مقامة بخوارزم كان قليلا، وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم، كأنه لما طالت غربته عنهم صار غريبا»[1]

وقد ذكر السيوطى فى بغية الوعاة هذا النص أيضا، وبرجوعى إلى المعجم الفارسى لاستينجاس وجدته يفسر بيرونى بلفظ Extcernal ومعناها الغريب.

وكلمة «البرانى قال فيها صاحب تاج العروس تعليقاً على قولهم «من أصلح برانيه أصلح الله جوانيه» قال: قال أبو منصور: وهذا من كلام المولدين، وما سمعته من فصحاء العرب البادية[2]. والمعنى: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته أخذ من الجوّ والبر، فالجوّ كل بطن غامض والبرّ: المتن الظاهر فجاءت هاتان الكلمتان على النسبة مع زيادة الألف والنون.

(عبدُون) من التسميات التى أولع الأعاجم بختمها بالواو والنون، وجرى على هذا كثير من إخواننا بالمغرب وقد يقرأ هذا العلم وهماً بكسر العين على أنه من العز

---

(١) بغية الوعاة ٢٠
(٢) بغية الوعاة ٢٨٨

والحق أنه بفتح أوله « عزون » وليس أدل على ذلك مما ورد في الشعر الذى لا يحتمل الشك ، من قول ابن السيد البطليوسى، وهو يذكر ثلاثة أبناء لابن الحاج صاحب قرطبة وهم: عزون، ورحمون ، وحسون . وكان هؤلاء الأبناء من أجمل الناس صورة . وأولع بهم ابن السيد وقال :

أخذت بقلبي حتى كاد يخفيني
وهيت في حب عزون فعزوني

ثم ارحموني برحمون فإن ظمئت
نفسي إلى ريق حسون فحسوني

ومما يجدر ذكره أن النحاة قد تعرضوا لإعراب هذه الأسماء، ولعل أول من أفتى في ذلك أبو على الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ إذ منع صرفها للعلمية وشبه العجمة، حين رأى أن حمدون وأشباهه من الأعلام الزيد في آخرها واو بعد ضمة ونون لغير جمعية لا يوجد في استعمال عربي محمول على العربية بل في استعمال عجمي حقيقة أو حكما . والحق جواز منع صرفه للتعريف والعجمة المحضة(١)

ظلال النحو والصرف :

(الواحد عشر) نحن نقول القرن الحادى عشر . والثانى عشر والثالث . وهكذا

ونقول : الباب الحادى والعشرون والثانى والعشرون، وهكذا :

وكلمة « الحادى » هنا معناها الواحد ، وهي مقلوبة منه بلا شك ، إذ ليست من الحداء وقد التزم العرب ذلك القلب اطراد ، ولم ينطقوا بالأصل ، إلا ما حكى الكسائى من قول بعض العرب شذوذا : الواحد عشر وقد نقل هذا النص عن الكسائى صاحب التصريح وجاء في الأشمونى أيضا (٢)

« وأما ما حكاه الكسائى من قول بعضهم واحد عشر فشاذ نبه به على الأصل المرفوض قال في شرح الكافيه ولا يستعمل هذا الباب في واحد إلا في تانيث مع عشره ، أو مع عشرين وأخواته . . . وانظر ما كتبت من تحقيق في حواشى الخزانه تعليقا على قول البغدادى « الشاهد الواحد والثلاثون بعد الستمائة

(الأولة) نحن نقول : الباب الأول وإذا وصفنا الأنثى قلنا القضية الأولى أو المسألة الأولى والأول والأولى من باب أفعل الذى مؤنثه فعلى كالأكبر والكبرى ، والأصغر والصغرى . والأفضل والفضلى ، من الأوصاف التى تؤنث بالف التأنيث المقصورة

---

(١) الأشمونى ٣ . ٢٦٣ .

(٢) التصريح ٢ : ٢١٧ .

(٣) الخزانة ٨ : ٤٣١ .

لكننا نجد من يقول فى تأنيثها (الأولة) يؤنثها بالتاء وأقدم نص عثرت فيه على استعمالها ما وجدته فى الفهرست لابن النديم[1] المتوفى سنة ٣٨٥ أن الكتابة العبرانية كانت فى لوحين من حجارة، فلما نزل موسى إلى الشعب من الجبل ووجدهم قد عبدوا الوثن اغتاظ عليهم، وكان حادا – أى حاد الطبع، فكسر اللوحين، وندم بعد ذلك، فأمره الله جل اسمه أن يكتب على لوحين الكتابة الأولة .

ثم وجدت ابن بُطلان المتوفى سنة ٤٥٤ أى بعد ابن النديم بتسع وستين سنة فقط يستعمل الكلمة نفسها فى جميع المواضع من كتابة «شرى الرقيق وتقليب العبيد[2]» فيقول : « الوصية الأولة » ثم يعيد العبارة نفسها فى ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

ومن المعروف أن ابن بطلان رحل إلى مصر سنة ٤٤١ وأقام بها ثلاث سنين ثم عاد إلى أنطاكية فأقام بها إلى أن توفى .

ويبدو أن ابن بطلان التقط هذا اللفظ من المصريين الذين لا يزالون يستعملون كلمة « الأولة » كثيرا فى أغانيهم الشعبية .

وقد وجدت لهذا الاستعمال سندا فى اللسان (وأل ٢٤٤) وفيه وحكى ثعلب . هن الأولات دخولا والآخرات خروجا، واحدتها الأولة والآخرة .

(مايَة) يصك أسماعنا من ينطق بكلمة « مائة » الفصيحة على هذه الصورة التى نخالها عامية شنيعة، والحق أن لها سندا من الاستعمال العربى القديم، عثرت عليه فى كتاب المقرب لابن عصفور المتوفى سنة ٦٦٩ فى مخطوطة عتيقة بدار الكتب المصرية يرجع تاريخها إلى سنة ٧٢٢ وهى مقابلة على أصول صحيحة، يقول ابن عصفور عند الكلام على الجمع فى الورقة ٨١ . « ولا يجوز العطف وترك الجمع، إلا أن يراد الكثير نحو قول الحكم بن المنذر :

* بل مائة ومائة ومايه *

بوضع فتحة على الميم الثالثة، وسكون على هائها. فهذا شاهد على صحة كلمة « مايَة » فى التعبير عن المائة، على ما بها من شذوذ .

(الأُخوة) بضم الهمزة، لفظ يستنكره كل الاستنكار جمعا للأخ، والفصيح فيه إخوة بكسر الهمزة لكن ذكر صاحب اللسان فى مادة (أخو) أن الأخ، ووزنه فَعَل، يجمع على إخوان مثل خرب وخربان[3] وعلى إخوة وأُخوة عن الفراء » ثم يقول :

---

(١) الفهرست ٢٢ .

(٢) نوادر المخطوطات ١ ٢٥٤

(٣) الخرب بالتحريك ذكر الحبارى .

« فأما سيبويه فالأخوة بالضم عنده اسم للجميع وليس بجمع ، لأن فَعَلا ليس مما يكسَّر على فُعلة »

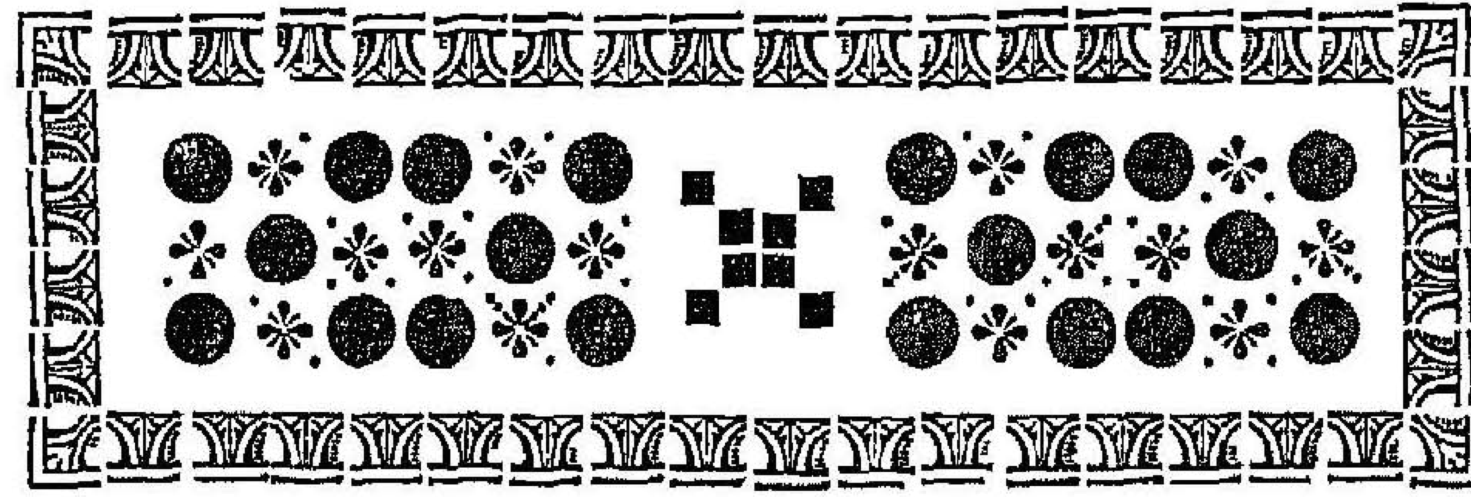
(حوَّق) يقول العامة فى تعبيرهم حينما يشكون قلة ما يقدم إليهم من مال أو طعام : ما يحوّقش ، أى لا يحوّق . ويحوّق كلمة عربية أصيلة ، ففى حديث أبى بكر حين بعث الجند إلى الشام ، كان فى وصيته « ستجدون أقواما محوّقة رءوسهم » أراد أنهم حلقوا أوساط رءوسهم ، من الحوق بالضم،وهو الإطار المحيط بالشيء المستدير .

وقد وجدت تعزيزا لهذا النص فى مقدمة ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٦٤٣ وجدته وهو يرسم المنهج فى مقابلة المخطوطات يقـول . وإن كان فيها نقص ، أى فى النسخة المعارض بها ، والزيادة فى الرواية التى فى متن الكتاب ، حوق عليها بالحمرة » ، أى أدار على النص الزائد دائرة مرسومة بالمداد الأحمر .

وإذن فمجاز قولهم لا يحوق ، أى لا يكمل الدائرة ، أى لا يمثل الكفاية المطلوبة .

وأقول هذا بعض من كل،مما أردت أن أسجله فى كلمة اليوم ، وهو لا يحوّق أيضا على بعض ما أرجو أن أسجـله وأنشره للعلماء والأدباء ، من نوادر كناشتى التى أعتز بها كما أعتز بكم جميعا ، إخوة أشقاء ، وضيوفا أعزاء أجلاء »

عبد السلام محمد هارون



كلمة "إلا" في القرآن الكريم

للأستاذ سعيد الأفغاني



الالتفات إلى الكلام على معانى الحروف فى المئة الثانية للهجرة ، ثم تلاه كتب فى اللامات ، أقدمها فيما أقدر (كتاب اللامات) لأبى زيد الأنصارى المتوفى سنة (٢١٥ هـ) وكتب فى الألف واللام وغيرها . وكلها رسائل فى أوراق ، ثم جاء الزجاجى فى المئة الرابعة (٣٤٠هـ) فألف رسالته فى الحروف ، وتتابع التأليف وتنامى مع الزمن حتى إذا وصلنا إلى المئة الثامنة ، طالعنا علماء ثلاثة طبعت مؤلفاتهم فرأينا كيف اتسع الكلام على الحروف ، أولها (رصف المبانى فى حروف المعانى) للمالقى المتوفى سنة (٧٠٢ هـ) ، وثانيهما (الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى المتوفى سنة (٧٤٩ هـ) ، ثم جاء الثالث فأنسى — فى رأيى — ماقبله ومابعده ، ذلك هو ابن هشام الأنصارى المتوفى سنة (٧٦١ هـ) فأخرج مؤلفه الممتع (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) لم يقتصر فيه على معانى الأدوات التى استنبطها من الشواهد فى القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب ، نثره وشعره ، بل بسط معظم مسائل النحو وهو يناقش الشاهد ، وإن كان فى كثير مما ذهب إليه نظر .

وبعد ، فحدانى على بحث معانى « إلا » فى القرآن الكريم ، عقدة فى نفسى وأنا تلميذ فى الصفوف الإعدادية فى (مكتب عنبر بدمشق) ، حين أسمعنا المدرس لأول مرة مصطلح (الاستثناء المنقطع) ومثل له بالمثال الشائع فى كتب المتأخرين كشرح ابن عقيل مثلا (قام القوم إلا حماراً) ، فلم يسغ لذهنى الناشئ فهم المثال وإن شرح بأن المستثنى فيه ليس من جنس المستثنى منه ، وقلت فى نفسى كيف أخرجه من شئ لم يدخل فيه من الأصل ؟ ! ثم مضت سنون ، وشرعت فى التدريس الابتدائى فالثانوى فالجامعى إلى اليوم ، خمس وخمسون سنة ، حبب إلى فيها ابتكار

(*) ألقى البحث فى الجلسة التاسعة ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م .

ما أقرب به لطلابى النحو ، وأعرض بأسلوبى المادة الدسمة للعلم فى مطولاته شروحا وحواشى وتعليقات وتقارير فى القديم والحديث آخذاً نفسى بأصول أيقنت بسلامتها وبما تعود به على العلم من خير وضبط وإقناع ، مستفيدا من أساليب حديثة فى التربية وأصول التدريس ومن مناهج فى تقرير مسائل العلم ، تستند إلى منطق علمى واضح الصواب ، وانتهيت إلى أن النحو فى حقيقته هو ما استند إلى الموثوق به علمياً من كلام العرب ، بتنحية الضرورات الشعرية عن طريق القواعد ، ورجوت للنحو زيادة فى الوضوح ،حتى أزيل مابنى على غير ذلك ، وبقى من جدل لفظى كثير ومماحكات وتزييف شواهد أفسدت العلم وأضعفت ملكات وأضاعت أوقاتاً ،لو أنفق بعضها على تذوق اللغة وأدبها لعاد على الملكات بأعظم الخير .

* * *

أحصيت المواضع التى وردت فيها كلمة (إلا) من القرآن الكريم فبلغت (٦٤٣) ، كثرتها الغالبة طابقت معانيها أعاريبها وكانت من الاستثناء حقا ، و (٣٤) منها لها معنى آخر لايذكر فى كتب النحو المدرسية كشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ، وشرح شذور الذهب لابن هشام الأنصارى ، لكنك حين تقرأ شرح هذه الآيات فى التفاسير تجد ذكراً لمعناها الصحيح ، فيقول المفسرون . (إلا) هنا معناها (لكن) وبذلك تنقطع هذه الأداة عن معنى الاستثناء لتؤدى معنى الاستدراك ، ويكون مابعدها جملة جديدة تدفع ماقد ينشأ من توهم فى ذهن السامع ، وهذا هو معنى الاستدراك

وكالمفسرين فى تحديد هذا المعنى الصحيح لـ (الا) المعجميون ، فترى الجوهرى ينص على أنها تكون فى (الاستثناء المنقطع بمعنى (لكن) ، وينقل قوله هذا ابن منظور فى معجمه (لسان العرب) وأيده

فانظر فى ثلاث من هذه الآيات محكمين المعنى المقصود الآية الأولى قوله تعالى :

١ - « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر[1] » .

ووضعنا (لكن) مكان (إلا) يحصل فى يدنا معنيـــان : الأول (لك التذكير لا السيطرة) والثانى (من تولى وكفر يعذبه الله العذاب الأكبر) . وبذلك يرد سؤالا قد ينشأ عن الجملتين الأوليين وهو :(إذا لم يستجيبوا ولاسيطرة لى عليهم فهل يتركون وشأنهم ؟) فكان ماق الآيتين الأخريين الجواب الشافى . (من تولى عذبه الله) ، وهذا هو المعنى المتبادر إلى ذهن العربى السليق .

---

(١) سورة الغاشية ٨٨ الآيات ٢٢ - ٢٤

لكن موقف الصناعيين يختلف ، فليس فيه هذا اليسر والوضوح فى الوصول إلى المعنى ، ولأقتصر على اثنين منهم ألّفا فى النحو وفى التفسير ، وهما الزمخشرى (— ٥٣٤ هـ) وأبو حيان الغرناطى فى المئة الثامنة (— ٧٥٤هـ) وكل منهما متأثر — شعر أم لم يشعر — بتقاليد صناعته وقيودها

قال الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) :

« إلا من تولى » استثناء منقطع ، أى لست بمستول عليهم . ا هـ

وهذا سهو منه رحمه الله ، إذ لو كان استثناء لأصبح المعنى كما هو واضح من السياق . أنت تستولى على من تولى وكفر لا على من ذكرته (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فأنت مسيطر عليه) وهو — كما لا يخفى — عكس المقصود

ثم قال (ولكن من تولى وكفر فإن لله الولاية والقهر فهو يعذبه العذاب الأكبر الذى هو جهنم) .

وليته اكتفى بحمله (لكن) التى فرضها عليه المعنى وأسقط ماقبلها ومابعدها ، لكنه كر عليها بما يضعفها فزاد . (وقيل استثناء من قوله « فذكر » أى فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر ، وما بينهما اعتراض) يريد قوله تعالى : « إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » وبذلك عاد على قوله (ولكن من تولى . . .)

بالإلغاء ، وأتى بإثباته هذا القول الضعيف بمعنى غريب هو : (فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه) ، ولم يتساءل غفر الله له - : كيف يعرف ذلك منه قبل تذكيره ؟ وما الفائدة من تذكيره إذاً ؟ كان التالى لهذه الآيات أقرب إلى فهمها الصحيح قبل أن يفرغ إلى هذه البلبلة فى تفسير (الكشاف) .

ويأتى بعد الزمخشرى بمئتى سنة أبو حيان النحوى المفسر (٦٥٤ — ٧٥٤ هـ) فيقرر فى تفسيره (البحر المحيط) مايأتى :

(إلا) حرف استثناء ، فقيل متصل أى : فأنت مسيطر عليه (يريد قوله : إلا من تولى وكفر) ، وقيل متصـــل من (فذكر) أى فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر ، وما بينهما اعتراض ، لم يزد على عبارة الزمخشرى الآنفة شيئا ، ثم قال . (وقيل منقطع ، وهى آية موادعة نسخت بآية السيف) ا هـ ولم يذكر معنى الاستدراك البته .

وكذلك فعل مختصر البحر فى كتابه (النهر)

والطريف أن أبا حيان أورد بعد ذلك قراءة ابن عباس وزيد بن على وقتادة وزيد بن أسلم (ألا من تولى وكفر : .) و (ألا) فيها حرف تنبيه واستفتاح ، وهى

قراءة تؤيد أن جملة « إلا من تولى » كلام جديد لا استثناء فيه ، لكن أبا حيان غفل عن فقهها الذى يؤيد استدراكيه (إلا) كل التأييد .

وبعد مئة سنة شفى النفس جلال الدين المحلى (— ٨٦٤ ﻫ) فى تفسيره المختصر (تفسير الجلالين) ، فأخذ من كل الأقوال السابقة معنى الاستدراك فقط ووضعه إلى جانب (إلا) كلمة (لكن) ليصح الكلام . لكن من تولى وكفر فيعذبه الله . إلخ لقد كان محقاً كل الحق فى هذا ، وأعرض عن كل ماسبق من أقوال فأحسن ثم أكمل السيوطى تفسير المحلى الذى فسر النصف الثانى من المصحف فقط ، واجتهد فى اتباع منهج المحلى . فكان هذا التفسير المسمى بتفسير الجلالين إشارة إلى الجلال السيوطى ، التفسير الذى — لولا مافيه من إسرائيليات — لكان أجود مختصر وأسرع مسعف فى بيان المعنى للعجلان .

٢ — والآية الثانية قوله تعالى فى اليهود : « ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وأن هم إلا يظنون »[1] .

لم يعرض الزمخشرى فى تفسيره لمعنى (إلا) فى هذه الآية لكنه قال « إلا أمانى » . إلا ماهم عليه من أمانيهم ، وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وما تمنيهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة ، وقيل : إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد . ثم قال : « إلا أمانى من الاستثناء المنقطع » ا ﻫ

أقوال مختلفة ، ولو عرض أولا لمعنى (إلا) فقال . لكن يعلمون أمانى لقنوها وأكاذيب) لتمكن المعنى فى نفس القارئ منذ البدء .

وقريبا من ذلك فعل أبو حيان فى تفسيره (البحر المحيط ١ — ٢٧٥) ، عنى بالصناعة قبل تعرضه لشرح المعنى ، قال :

« إلا أمانى » ليست من جنس الكتاب ولا مندرجة تحت مدلوله ، وهو أحد قسمى الاستثناء المنقطع ، وهو الذى يتوجه عليه العامل ، ألا ترى أنه لو قيل (لايعلمون إلا أمانى) لكان مستقيما وهذا النوع من الاستثناء يجوز فيه وجهان : أحدهما النصب على الاستثناء وهى لغة أهل الحجاز ، والوجه الثانى الإتباع على البدل بشرط التأخر ، وهى لغة تميم ، فنصب أمانى من الوجهين) ا ﻫ

لم أدر ما علاقة هذا كله بفهم الآية ؟ لكن أبا حيان بعد هذا باشر الموضوع فقال :

(والمعنى : إلا ماهم عليه من أمانيهم ،

---

(١) سورة البقرة ٢ / ٧٨

وأمانيهم أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم . . . أو لا يعلمون إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم نقلوها على التقليد . (وهذه عبارة الزمخشري نفسها) وقيل معناه (إلا تلاوة) أي لا يعلمون فقه الكتاب ، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم .) اهـ

في هذا المثال أيضاً كان تفسير الجلالين الموجز خيراً منهما في جلاء المعنى . فقد حط عليه مباشرة واكتفى بقوله .

(ومن اليهود عوام لا يعلمون التوراة إلا أماني) لكن أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتمدوها)

وبتفسير (إلا) بـ (لكن) وضع المعنى على طرف الثمام ، وأضرب عن ذكر الاستثناء المنقطع ، وتقسيمه ، وعن اللغات فيه بين النصب والرفع وتوجيه كل منهما .

٣ – ونأتي إلى الآية الثالثة : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١)

في كشاف الزمخشري . « إلا قوم يونس » استثناء من القرى ، لأن المراد أهاليها ، وهو استثناء منقطع بمعنى (لكن) متصلاً والجملة في معنى النفي ، كأنه قيل .

ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء . وقرئ بالرفع (إلا قوم يونس) على البدل ، هكذا روي عن الجرمي وسيبويه . اهـ

لقد حمدت للزمخشري هنا تصريحه بأن معنى إلا هو (لكن) وإنما تمام هذا التصريح في كلامه على الاستثناء المنقطع ، وحوار المتصل هنا إلى آخر ما قال . أما أبو حيان فاشتغل عن التفسير بمقالات نحويين في الاستثناء متصلا ومنقطعا ، ولم يعرض لمعنى (إلا) في الآية البتة ، إذ قال : « إلا قوم يونس » . و (قوم) منصوب على الاستثناء المنقطع ، وهو قول سيبويه والكسائي والفراء والأخفش ، إذ ليسوا (يريد قوم يونس) مندرجين تحت لفظ (قرية) ونقل قول الزمخشري السابق ، ثم عقب بقول ابن عطية : (هو بحسب اللفظ استثناء منقطع وكذلك رسمه النحويون ، وهو بحسب المعنى متصل ، لأن تقديره : ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس ، والنصب هو الوجه ، لذلك أدخله سيبويه في باب ما لا يكون فيه إلا النصب ، وذلك مع انقطاع الاستثناء . وقالت فرقة : يجوز فيه الرفع ، وهذا مع اتصال الاستثناء . وقال المهدوي : والرفع على البدل من قرية . وقال الزمخشري : وقرئ بالرفع على البدل ، عن الجرمي والكسائي . اهـ

(١) سورة يونس ١٠ / ٩٨

سقت هذا والكتب الثلاثه كتب تفاسير وشرح مغنى ، لاكتب فى النحو الصناعى . أما تفسير الجلالين ، فقد قال كلمة واحدة أغنت وألغت كل ماتقدم ، وتكفلت بإصابة الهدف ، قال : « إلا قوم يونس » : لكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم .

ومن المفيد الإشارة إلى أن من العلماء قبل أبى حيان من هدى إلى المعنى الصحيح لـ (إلا) وقرره لها محتجاً بآيات كريمة وإن لم يكن كتابه كتاب تفسير ، بل كتاب نحو ، عنيت الذى طرى النحو بأسلوبه العذب ، أبا البركات ابن الانبارى (= ٥٧٧ هـ) فى كتابه المستساغ (الإنصاف فى مسائل الخلاف) لقد أقر الاستثناء المنقطع كما فعل غيره قبله وبعده ، لكنه كان محسناً كل الإحسان حين قال فى المسألة ٣٥ (١)

(إلا) فى قوله تعالى (٢) « لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى » . استثناء منقطع ، والمعنى : لكن الذين ظلموا يحتجون عليكم بغير حجة ثم استشهد على هذا المعنى بقوله تعالى : « مالهم به من علم إلا اتباع الظن » (٣) قال : معناه : (لكن يتبعون الظن)

وبقوله تعالى . « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » (٤) معناه لكن وبقوله تعالى : « ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » (٥) معناه : لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . لقد فطن إلى تمام الجملة بعد (إلا) كما فطن إلى أن المعنى هنا هو الاستدراك فحسب

* * *

ونتساءل : هل تتابع النحاة بعد أبى حيان على إهمال معنى الاستدراك لـ (إلا) فى كتبهم ؟ . المؤسف أن ذلك استمر ، ولقد كان من المتوقع أن ينتهى الإهمال ويتلافى بالمشروع الجليل النفع الذى تصدى له ابن هشام الأنصارى (= ٧٦١ هـ) صاحب (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) أوسع كتاب ألف فى معانى الأدوات فى اللغة العربية . لقد اجتهد فى تصيد معانى كل أداة من قريب ومن بعيد ، فجمع مافى محفوظه ومصادره من شواهد كل

---

(١) ص ٢٦٩ من الجزء الأول

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٥٠

(٣) سورة النساء ٤ / ١٥٧

(٤) سورة الأعلى ٩٢ / ١٩ ، ٢٠

(٥) سورة التين ٩٥ / ٥ و ٦

أداه من القرآن الكريم، بقراءاته المتعددة ، ومن الحديث الشريف ، ومن كلام العرب نثرة وشعره ، حتى إذا أرضاه الجمع كر على شواهده يستقصى فيها معانى كل أداة على حدة ، فصبر وصابر ، بل بالغ فى إضافة معان لاتحتملها الأداة مفردة ، فحملها ما أوحى به سياق مافى نظره . . ، فلما وصل إلى الأداة (إلا) والكمال لله — حملها معنيين لا أصل لهما ، وفاته معنى أصيل مستفيض، وهو الاستدراك جعل ابن هشام ل (إلا) أربعة معان[1] .

١ — الاستثناء　　٢ — مرادفة (غير)

٣ — العطف .　　٤ — الزيادة

والمعنيان الأخيران لايصحان .

أما العطف فتبع فيه ابن هشام كوفيين عملوا عن المعنى الحق للآيات الكريمة ، وقد مر بعضها ، وأما الزيادة فقد عززه فيها شاهدان أحدهما لا دليل فيه لاحتماله وجها آخر صحيحاً يسقط الاستدلال به على الزيادة، وأما الآخر فمجهول لايعرف قائله أو صانعه الذى اضطره الوزن إلى اسقاط حرف نفى فى أوله ليستقيم له الوزن ، وقد عزاه إلى أحد بنى سعد وهو

أرى الدهر إلا منجنونا بأهله
وما صاحب الحاجات إلا معذبا

وتمام الكلام (ما أرى الدهر إلا منجنونا بأهله وما أرى صاحب الحاجات إلا معذبا) والمنجنون هو الدولاب .

فأنشأ ابن هشام رحمه الله قسما خاصا بسبب هذا البيت هو مجئ (إلا) زائدة فجعل الأصل (أرى منجنونا) وما هى بالزائدة، ولا فى كلام العرب (إلا) زائدة .

لم يسعنا إلا التحسر لهذه الثغرة الواضحة فى كتابه العظيم (مغنى اللبيب) فقد أراده هو للتفسير أكثر منه للنحو ، وألفه على المعانى أول شىء ، ولما سئل : (لم لا تؤلف تفسيراً للقرآن الكريم ؟) أجاب (ألفت المغنى)

كان بين أيدى الذين أتوا بعد ابن هشام مادة عزيزة جدا فى النحو والتفسير حوتها المجلدات التى سلمت مما حاق بالتراث العربى من نكبات ، ومع سقم أساليب التأليف ومع الركاكة عند كثير من المتأخرين ، حتى المئة الثالثة عشرة للهجرة ، لم يخل بعضهم حواشيه المطولة فى النحو من الالتفات إلى هذا المعنى ، معنى الاستدراك فى (إلا) ولو عرضاً ، جاء فى حاشية الشيخ محمد الخضرى المتوفى فى المئة الثالثة عشرة ، التى جعلها على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك

---

(١) مغنى اللبيب ص ١٠٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

ومتى كان ما بعد (إلا) جملة فهي بمعنى لكنْ) ولو كان (الاستثناء) متصلا ، لكن إن نُصبَ تالى (إلا) و (لكنّ) المشددة كما سيأتى ، أو رُفع فكالمهملة (لكنْ) أفاده الصبان عن الدماميني . . ثم يعلل النصب (إلا) بكونها فيه بمعنى (لكنّ) وعملت عملها ، وخبرها محذوف غالبا نحو . (جاء القوم إلا حمارا)أى لكن حمارا لم يجىء ، وقد يذكر الخبر نحو « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم . . » ا هـ(١)

ومع صرف النظر عن ضعف تمثيله بجملة لاتصح عربيا وهى (جاء القوم إلا حماراً)(٢)

حمدنا الله على ذكره المعنى وعلى جملة الإعراب على المعنى وتعويله عليه ، ولو فى حاشيةٍ على شرحٍ على متن .

أعود من هذا العرض الملخص بنتائج أربع هى :

١ ــ إلغاء ما سموه (الاستثناء المنقطع) من بحث الاستثناء ، لأنه لااستثناء فيه ، لأنه لامعنى لأن تخرج شيئا لم تدخله قط

٢ ــ لكلمة إلا أربعة معان ، ثلاثة منها تكثر فى الكلام وهى :

(أ) الاستثناء حين يكون فى الجملة مستثنى منه .

(ب) الحصر (وهو ماسموه بالاستثناء المفرغ ، والخير أن يحذف أيضا من باب الاستثناء)

(ح) الاستدراك

(د) والمعنى الرابع قليل الاستعمال وهو الوصفية أو مرادفة (غير)

٣ ــ إن المعانى الثلاثة الأولى لـ (إلا) الاستثناء والحصر والاستدراك مما ينبغى بيانه للمبتدئين قبل إنهاء دراستهم الابتدائية وتدرج أمثلتها من القرآن الكريم وغيره فى الكتب المدرسية (لمنطقيتها) ولسهولة فهمها .

٤ ــ يلى (إلا) الاستدراكية جملة تامة ، وقد يحذف خبرها أحيانا ويكون مفهوما من السياق ، أما الأصل الذى صدرت عنه فى كل ما تقدم فهو النظر فى سياق الشاهد بعد الوثوق من صحته ، ومراعاة معناه ، بل تحكيم المعنى فى كل قول يعرض فما اطرد معه كان هو المقبول ، وماخالفه وجب الإغضاء عنه مهما يُحطْ به من تعليلات صناعية غير مقنعة ، ولو تواردت عليه كتب قديمة وحديثة ، ونحن نعرف أن انحرافها

---

(١) حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل ١ / ٢٥٤

(٢) الصواب أن يقال (جاء القوم إلا حمارهم) أو ((إلا حماراً لهم) ، لأن المستثنى يجب أن يكون معرفة أو نكرة مختصة على الأقل .

خصيفا لمؤلف قديم ، ينقله خالف عن سالف من دون تبصر عامل فى بلبلة العلم وإفساد الملكة ، والمخلص فى مثل هذا تحكيم المعنى ، ومع أننا نتناقل ما انعقد عليه الإجماع فى القول السليم المشهور (الاعراب فرع المعنى) ، مع ذلك فقليلا ما نراعيه

إن أربعة وثلاثين شاهدا من القرآن الكريم وحده ، تفهم بيسر ، ويصح معناها لو ضعنا فيها (لكنْ) أو (لكنّ) موضع (إلا) ، كافية لاعتماد قاعدتها بل فوق الكافية بينما وضع ابن هشام قاعدة لا يسندها إلا بيت شعر تطرق إليه الاحتمال ، وبيت آخر اضطر الشاعر فيه إلى إسقاط حرف نفى فى أوله اعتمادا على قرينة (إلا) فيه وعلى شطره الثانى منه ، بله جهالة المؤلف اسم صاحب المشاهد .

واللافت للنظر أن معنى الاستدراك فى (إلا) أصيل باق إلى اليوم حتى فى لهجاتنا المحلية الدارجة ، فكثيرا ما يسمع فى الشام ومصر وشمال أفريقيا مستمع حديثك ، يعقب بقوله مثلا (هذا صحيح إلا أنه كذا . . .) أو (هذا صحيح لكن كذا ...) لقد بقى هذا المعنى لـ (إلا) حيا طول هذه الأعصار ما نال من حياته إغفال المؤلفين له إن الاستئناس بما فى اللهجات الدارجة من فصاحة فى المفردات والأساليب خليق بنظر الباحثين .

مع هذه الكلمة ملحق فيه الآيات الكريمة الأربع والثلاثون التى يتضح فيها معنى الاستدراك لـ (إلا) وبالله التوفيق .

سعيد الأفغانى
عضو المجمع المراسل من سورية



ملحق

بالآيات التى فيها (إلَّا) للاستدراك بمعنى (لكن)وعملها

	السورة	رقمها	الاية
١ ـ « وَمِنْهُمْ أُمِيُّونَ لَايعْلَمُونَ الْكِتَاب إِلَّا أَمانِيَّ وإِنْ هُمْ إِلَّا يظُنُّونَ » (لَكنْ أَكاديب تلقوها)	البقرة	٢	٧٨
٢ ـ « لِئَلَّا يكُونَ لِلنَّاسِ علَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِين ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وأخْشَوْنِى » .. (لَكنْ الَّذِينَ ظَلَمُوا لَايحتَجُّونَ بغَيْرحُجَّة)	البقرة	٢	١٥٠
٣ ـ « إِنَّ الَّذِينَ يكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِن الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدى مِن بعْدِ ما بيَّنّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَاب أُولَئِكَ يلْعنُهُمُ اللهُ ويلْعنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وبيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ علَيْهِمْ وأَنا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ... .. . (لَكِنْ الَّذِينَ تَابُوا . فَأولَئِكَ أَتُوبُ علَيْهِمْ)	البقرة	٢	١٥٩ـ١٦٠
٤ ـ « ولَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ . . إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حاضِرةً تُدِيرُونَها بيْنَكُمْ فَلَيْس علَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها » . ... (لَكِنْ أَن تَكُونَ تِجارَةً ... فَلَيْس علَيْكُمْ)	البقرة	٢	٢٨٢
٥ ـ « لَا يُخَفَّفُ عنْهُمْ الْعذَابُ ولَا هُمْ يُنْظَرُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » . .. . (لَكِنْ الَّذِينَ تَابُوا . . فَإِنَ اللهَ غفُورٌ رحيمٌ)	آل عمران	٣	٨٩

	السورة	رقمها	الاية
٦ – « ولَا تتَّخِذُوا مِنْهُمْ وليًّا ولَا نَصِيرًا . إلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إلَى قَوْمٍ بينَكُمْ وبينَهُمْ ميثَاقٌ » (لَكنْ الَّذِينَ يصِلُونَ . . .)	السماء	٤	٩٠
٧ – « إنَّ الَّذِينَ توفَّاهُمُ الملَائِكَةُ ظَالِمِى أنْفُسِهمْ فَأُولَئِكَ مأْواهُمْ جهنَّمُ وَسَاءَتْ مصِيرًا . إلَّا الْمُسْتَضْعفِينَ . . » … … … .. .. (لَكنْ المُسْتَضْعفِين . . فَأُولَئِكَ عَسى اللهُ أنْ يعْفُو عنْهُمْ)		٤	٩٨
٨ – « ولَن تَجدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إلَّا الَّذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا فَأُولَئِكَ مع الْمُؤْمِنِينَ » .. . (لَكِّنْ الَّذِينَ تَابُوا . فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤمِنِينَ)		٤	١٤٦
٩ – « مَا لَهُمْ بهِ مِنْ عِلْمٍ إلَّا اتِّباع الظَّنِّ . . » . (لَكِن يتبعُونَ الظَّن)		٤	١٥٧
١٠ – « إنَّمَا جزَاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ الله ورسُولَهُ وَيسْعونَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أن يُقَتَّلُوا إلَّا الَّذِين تَابُوا مِن قَبْلِ أن تَقْدِرُوا عليْهِمْ فَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » … . (لَكِن الَّذِينَ تَابُوا . . . يغْفِر لَهُمْ)	المائدة	٥	٣٣ – ٣٤
١١ – « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعهَا إيمانُهَا إلَّا قَوْمَ يُونُس لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ .. » . (لَكِّن قَوْمُ يُونُس لَما آمنُوا كَشَفْنَاعنْهُمْ)	يونس	١٠	٩٨

	السورة	رقمها	الآية
١٢ – « وَبشِّر الَّذِينَ كَفَرُوا بعذابٍ أَلِيمٍ . إِلَّاالَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِين . . فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عهْدهُمْ . . . » ... ... (لَكنْ الَّذِينَ عاهدتُّمْ فَأَتِمُّوا إِلَيهْمْ عَهْدهمْ)	التوبة	٩	٤
١٣ – « كَيْفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكِين عهْد عِنْد اللهِ وعِند رسُولِه إِلَّا الَّذِينَ عاهدتُّمْ . . . فما اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ . . . »... . (لَكنْ الَّذِينَ عاهدتُّمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)		٩	٧
١٤ – « ... إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلَّا (لَكِن) الَّذِينَ صبرُوا وعمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ »	هود	١١	١٢
١٥ – « فَسوْفَ يلْقَوْنَ غَيًّا . إِلَّا (لَكِن) منْ تَاب وآمنَ وعمِل صالِحًا فَأُولَئِكَ يدْخُلُونَ الْجَنَّةَ »	مريم	١٩	٦١
١٦ – « لا يسْمعُونَ فِيها لَغْوًا إِلَّا (لَكِن) سلاماً »		١٩	٦٣
١٧ – « ما أَنْزَلْنا عليْكَ القُرْآنَ لِتشْقى . إِلَّا (لَكِن أنزلْنَاهُ) تَذْكِرةً لِمن يَخْشَى »	طه	٢٠	٣
١٨ – « وأُلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ . إِلَّا (لَكِن)الَّذِينَ تَابُوا مِن بعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا فَإِنَ اللهَ غَفُورٌ رحِيمٌ . . »		٢٠	٥
١٩ – « ويخْلُدْ فِيهِ مُهانًا ، إِلَّا (لَكِن) منْ تَاب وآمن وعمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ »	الفرقان	٢٥	٧٠

	السورة	رقمها	الاية
٢٠ـ « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا (لَكِن) مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . . » (فَإِنَّهُ يَنْفَعُهُ)	الشعراء	٢٦	٨٩
٢١ـ « إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا (لَكِن) مَنْ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ »..	النمل	٢٧	١٢
٢٢ـ « وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا (لَكِن أُلْقِىَ) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ . . . »	القصص	٢٨	٨٧
٢٣ـ « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا (لَكِنْ) أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً » (بِوَصِيَّةٍ فَجَائِز)	الأحزاب	٢٣	٦
٢٤ـ « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا (لَكِن) فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (لَمْ يَتَّبِعُوهُ) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا (لَكِن) لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ »	سبأ	٣٤	٢١
٢٥ـ « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا (لَكِن) مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا . »	سبأ	٣٤	٣٧
٢٦ـ « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا (لَكِن) اللَّمَمَ »	النجم	٥٢	٣٢
(يُغْفَرُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ ـ الجلاليين)			

	السورة	رقمها	الآية
٢٧ – « وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ، إِلا (لَكِن فَعَلُوهَا) ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ . . »	الحديد	٥٧	٢٧
٢٨ – « وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلَّا (لَكِنَّ أَمْلِكُ) بَلَاغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ . . »	الجن	٧٢	٢٢
٢٩ – « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا (لَكِن) أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ » .	المدثر	٧٤	٣٨ – ٤٠
٣٠ – « لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَاباً إِلَّا (لَكِن) حَمِيماً وَغَسَّاقاً . »...	النبأ	٧٨	٢٤
٣١ – « فَبَشِّرهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا (لَكِن) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »	الانشقاق	٨٤	٢٥
٣٢ – « لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا (لَكِن) مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ »	الغاشية	٨٨	٢٤
٣٣ – « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا (لَكِنَّ فِعْلُهُ) ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى »	اللَّيْل	٩٢	١٩ – ٢٠
٣٤ – « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا (لَكِن) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »	التِّين	٩٥	٥ – ٦

الأثر النفسي والاجتماعي من تعريب التعليم

للدكتور يوسف عز الدين

ليس تعريب التعليم أمرا سهلا ، أو قصية بسيطة الحل بعد أن مر العرب بمرحلة صويلة من التأخر العلمى ، والجمود الفكرى .

إنه مشروع ضخم من مشاريع الحضارة العربية الجديدة ، ويظهر حطره باتساع الميدان وتشعب الجذور ، واختلاف المصادر ، ولا بد لدراسة هذا المشروع ، والنهوض بأعبائه الكبيرة من أن نخطط ا تخطيطاً كاملا وأن نلم بجوانبه المتشعبة ولاسيما الجانب الاجتماعى والأثر المفسى بعد أن سبقنا العرب فى ميـــدان التقمية العلمية بأعمـــال صخمة ومنجزات مثمرة فى النمو والتطور .. وسيطرت على نعوسنا شدة البهر والانبهار وفقدنا الثقة بالنفس على مجاراته بما نراه كل يوم من المخترعات ونقرأ عن تطور الفكر والعلم ولاسيما العلوم والمعرفة والتجارب المادية الكثيرة التى دخلت فى حياتنا اليومية بالمستحدث الجديد وأثر فى عقولنا بالاتجاه الحضارى الغربى دون وعى أو تمحيص .

وأخشى أثر هذه الحصارة فى نفوسنا التى ورقها التمرق الفكرى حتى عدت اللغات الأجنبية ومصطلحاتها سمة الرجل الذى يدعى العلم والثقافه مدخلت هـــذه اللغات فى الكتب والمقالات والحديث اليومى .

وراد الطين بلة اختلاف الأقطار العربية فى وصع المصطلحات العلمية والترجمة المتبايبه فى لغة العلوم .

فالتخطيط ضرورة لوضع حد لهذا الاختلاف . والمنهج هو الذى سيقف حائلا دون الفوضى اللغوية والتضارب الفكرى ويحول دون الانفصام اللغوى والقلق الفكرى والحيرة البيانية التى تأتى من اختلاف الآراء وتشعب القواعد وتباين المناهج فى الأقطار العربية .

التعريب فى العراق :

وقد قام العراق بوضع خطط لتعريب التعليم الجامعى وعقد عدة ندوات ، وقد

(*) ألقى البحث فى الجلسة التاسعة ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م .

طبعت محاضرها ومن أبرز هذه الندوات (مؤتمر تعريب التعليم العالى فى الوطن العربى الذى عقد فى بغداد ما بين الرابع من شهر آدار و السابع منه سنة ١٩٧٨) .

وقد حضره عدد من الأساتذة والمختصين من أكثر الأقطار العربية كالكويت والأردن والمغرب والخرطوم ولبنان وتونس ودمشق وصنعاء وأبى ظبى والجزائر وجامعة بيرزيت وقد حرمت الندوة من حضور القاهرة بسبب القطيعة السياسية المعروفة

وقد كان صدر قرار بالبدء فى تعريب التعليم العالى فى العراق من حزيران ١٩٧٨ وبدأت العلوم تدرس باللغة العربية فى الصفوف الأولى وأجل التعريب فى كليتى طب الأسنان والطب البشرى ، على أن يطبق التعليم باللغة العربية من أول سنة ١٩٨٠ الاردن .

وقد حدثنى الزميل الفاضل الدكتور عبد الكريم خليفة بأن عملية التعريب فى الأردن تسير مسيرة جيدة

تونس :

وفى تونس يبذل المجلس العلمى (للمؤسسة الوطنية للترجمة ، التحقيق والدراسات) جهودا مشكورة فى تنظيم حركة الترجمة وأنشأت معهدا باسم (المعهد الوطنى للترجمة الأدبية والعلمية ووضع المصطلحات) .

عوامل النجاح :

إن عملية تعريب التعليم لا بد أن يضمن لها أهم مقومات النجاح ، ولعل من أعمق هذه المقومات قبول التعريب نفسيا من المجتمع والطالب والأستاذ، وخلق الاستعداد النفسى وزرع الثقة باحترام اللغة العربية، وأنا أعرف عن أحد الأقطار العربية أن الموظف إذا كلمته باللغة العربية ازور عنك بعد أن أصبحت اللغة الفرنسية جزءا من الحياة الاجتماعية وأخذ الطفل يتعلمها ويتحدث بها لأن أمه ترى بأن الحديث بالفرنسية سوف يجلب لابنها الاحترام . ومن الصعب التلاؤم الروحى والرضا النفسى عند هذا الإنسان . . فتكلم بها العامل والفلاح والحمال .

وقد سرت بين المجتمع نظرة غير محترمة لمعلم اللغة العربية ، فقد كان يقال للطالب المخفق أتريد أن تكون معلم لغة عربية ثم إن بعض الأقطار العربية تدفع لمدرس اللغة العربية أجرا أقل من أجر مدرس العلوم والرياضيات ويفضل مدرس العلوم والرياضيات ، فى السكن على مدرس اللغة العربية الذى يقف آخر الصف ويكون آخر من يحصل على السكن .

وحدثنى أحد الزملاء أنه سافر إلى قطر عربى فوجد استعداداً نفسيا للحديث بالفرنسية لأنها لغة عالية متحضرة وهذا ما دعا أبناء الشعب إلى التمسك بالفرنسية والدفاع عنها .

وبالمقابل نجد أن اللغة الفرنسية كانت مستعملة فى مدارس دمشق ولاسيا الطب ولما انفصلت عن الدولة العثمانية أخذ أساتذة الطب يتعلمون العربية ويستعينون فى كتابة المحاضرات بأساتذة العربية ، لأن الثقافة كانت تركية، فتغلب هؤلاء على اللغة الأجنبية عندما ترجموها إلى العربية ووضعوا لها المصطلحات وهذا ما وجدناه فى زمن محمد على باشا وقد أشار إليه أستاذنا الدكتور مذكور فى اليوم الأول من هذه الدورة

إن الاستعداد النفسى عند شعب من شعوب العرب وتمسكهم بالجذور العربية هو الذى عرب التعليم فى سوريه . . وأخره عند شعب آخر . مازال يحبو فى تعلم لغته .

لذلك أرى أن أهم مقومات النجاح هى

١ — توفير الكتب العلمية ومصادر البحث والمراجعة باللغة العربية لطلاب العلوم ، بعد أن كثرت هذه الكتب فى اللغات الأجنبيه وتنوعت فروع العلوم نتيجة التجارب العلميه وتطور التقنية والمخترعات والاكتشافات وتطور الحضاره السريع فى معاهد الغرب العلميه .

٢ — إعداد الأساتذة إعدادا نفسيا ليكون الأستاذ قادرا على تدريس العلوم الصرفة لاسيا الطب والهندسه والصيدلة باللغة العربية لأن كثيرا من الأساتذة تعلموا علومهم باللغات الأجنبية وتعمقت فى نفوسهم الثقه باللغه الأوربية واستمروا على القراءة والمحاضرات بها واتسعت الهوه بين لغتهم واللغة الأجنبيه التى أتقنوها .

٣ — إن العامل النفسى الذى أسلفت التحدث عنه من أهم العوامل المؤثره فى نشر التعليم باللغة العربية ، لأن خلق الاستعداد النفسى والاجتماعى فى تقبل الدراسة باللغة العربية ضرورة من ضرورات الإبداع وخلق الثقة بقابلية العربيه فى استيعاب العلوم الحديثه وهضم الحضاره الحديثه لتكوين وحده روحية تزرع الثقه العميقه بأصالة اللغة العربيه والاعتداد بالتراث الإسلامى وبالتالى إعادة الثقة بقابلية الطالب العربى والاعتداد بالمستوى العلمى للأستاذ .

إن العامل النفسى ضرورى لكسب ثقه الدارسين ، والمدرسين وإقناعهم بأهميه ما يقومون به ، وإن تعليم العلم الصرف باللغة العربيه يحفظ مستقبلهم ويصون مصيرهم ويطور حضارة الأمه العربية .

وقد تكون بدايه هذا الإقناع عاطفيه الجذور . لأن المشاعر ذخيره متنامية تخلق المواقف الكثيره وتؤثر فى حياه المجتمع العربى وسياسته العامة وأرجو ألا يقتصر الإقناع الروحى على الطالب والأستاذ إنما لا بد من إقناع الرأى العام ليؤثر بدوره فى جو التعليم كله ويرى بأن التعليم باللغه العربية لا يختلف عن التعليم باللغات الأجنبيه وهى مرحلة صعبة .

ولعل من المعول عليه أن يمتد الإقناع إلى أصحاب التوجيـــه الإدارى والعمل

التشريعى لضمان مواقف الدول العربية لإصدار التشريع المناسب الذى يحقق نجاح مشروع التعريب .

وتذكرون أننا عقدنا فى العراق اجتماعا للمجامع العربية وحضر بعضكم إلى بغداد وسعدنا بالحضور إلى مجمعكم الموقر، لكن موقف الدول العربية حالت دون أن تستمر الفكرة الرائدة التى كنا ننشدها من اجتماع المجامع الثلاثة فى كل عاصمة عربية .

إن بعض المشرفين على التربية فى الأقطار العربية وبعض الأساتذة ، يظن أن إلقاء المحاضرات باللغة العربية تحط من قيمته الجامعية ولاتعطيها الطعم العلمى لأنه تذوق التعليم باللغة الأجنبية وألف الكلمات العربية وأصبحت أداته السهلة فى التعليم وقد درس بها وكتب بحوثه بمصطلحاتها . وأصبحت جزءا من كيانه الروحى وفكره العلمى وابتعد عن اللغة العربية ، ولم تعد لغته العربية تفى بما يدور فى فكره العلمى من آراء ومصطلحات ، لأن اللغات تؤثر بعضها فى بعض وقد مر أكثرنا بمثل هذه التجربة عندما درسنا فى الغرب وألفنا اللغة الأجنبية وأحسسنا بحلاوة كلماتها فآثرت فى اللغة الأجنبية اللغة العربية مع أننا درسنا اللغة العربية إلى مرحلة متقدمة ، فلا لوم على المختصين الذين يذهبون صغارا للدراسة فى الغرب . وبرغم صعوبة اقناع هؤلاء ، فمن الضرورى كسب جانبهم للتدريس بلغتهم بإقناعهم نفسيا .

ومن مظاهر هذا الابتعاد عن اللغة ، التبرير النفسى بصعوبة ترجمة اللغة العلمية إلى اللغة العربية وانعدام المصطلحات والكلمات الدقيقة فيها ، لأن الأستاذ فى تبريره لا يريد أن يحس بأنه لايقدر على التدريس بلغته العربية بدوافع نفسية عميقة ، منها الوطنية والقومية ونظرة المجتمع إليه بأنه ضعيف لايعرف غير اللغة العربية . فيخلق التبرير النفسى لإرضاء الذات الاجتماعى وإقناع اللاشعور بما يعمل .

ولعل بعض الأساتذة لا يقدر على ملاحقة المواد العلمية وحقائق المخترعات الجديدة ومصطلحاتها وقد يكون بعيدا عن المنهج العلمى والدراسة الموضوعية لضعف فى اللغة والعلوم التى تخصص فيها .

إن بعض الأقطار التى ما زالت تدرس بالفرنسية والإنكليزية وخلقت طبقة من المتعلمين ، عدت مؤثرة فى اتجاهات التربية فمنعت هذه الطبقة باللغة العربية حفاظا على مصلحة الطبقة التى تمثلها . وقد ورثت هذه الطبقة امتيازاتها من الأجنبى الذى كان قد فرض لغته على تلك الأقطار وأصبح المتكلم باللغة العربية أقل مقاما من أولئك الذين يتكلمون لغة المستعمر ، وبذلك خلقت عقدة الشعور بالنقص بالنسبة للغة العربية ، وخير سبيل أن تقابل هذه العقدة بالإقناع النفسى ، ومتى حلت هذه العقدة النفسية واقتنع هؤلاء بأن اللغة العربية

لغتهم ولغة تراثهم وأن التحدث بها مبعث فخر واعتداد بالنفس، سيذهب عنهم الخوف على طبقتهم ويأمنون على مصالحهم وينمحى إحساسهم بتفوق العلم الغربى ولغته. وسوف يسهمون فى حركة التعريب

إن من يرى اللغة العربية غير قادرة على الوفاء بالتعريب لا لوم عليه، لأن كل عمل جديد وكل نقله حضارية تكون مجهولة النتائج تخيف القائمين عليها. إن الخوف من التجديد والتطور سنة الكون فالقديم يحاول الحفاظ على قديمه ويقف أمام التيار الحديث ولكن الإقناع ورسم صورة واضحة للمستقبل سوف تقنع هؤلاء وتتخلص من الموقف السلبى وسوف تساير الركب.

الكتاب :

إن الشكوى التى يرتكز عليها الخائفون من التعريب ويبررون عدم التدريس بها علاوة على العامل النفسى الداخلى وعدم وجود الكتاب باللغة العربية وقلة المصادر التى يعتمد عليها الباحث والطالب، تلك حجة صحيحة وصادقة، ولكن إذا آمن هؤلاء بأن تعريب التعليم واجب من الواجبات الوطنية والقومية وأنه ضرورى للتطور الحضارى فلابد أن يسهموا فى إعداد الكتاب الذى يلائم المستوى العلمى الذى يسير فى هديه الطلاب.

وقد برهنت اللغة العربية منذ تأسيس دار العلوم والجامعة المصرية ثم كلية الطب فى دمشق ومدرسة الحقوق والهندسة فى بغداد، على قابلية اللغة العربية فى كثير من العلوم وقد هضمت اللغة العربية كل المصطلحات بسهولة، فقد رأيت كتبا فى الطب العام والتشريح والهندسة والكيمياء والفيزياء فى زمن محمد على باشا وقد ترجمت هذه الكتب واستوعبت مصطلحات الطب والهندسة والكيمياء والجغرافيا. وقد ترجمت كتب الطب والكيمياء ووضع لها المصطلحات ورموز الكيمياء بالعربية وأجريت التجارب العلمية وكتبت نتائج هذه التجارب فيها وفى (يعسوب الطب) أدق الشواهد واوضح البراهين ويمكن للباحث أن يجد فى الكتب الطبية التى ترجمها الطبيب محمد بدر أفندى فى علم الأمراض الباطنية والطبيب أحمد أفندى ندا (مدرس علم المواليد الثلاثة) بالمدرسة الطبية والطبيب محمد شافعى فى (أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض) سيطرة العربية وقوتها فى إيصال العلوم الطبية إلى الطلاب.

إذا كانت اللغة العربية فى بداية الترجمة والاحتكاك باللغات قادرة على وضع كتب العلوم باللغة العربية، فلاشك فى أنها قادرة بعد التطور الحضارى والفكرى من أن تستوعب لغة العلم وتضع كتبا متطورة اليوم وقد درسنا كتبا فى الفيزياء والكيمياء والهندسة والعلوم الصرفة باللغة العربية ولا بد أن الدراسة فى الجامعات ستستمر فى هذا الطريق وتصل إلى ما وصلت إليه الجامعات الأجنبية فى التدريس بلغاتها.

إن وضع الكتاب باللغة العربية والشعور بقدرتها على استيعاب هذه العلوم وبالتالى نتخلص من عقدة النقص التى استولت على بعض الدارسين .

ويقدر الطالب على فهم العلوم بسهولة ويسر، ومتى استوعب الطالب علومه وهضمها وفهم مصطلحاتها سوف يكون قادرا على الاختراع والاكتشاف والإبداع عندما يصل إلى مرحلة من التعليم كافية لأن فهم القواعد العلميه الأول ضروريه للتطور والتحديد ونقيس بأن الطالب اليابانى والروسى والصينى لم يبدع أو يكتشف ويطور العلوم إلا بعد أن درس العلوم بلغته القوميه وأحس بالسيطره على هذه العلوم والاستفادة منها .

إن وجود كتاب باللغة القوميه أول أسس القواعد النفسية التى تعدى الطالب بالثقة بقدراته لأنها تمكنه من فهم الجزئيات العلميه، وبالتالى تمكنه من الإبداع . فبعد أن فهم اليابانى لغة العلم عكف على مخترعات الغرب وطورها ونافس أصحابها فى عقر ديارهم، بل اكتشف ما لم يخطر ببال الغرب من الأمور الدقيقة والجزئيات الصغيره التى لم يصل إليها الغرب بعده

الطالب :

متى أصبح الأستاذ مقتنعا نفسيا بضرورة التعريب وآمن بأنه يقوم بعمل قومى ووطنى وأعدت الكتب، وترجمت المصادر، سيكون تدريس الطالب أمرا سهلا ونقضى على العامل النفسى

إن التعريب لن يبعد الطالب عن الأستاذ ويضع حاجز اللغة بينهما بعد أن وضعت المصطلحات وكتبت الكتب بأسلوب عربى مبين :

وقد لاحظت من خلال تتبعى للتعليم فى زمن محمد على باشا مقدار الجهد الذى بذله المشرفون لإيصال العلوم إلى أفكار الطلاب . فقد كان الأساتذة لا يعرفون اللغة العربية، وكان المترجمون لا يعرفون إلا اللغة العامية المصرية وكان معهم الطليان والفرنسيون ولن يكون القرن العشرون، بعد أن كثر الذين يعرفون اللغة الأجنبية وتوفر ما ترجم وما وضع من معجمات — حائلا دون فهم الطالب ولن يجد صعوبة فى التعريب ؛ فقد سهلت المعجمات والترجمة على الطالب العلم وفهم النظريات الحديثة التى تعلم قواعدها الأولية فى الثانوية ؛ وسيجد أن لغته العربية قادره على إيصال العلم إليه . وعندما يدرس العلوم الصرفه بها سيكون قادرا على الفهم ورفع مستواه العلمى والفكرى وبالتالى سيقود هذا الفهم إلى الإبداع كما حدث فى اليابان وروسيا والصين

ختاما :

إن التعبير باللغة العلمية سوف يعمّق الأصالة الفكرية وأرجو ألا يقف التعريب

عند ترجمة البحوث ووضع المصطلحات إنما أرجو أن يكون أداة صادقه للإبداع فإذا ساعدت اللغة اللاتينية اللغات الأوربية فى وضع المصطلحات لتقارب مخارجهـا ووحدة جذورها ، فاللغة اليابانية بعيدة كل البعد عن اللاتينية وفى اللغة العربية يساعدنا الاشتقاق والسوابق واللواحق على تطور المصطلح العلمى وتوحيده

إن ما ورثناه من مصطلحات العلوم التى وضعها الرواد المسلمون فى البحث العلمى مثل أبى بكر الرازى فى (الحاوى) وماكتبه عن (محنة الطبيب) و(الجدرى) وابن سيناء فى (القانون) وابن البيطار فى (جامع مفردات الأدوية والأغذية) والحسن بن الهيثم فى (الضوء) وجابر بن حيان فى علم الكيمياء والفارابى والخوارزمى والمجريطى والبيرونى وغيرهم من العلماء والمفكرين الذين تعرفونهم جميعاً ، حافز لنا فى وضع أسس التعريب الحديث .

إن وحدة اللغة العلمية سوف تكون ركيزة للوحدة الفكرية، تحافظ على الهوية العربية وتحد من التمزق اللغوى،الذى بدأ يسرى فى اللغة العلمية مع أن اللغة العربية هى لغة جميع العرب ومن أصالتها يستمدون حاضرهم اللغوى وبالتالى سيكون الفكر العربى موحدا علميا ويمكن الاستفادة المباشرة من جهود العرب الجديدة فى الإكتشاف العلمى ويشاركون العالم فى صنع الحضارة بعد أن بذلت المجامع العربية جهودا كبيرة فى تيسير المصطلح وصقله وجاء جيل جديد تعلم الأجنبية وأتقنها .

الوسائل :

وأخيرا أتمنى لتحقيق هذه الغاية أن :

١ — تؤلف لجنة عربية مختلفة الاختصاص تشمل العلوم الصرفة والعلوم الإنسانية يكون عملها قاصرا على الترجمة واختيار أمهات الكتب التى صدرت فى اللغات الأجنبية وما ستصدر فى المستقبل وأن تخصص جانبا من نشاطها على ترجمة المقالات التى تصدرها المجامع العلمية واللغوية والمعاهد المتخصصة وتوزع مع الكتب على جميع ذوى الاختصاص ومواكبة التطور العلمى فى جميع أنحاء الدنيا المتحضرة وهذا العمل هو الذى اختصر الهوة بين علماء العالم برغم الاختلاف السياسى وتباين العقائد فى الشرق والغرب ، وأدى بالتالى إلى تبادل المعلومات العلمية بين أمريكا ودول أوربا وإلى إزالة الفوارق اللغوية والتغلب على الاختلاف الفكرى وتقريب وجهات النظر فى الإختلاف الذى سببه اختلافهم السياسى .

٢ — جمع المصطلحات الحديثة التى تضعها المجامع والمؤسسات العلمية والجامعات وتوزيعها على جميع مصادر وضع المصطلحات الحديثة ، لإقرار ما اتفق عليه الذوق العام .

٣ — إصدار مجلات علمية متخصصة لاستعمال المصطلحات الجديدة وقد سبقنا إلى هذه فى العصر الحديث العاملون على مجلة (يعسوب الطب) و(روضة المدارس) وأوائل أعداد جريدة (الوقائع المصرية) وفى العراق (لغة العرب) على ضيق فى المال

وقلة العلماء والمترجمين ولا يمكن أن يقتصر العرب اليوم – بما لهم من أموال ومن كثرة فى الأساتذة ووفرة المترجمين والمختصين – على مجاراة الرواد الأوائل .

٤ – تشجيع البحث العلمى بإعداد شباب فى الدراسات العليا يوقفون بحوثهم على على جهود العرب فى العصر العباسى وعصر محمد على لدراسة لغة العلم فى هذه الحقب وحصر المصطلحات العلمية التى استعملت فى كتب العلوم الصرفة بصورة خاصة والعلوم الإنسانية بصورة عامة .

٥ – القضاء على الانفصام الفكرى الذى بدأ ينتشر بين العرب فى فهم لغة العلوم وإقناع الأساتذة بضرورة التعريب لأنه من أهم أسس الأصالة العلمية للأمة وتطوير حضارتها وغرس الثقة بقدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم الحديثة والتأكيد على أن الروابط التاريخية والوطنية والقومية تقوم على وحدة اللغة التى تبنى الجسور بين الشعوب العربية وتعمق الصلات الروحية والحضارية بينهم . بعد أن أثر هذا الانفصام فى كثير من اتجاهات المفكرين المعاصرين ، بعد التمزق الداخلى للأمة العربية الذى حال دون وحدة الفكر والمصالح المشتركة

٦ – ضرورة توحيد التشريع لتعريب التعليم باللغة العربية ، وقد سبق مجلس قيادة الثورة فى العراق إلى وضع هذا التشريع وطبق فى الجامعات العراقية ولا بد أن الأقطار العربية الأخرى فعلت ما فعل العراق . وآخر ما صدر قرار من الملك فهد بضرورة استعمال اللغة العربية فى جميع المملكة العربية السعودية

إن تعريب التعليم لا بد أن يكون متكامل الأهداف ليصل إلى وحدة فكرية ولغوية ولن يصل إلى حد النجاح ما لم يكن هناك رابط نفسى ينسق هذا العمل الكبير وأن يكون له مركز يوجه هذه الأعمال الكثيرة ويتابع تطبيق ما تضعه الجهات العلمية من مصطلحات وترجمات وتعريب .

وان تخدم القرارات التشريعية وحدها الهدف الكبير ، ما لم يساندفكريا ، يؤمن الجميع بأن التعريب يقرر مصير اللغة العربية المعاصرة ومستقبل الأمة كلها ، وسوف يأخذ الأمة إلى مستوى علمى راق لتواكب الحضارة الغربية ، بعد أن سبقنا العرب بمراحل واسعة

أرجو من الله التوفيق وأن يأخذ بيد العرب نحو أسمى هدف من أهدافها فى وحدة فكرها ولغتها ومصيرها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يوسف عزّ الدين
عضو المجمع المراسل من العراق

حرفا "الباء" و "الفاء"

بحث للدكتور عمر فروخ

لاشك فى أن الأبجدية كانت نعمة عظيمة على المدنية والثقافة واللغة والعلم . ولكنها كانت أيضاً قيداً على اللفظ الإنسانى .

لسنا نعلم متى استطاع الإنسان أن يضع الأبجدية ولا نعلم فى أى الأقطار قد وضعها .

ولكننا نرى من الأبجدية وجهين . ظاهرا وباطنا . أما الوجه الأولى الظاهر فهو أن التجار الكنعانيين (ومن الناس من يقول : الفينيقيون خطأ) هم الذين نقلوا الأبجدية (بعد أن وصلت إليهم من مكان ما) إلى الإغريق . ومن الإغريق انتقلت الأبجدية إلى اللاتين . ومن اللاتين انتشرت فى العالم الغربى .

ولعل انتقال الأبجدية من الكنعانيين إلى العرب كان من طريق الآراميين ، لا من طريق العبرانيين ، ذلك لأن العربية والسريانية تكتبان بحروف موصولة .

وأما الأمر الباطن أو الغامض فهو أننا نعلم أن الأبجدية وصلت إلينا اثنين وعشرين حرفا من الكنعانية إلى الآرامية إلى العربية ؛ غير أننا نجيز لأنفسنا أن نقول إن الأبجدية (أى مجموع الحروف المعبرة عن الأصوات) كانت قبل الكنعانيين (أى قبل إن تصل إلى الكنعانيين) أقل من اثنين وعشرين حرفاً ، لما أنها أصبحت بعد أن حملها الكنعانيون إلى الإغريق أكثر من اثنين وعشرين حرفاً .

وتعليل ذلك ليس مستعصيا إذا درسنا الحقائق التالية :

إن العبرانية زادت حرفا (مشتقا صوت السين) .

وإن الأبجدية الإغريقية زادت حرفين مركبين ، وتبدل فيها أحرف ، أشهرها العين التى أصبحت واوا قصيرة مفخمة .

وأما اللاتينية فنشأ فيها ياء جديدة وقاف (إذا كان فى الكلمة كاف يتلوها حرفا علة) :

(*) ألقى البحث فى الجلسة التاسعة ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م .

كما احتاجت اللاتينيه إلى حرف يقع فى الكلمات المستعارة من اللغة اليونانية . وغفلت جميع الأمم إلاالعرب عن دقةالتمييز بين الأصوات المقاربة فى لغاتهافكتبت أصواتا متقاربة أو متباعدة بحرف واحد ، من ذلك مثلا أن صوت الكاف وصوت الحاء يكتبان فى السريانية والعبرية بحرف واحد ، على بعد ما بينهما فى المخرج

وأما العرب فرادوا فى الأبجديه سته أحرف يجمعها قولك (ثخذ ضظغ) هذه الأحرف الستة تمثل أصواتا موجودة فى اللغه العربية وأصواتا مفرقة فى لغات غيرها

تنبه الإنكليز لثلاثة أصوات فى لغتهم الثاء والذال والظاء فكتبوها كلها بمجموع واحد مؤلف من حرفين . فقالوا thin (ثن - بالكسر) و the (دا ، دى) thus (ظس — بالفتح) .

ومثل ذلك فعل الألمان بصوت الخاء الخفيفة أو الثقيلة وفعل الاسكتلنديون بصوت الخاء فكتبوه جميعهم بحرفين · ich و doch (بالألمانية) ثم Loch (اسم بحيرة فى اسكتلندة بالإنكليزية .)

وأما صوتا الضاد والطاء فموجودان فى لغات كثيرة ، سأكتفى من الأمثلة بما يلى : « إن الكلمة الفرنسية ich والكلمة الإنكليزية done والكلمة الألمانية Dorf (وهى كلها بضاد واضحة) تكتب فى اللغات الثلاث بالدال .

* * وأن الكلمة الفرنسية temps والكلمة الإنكليزية tall والكلمة الألمانية Teufel (وهى كلها بطاء واضحة) تكتب فى اللغات الثلاث بالتاء» .

* * *

هذه المقدمة الطويلة كانت ضرورية للانتقال إلى الأصوات الغامضة التى يعبر عنها بحرفين وهى فى الأصل صوت واحد سمعته الأمم سماعا مختلفا . واسمحوا أن أبدا من اللغة الأجنبية كيلا يظن بى شىء من الميل على لغتنا القومية . وسأقصر كلامى هنا على حرف الباء وحرف الفاء . ولكن يحسن أن نعلم أن هناك باء واضحة وباء مهموسة ثم فاء واضحة وفاء مهموسة

— إن شهر نيسان يعرف فى اللغة اللاتينية باللفظ · april (بباء مهموسة (ويجىء بالفرنسية avril (بفاءمهموسة) وبالإسبانية abril (بباء واضحـــة) وبالإنكليزية والألمانية والهولندية والإيطالية april, aprile (بباء مهموسة) .

— ويصيع الذين يسمعون الألفاظ أحيانا بين الأصوات وظلالها . قال الإنكليز للقرد ape ، وقال الألمان Affe وقال الألمان للتفاح Apfel (بباء مهموسة بعدها فاء واضحة !! وقال الإنكليز apple (ببائين مهموسين) .

وسأتناول الكلمات الغربية الحائرة بين الباء والفاء من جانبين من جانب يتناول الكلمات عند انتقالها فى ضوء التاريخ من الأمم الأجنبية إلى العرب ثم من الجانب الذى تقلب فيه الكلمات العربيه على اللسان العربى

كان للعرب من قبل الإسلام احتكاك باليونان والرومان والهنود والفرس وجميع هذه الأمم تعرف البائين: الواضحة والمهموسة سمعوا من الهنود أو من الفرس كلمة (بيل) فقالوا فيها فيل. وسمعوا من الفرس. بارس فقالوا فيها فارس والفرردق والفانيذ والفرسخ وسمعوا من اليونان بارا ديوس وبلاطون وبيثا غورس فقالوا فيها: الفردوس وأفلاطون وفيثاغورس. ولكنهم سمعوا من اليونان أيضا بريمنياس (أحد كتب أرسطو فى المنطق) فتركوها باريمنياس ثم سمعوا أيضا فيليستين (اسم شعب جاء جزيرة كريت) وفيلوسوفيا فتركوهما بالفاء. فلسطين وفلسفة .

* * *

ونأتى الآن إلى كلمات تقال فى العربية بالباء وبالفاء، والمعنى بالحرفين واحد أو كالواحد

لا أظن أن أحدا ما يستغرب إذا قيل له إن حرفى الجر الباء المكسورة والفاء المكسورة المشبعه بالياء، صوت واحد فى الأصل ثم إن الفعلين باء وفاء معناهما «رجع» (فى المعجم الوسيط) ثم هنالك بأر وفأر بمعنى حفر. وبقر البطن شقه . وفقر الأرض شقها وبحر الأرض شقها وحفرها والعامة يقولون فى حفر بحر ثم هنالك حباه وحفاه بمعنى أعطاه ثم بقع الجلد خالط لونه لون آخر وفقع اللون الأصفر .

ومن هذا الباب خبت ذكره خفى وخفت بصوته أخفاه هفت الريح هبت . وتخبى اختفى ثم تخفى استقر وتوارى . ومن ذلك أيضا برق فزع ودهش ثم أفرق جزع واشتد خوفه

* * *

هذه جولة قصيرة فى القاموس — وفى جانب واحد منه — دارت حول جانب من فقه اللغة المقارن، لم أقصد أن آتى بهذه الجولة على جميع ما يمكن أن يقال فيها ولكنى أقصد أن أفتح نافذة صغيرة على الثروة العظيمة الجميلة فى لغتنا العربية فى ذلك الدور القديم من تاريخها حينما كان الصوت معبرا عن عن المعنى أو حينما حاول الإنسان أن يعبر بالصوت عن المعنى فى ذلك الحين . لم يكن هنالك فرق بين لغة ولغة . سأفتح فى هذا المقطع الأخير الباقى من كلمتى هذه نافذه أصغر بكلمة واحدة هى موضوع جديد .

فى اللغة العربية جاءت اللام مع الهمزه أو مع الهاء ومع الواو ، للدلالة على الصوت المرتفع فى الحزن والألم أو فى الفرح والنشاط وكادت الهاء مع اللام تختص برفع الصوت بالتلبيه أو الدعاء فى المواسم الدينيه . والتهليل

في الحج في الإسلام أمر مشهور (راجع تاج العروس القاهرة ٧ : ٣١١ و٨ : ١٦٠ ١٧١ ، ١٧٣ ، راجع ١٧٧) وليس من المستغرب أن نجد مثل ذلك في البابلية والعبرية فهما لغتان أعرابيتان. ولكن لعل نفرا مما يستغربون أن يجدوا هذا الصوت في اللغة الإنكليزية معبرا عن مثل ما يعبر عنه في اللغة العربية إن هذا الصوت انفعالي (لا إرادي) يبدر من الإنسان في حالة الطرب (من الفرح أو الحزن) ومن الحماسة في الحرب. وأغرب من ذلك أن يكون هذا الصوت قد انتقل من اللغات الأعرابية إلى اليونانية أو إلى البيزنطية (اليونانية المتأخرة والمسيحية) على الأصح ثم إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية وإلى سائر اللغات التي ينطق بها المسيحيون في العالم. وتتردد هذه الكلمة هلليلويا في هذه اللغات بين البدء بالهمزة أو البدء بالهاء كما أنها في العربية جائزة بين الهمزة والهاء أيضا. الآليل والتهليل وقد أنصف «المعجم الكبير» (١ . ٤٢٥ – ٤٣٢) هذا الجذر «ال» من ناحية الاشتقاق والشواهد.

أما صلة «ال» و«هل» بهذا البحث بين الباء والفاء فهو لفت النظر إلى الحروف التي يحل بعضها مكان بعض في اللغة العربية وفي سائر اللغات، وذلك لتقسيم مراحل اللغة ثلاثة أدوار

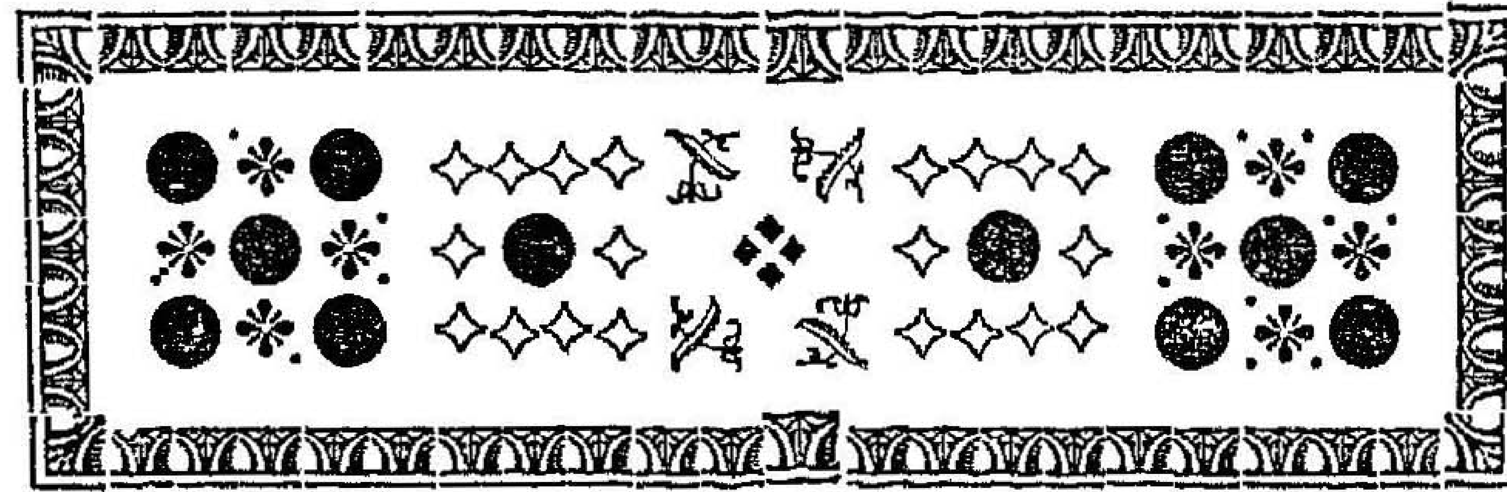
– الدور الصوتي: حينما كان لفظ الكلمة يدل على معناها

– الدور اللفظي. حينما احتاج الإنسان إلى التعبير عن معان وأشياء فتواضع على ألفاظ لا صلة لها بين الصوت والمعنى

– الدور الاجتماعي حينما نقل الإنسان الألفاظ من جانب إلى جانب على سبيل المجاز مما لا صلة، بالتواضع على ألفاظ معينة ولا بالصوت.

أرجو أن أكون بهذه الكلمة التي طالت قليلا قد أشرت إلى موضوع ذي صلة بفقه اللغة المقارن وبمكانة اللغة العربية في هذا في الحقل الواسع من البحث.

عمر فروخ
عضو المجمع من لبنان



معوقات تعريب التعليم الجامعى (*)

للدكتور محمود مختار

بحث

الأصوات فى المؤتمرات العلميه فى كافة أرجاء الوطن العربى وفى الندوات المحلية وأجهزة الإعلام منادية بحتمية تعريب التعليم الجامعى وبخاصة فى الكليات العملية، وداعية لتوثيق الترابط بين التعليم الجامعى بصفة عامة وبين اللغة العربية ولهذا الموضوع بطبيعة الحال جوانبه الحيوية الإيجابيه، وهذه تناولها الزميل الدكتور محمود حافظ فى محاضرته القيمة كما أن للموضوع سلبياته أو معوقاته التى تعترض مساره وتملؤه بالثغرات والعقبات وهذا هو موضوع كلمتى هذه.

هناك من يرى أن كلا من الهيئتين الجامعية واللغوية تعمل فى هذا المجال مجال تعريب التعليم الجامعى فى الكليات العملية — بمعزل عن الأخرى، وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك، وأيا كان مقدار هذه العزلة فإن المأساة تؤرق كل عربى غيور على مستقبل التعليم الجامعى فى الوطن العربى بل على مكانة الأمة العربية أمس ركب الحضارة الحديث.

إن كلا من الجانبين الجامعى واللغوى يحمل قسطاً من مسئولية تعريب التعليم الجامعى فى الكليات العملية، وذلك بحكم كيانه أولا ثم قانون إنشائه. وإنى وقد مارست الجانبين، لن إنحاز لأحدهما دون الآخر بل سوف أحاول وضع الحقائق كما لمستها فى كل منهما فى عرض موجز مجرد.

إن مكانة كل من اللغة العربية والتعليم الجامعى تحتل فى كيان الأمة العربية أعلى المراتب فاللغة العربية التى استمدت قوتها من القرآن الكريم ليست فى حاجة منى أو من غيرى لإيضاح أهميتها فى جميع جوانب الحياة. فهى اللغة الصالحة لكل زمان وكل مكان والقادرة على أن تفى بكل ما يمت لحياة الإنسان. وعلى الجانب

(*) حديث ألقى فى مؤتمر المجمع فى الدورة الحادية والخمسين فى ٧ مارس ١٩٨٥

الآخر فان العلوم التطبيقية والتكنولوجيا الحديثة وقد تصدرت كل جوانب الحضارة الحديثة وتغلغلت فى كل جوانب الحياة فمكانتها ليست أيضاً فى حاجة منى أو من غيرى لتأكيد أهميتها أو التدليل عليها ، أما والأمر كذلك فأين يا ترى تكمن جرثومة العزلة أو التباعد فى مجال حيوى كتعريب التعليم الجامعى الذى طال أمده واستعصى حله ما يزيد على نصف قرن من الزمان . لنبدأ البحث فى قانون الجامعة ثم فى مجمع اللغة علنا نهتدى إلى ضالتنا .

يحدد قانون الجامعة أهدافها بعناصر ثلاثة هى التعليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع وينص صراحة فى أول بنوده على أن لغة التعليم فى الجامعة هى اللغة العربية ، وهذا أمر طبيعى لا جدال فيه ولكنه ليته وقف عند ذلك . بل لقد أردفه باستثناء به التدريس بلغة أجنبية تلك هى الجرثومة التى ولدت ونمت وأنبتت ما تعانيه الجامعة اليوم من مأساة التعليم بغير العربية فى كلياتها العملية وإذا سلمنا بأن هذا الإستثناء كان له ما يبرره عند إنشاء الجامعة منذ أكثر من خمسين عاماً ، فقد كان من اللازم تحديده وتوقيته ولكن فتح باب الإستثناء دون تحديد أو توقيت جعل منه القاعدة وطمس به الأصل . فترعرعت جرثومة التعليم بلغة أجنبية فى هذه الكليات . ثم انتقلت من الجامعة الأم إلى كل جامعة أنشئت بعد ذلك وقد أربى عددها على الستين فى الوطن العربى فأصابتها جميعاً بالداء اللهم إلا واحدة أو إثنتين صمدتا للتيار ولكن تجربتهما لم تتكرر بعدهما بل لقد حدث العكس ، فقد سرت العدوى إلى جامعة كانت قد بدأت تدريسها فى كلياتها العملية الحديثة باللغة العربية بحكم كونها مناراً وأميناً عليها منذ أكثر من ألف عام وهى جامعة الأزهر ، فقد تساقطت فى تيار الجامعات الأخرى وأقرت استخدام اللغة الأجنبية واستبدلتها بالعربية ، ثم من بعدها جامعة الرياض فلاقت المصير نفسه

وبعد أيها السادة ، فإنى أنادى بانقاذ التعليم الجامعى من جرثومة الإستثناء هذه وهى فى نظرى المعوق الأول لتعريب التعليم فى الكليات العملية .

لا تقل بعد ذلك لمعوق آخر . هو عدم وجود الأستاذ الجامعى القادر على أن يخاطب طلبته بلغة الأم السليمة بدلا من العجمة البغيضة المتفشية اليوم فى التعليم الجامعى والتى تجمع بين لغة أجنبية ضعيفة ركيكة مختلطة بألفاظ متناثرة من عربية عامية دارجة .

وفى رأيى أن مسئولية إصلاح هذا الوضع يقع على عاتق كل من الجامعات ومجامع اللغة فكما أن من واجب الجامعة أن تحرص على إعداد المدرس فيها إعداداً علمياً جيداً ، عليها أيضاً أن تحرص على إعداده للتدريس

باغة الأم لتزداد قدرته على الإيضاح وتزداد قدرة الطالب على الإستيعاب. أما مسئوليه مجامع اللغة فإنها تتناول نشر اللغة العربيه العلمية الميسرة كتابة وقراءة وتيسير الاشتقاق والنحت والقياس والمجاز والتركيب فيها ، وعليها ن تكون أرحب صدراً لإستعمال ألفاظ الحضارة والتكنولوجيا الحديثة والمصطلحات ذات الطابع الدولى وإثراء اللغة العربية بها ثم التوسع فى استخدام السوابق واللواحق ، وأخيراً وليس آخرا تطوير الكتابة والطباعة الآلية والإلكترونية باللغه العربية ، التعامل مع الحاسبات وأجهزه المعلومات في الميكرو الكترونية الحديثة

بمثل هذا أيها السادة تصبح اللغة العربيه لغــة علمية حضــارية في حيــة في ميسرة لا للتعليم الجامعى فحسب بل لكل مقتضيات الحياة الحديثة .

وثمة معوق ثالث صفه بأنه معوق مقنع ، ذلك هو تلك الكتب الدراسية المترجمة عن لغات الشرق أو الغرب والتى غزت سوق الكتاب العلمى . أصفها بانها معوق مقنع لأن ظاهرة البراءه التى تتراءى فى إيجابياتها تخفى الكثير من سلبياتها . هذه الكتب الدراسية قد كتبت أصلا لطالب جامعى فى مجتمع متقدم علمياً وحضارياً تختلف أساليبه وإمكاناته وبيئته عن طالب فى مجتمع نام له ظروفه البيئية والتعليمية وإمكاناته المحدودة وقد استخدم فى ترجمه هذه الكتب مصطلحات علمية عربية من وضع المترجم واجتهاده والتى لم يوفق فى الكثير منها . فاختلفت الكتب فيما بينها فى مدلولات هذه المصطلحات وزادت بلبلة القارئ فى التعرف على المعنى المقصود ثم إن فى غالبية هذه الكتب استسهل المترجم كتابة المعادلات الكيمائية والمعادلات الرياضية والفيزيقية باللغة الأجنبية وبالصورة التى وردت فى الأصل ، وفضلا عن هذا الخلط المتنافر بين العربية والأجنبيه فان به ايحاء واضحا بعجز اللغه العربيه وقصورها عن كتابة هذه المعادلات ، وهو إتهام باطل من أساسه . كل هذه السلبيات فى فى الكتب الدراسية المترجمة تربو كثيرا على مع إيجابياتها ، ولهذا لم ترحب بها الجامعات التى تستخدم اللغة العربيه فى تدريسها وما أندرها . أما الجامعات التى تستخدم اللغة الأجنبية وهى الغالبية فلا حاجة لها بها .

وبعد أيها السادة .

فانى أكتفى بالقاء الضوء على هذه المعوقات الثلاثة التى تعترض مسار تعريب التعليم الجامعى فى الكليات العملية وقد أوردتها للتمثيل لا للحصر . أما أمر علاجها فهو فى يد الهيأتين الجامعية واللغوية متضامنتين وحبذا لو انشئت لذلك هيئة قومية موسعه ترعاه بالدراسة المستفيضة والتخطيط السليم وتنقذ اللغة العربية العلمية من هذه المعاناة وتحلها مكانها الواجب فى التعليم الجامعى بل وفى الحياة الحضارية الحديثة .

والله تعالى ولى التوفيق ، ، ،

محمود مختار
عضو المجمـع

قضية تعريب التعليم العالي والجامعي (*)
في مصر
للدكتور محمود حافظ

شهدت مصر في ربع القرن الأخير وقبل ذلك بسنوات عناية واهتماما بتعريب التعليم العالي والجامعي واتخاذ اللغة العربية لغة للعلم والتعليم وذلك من منطلق إيمان مستنير يستشرف الآفاق الرحبة لهذه اللغة ويرى في قوتها وحيويتها الدافقة وثرائها وسموها قدرة فائقة على استيعاب التطور المتلاحق في شتى قطاعات العلم والمعرفة وعلى مواكبة الإيقاع السريع الذي نشهده في هذا العصر لحركة العلم والتقدم العلمي كما ينهض بالتعليم الجامعي ومستوى خريجيه الآخذ في الهبوط والتردي إلى درجة لفتت إليها الأنظار في كل مكان.

ومبعث الاهتمام كذلك بالتعريب وباللغة العربية يأتي من تراث عربي يستمد جذوره من تلك النهضة العلمية الإسلامية التي تألقت في سماء الأمة العربية وبلغت أوجها في عصر الخليفة المأمون (٨٣٣/٨٧٦م) حيث أخذ المسلمون ينهلون من موارد العلم ويترجمون الكتب الإغريقية والسريانية والفارسية وينقلون إلى اللغة العربية مختلف الذخائر العلمية وقد حمل لواء هذه الحركة العلمية العارمة التي امتدت بعد ذلك بضعة قرون عدد من العلماء العرب الأعلام قاموا بأروع الإنجازات العلمية وكتبوا أعظم المؤلفات والموسوعات وأضافوا إلى التراجم الكثير من مبتكراتهم كان ذلك العصر عصرا ذهبيا بالنسبة للعربية لغة للعلم زخرت بآلاف المصطلحات والمنقولات والمأثورات ولا زلنا نحن المشتغلين بالعلوم حتى اليوم نترع من نبعهم الفياض وآثارهم الرائعة كؤوس العلم والمعرفة بلغة عربية جزلة مطواعة اتسعت آفاقها الرحبة لمختلف العلوم والفنون ولست في حاجة إلى القول إن اللغة العربية هي الأداة الطبيعية للتعليم الجامعي والعالي وذلك لاعتبارات قومية وعلمية واجتماعية إذ أن الفكر الأصيل لا يخلق في الأمة إلا إذا كانت تعلم بلغتها وتكتب وتؤلف بلغتها وقد أكدت ذلك كل المؤتمرات والندوات العلمية التي توالى عقدها في البلاد العربية منذ عام ١٩٦١ وما تلاه والتي نظم معظمها وأشرف عليها اتحاد الجامعات العربية لدراسة مشكلات التعليم الجامعي وأخص من بينها المؤتمر

(*) ألقي البحث في الجلسة العلنية (العاشرة) مساء الأربعاء ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م

العام الذى عقده الاتحاد فى فبراير عام ١٩٧٣ والإستفتاء الذى اضطلع به المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى بالمغرب عام ١٩٦٦ وكانت هذه المؤتمرات تستنهض الهمم بضرورة إسراع الجامعات العربية بتعريب التعليم فى كلياتها المختلفة واستخدام اللغة العربية كذلك فى البحث العلمى وفى التقنيات الحديثة كما أن اليونسكو كرر دعوته وتوصيته بجعل اللغة العربية لغة التعليم فى مراحله المختلفة وفى مقدمتها مرحلة التعليم الجامعى بل إن قانون الجامعات حرص على النص على أن تكون اللغة العربية لغة التعليم والتدريس وإن كان قد سمح بتأجيل إعمال هذا النص فى بعض الأحوال وإنما كان ذلك لأجل موقوت

وقضية التعريب فى التعليم العالى والجامعى ترتكز على محاور أو اهتمامات ثلاثة هى الأستاذ والكتاب والطالب وسأعرض إلى كل منها وما أصابها جميعاً من تطور فى ربع القرن الأخير فى مصر مع الاستشهاد بكلية العلوم بجامعة القاهرة التى أعمل بها منذ خمسين عاماً وأود أولا أن أذكر أن فى مصر الآن اثنتى عشرة جامعة تضم قرابة نصف المليون من الطلاب يدرسون فى مائة وواحد وسبعين كلية ومعهداً بالإضافة إلى ستة عشر معهداً عالياً تابعا لوزارة التربية والتعليم وتحت إشرافها فى مصر الآن ٢٤٠ مائتان وأربعون مركزاً ومعهداً للبحث العلمى — وشهد ربع القرن الأخير فى مصر الجانب الأكبر من هذه الزيادة الهائلة فى أعداد الطلاب والكليات والمعاهد وازدادت تبعاً لذلك أعداد أعضاء هيئة التدريس بالتعليم الجامعى والعالى ومن بين هؤلاء الطلاب قرابة مائة وخمسين ألفا يدرسون معظم مقرراتهم باللغة الإنجليزية وهم طلاب كليات العلوم والهندسة والطب البشرى وطب الأسنان والصيدلة والطب البيطرى والمعهد العالى للتمريض ومعهد العلاج الطبيعى ويقوم بالتدريس لهم نحو خمسة عشر ألفا من الأساتذة والأساتذة المساعدين والمدرسين والمدرسين المساعدين والمعيدين (٦٣٠٠ من هيئة التدريس و ٨٧٠٠ من المدرسين المساعدين والمعيدين) وذلك بخلاف أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأزهر — وهناك فعلاً من المقررات فى بعض هذه الكليات تدرس باللغة العربية كما سيتضح فيما بعد وخلاصة القول أن نحو ٣٠٪ (ثلاثين فى المائة) من مجموع طلاب المرحلة الجامعية فى مصر ونحو ٥٠ ٪ (خمسين فى المائة) من مجموع أعضاء هيئة التدريس فى هذه المرحلة يدرسون ويدرسون باللغة الإنجليزية فى الوقت الحاضر — أردت بذكر هذه الأعداد من أساتذة وطلاب أن ألمح إلى حجم المشكلة وأبعادها فى الحاضر والمستقبل قريبه وبعيده

دور الأستاذ والمعلم فى قضية التعريب :

لست فى حاجة إلى التأكيد أن دور الأستاذ أو المعلم دور رئيسى فى قضية تعريب التعليم العالى والجامعى وأحد أركانه

الركيبة وقد شهد ربع القرن الأخير فى مصر نشاطا ملحوظا فى الدراسات العليا وحصل على درجة الدكتوراه من الجامعات المصريه بضعة آلاف أهلتهم درجاتهم العلميه التدريس بالجامعات أضف إلى ذلك الآلاف أخرى عادوا من الخارج بعد أن أتموا دراساتهم العليا بالجامعات الأجنبية بانجلترا وأمريكا وفرنسا وبلاد الكتله الشرقيه وغيرها وتخصص الكثير منهم فى العلوم البحته والتطبيقيه ويقومون بتدريس أغلب هذه العلوم باللغه الانجليزية فى كلياتنا وجامعاتنا المختلفه على مدى سنوات طوال حتى اليوم وتجذبهم فى ذلك الماده العلمية الجاهزه فى مراجعها الأجنبية ويميل بهم التراخى إلى تكرارها ويخشون استخدام اللغه العربيه فيحتاجون إذن إلى بذل جهود مضاعفه فى الترجمه والإعداد هم فى غنى عنها حين يستخدمون اللغة الأجنبيه ويا ليت اللغه الأجنبية التى يتعلم بها الطلاب لغه سليمة بل هى آخذه فى التردى وقد زاد الطين بله تكدس الطلاب بالآلاف مما جعل مهمة الأستاذ باللغه الصعوبه وعجز الطلاب عن استيعاب الماده العلميه وفهمها وهضمها تماما بهذه اللغه الأجنبيه ويكفى أن نطلع على أوراق اجاباتهم بكليات العلوم والطب التى أعرفهما حق المعرفة لنرى انحدار المستوى اللغوى والعلمى فى هذه الأيام والذى بلغ درجه من الضعف عند كثير من الطلاب لم يسبق لها مثيل ومع ذلك نرى عزوفا عن التدريس باللغة العربيه

وعلى الجانب الآخر نرى صوراً مشرقه وضاءة لنفر من أعضاء هيئة التدريس بجامعاتنا المصريه خاضوا التجربه — تجربة التدريس باللغه العربيه فى عزم وإصرار وأبلوا فيها أحسن البلاء ومن بين هؤلاء عالم فاضل هو الأستاذ الدكتور على محمد كامل رئيس قسم هندسة الطاقة بكليه الهندسه بجامعة عين شمس وكان قد اتم دراسته العليا بانجلترا قال وهو يصف التجربه التى خاضها فى التدريس باللغه العربية منذ على عقد من الزمان وأنا أزاول التدريس بالخليط العربى الإنجليزى قبل أن استجمع عزيمتى واستندت إلى نص قانون الجامعة الذى يعتبر العربيه لغه التدريس ما لم تكن هناك عقبات فى سبيل ذلك وخطوت نحو التعريب الكامل للمحاضرة فلم أجد العقبات التى كان بعض الناس يتصورها فكثير من المصطلحات كان متداولا وإن احتاج بعضه إلى شئ من التهذيب وغيرها كانت تحتويه المعاجم وإن اعتراه بعض التشتيت أما الباقى فقد أفادتنى خبره التدريس لعشر سنوات خلت فى الوقوف على معناه إلى درجة تؤدى فى يسر إلى اختيار اللفظ العربى الصالح لتأديته وكان على أن اتعود اتباع الاسلوب العلمى الصارم فى التعبير حتى أصل إلى أقرب الطرق وأوضحها إلى أذهان الدارسين فأنقل إليهم المفاهيم فى ترتيب منطقى سلس .

وتحضرنى تجربة أخرى تستحق التسجيل خاضها الدكتور عبد الملك أبو عوف الأستاذ بكلية الصيدله بجامعه القاهره حين انتدب لتدريس الكيمياء العضويه بجامعه دمشق واضطر لتدريسها باللغة العربية لأول مرة واستطاع أن يفعل ذلك بعد بضعة أسابيع ثم قارن بين عمله فى القاهره وفى دمشق فى قوله « وما أحب أن أركز عليه . هو حسن النتائج التى أحرزها الطلاب بالنسبه لنتائج اقرانهم طلاب كليه الصيدله بالقاهره وضخامة التحصيل وحسن الاستيعاب الذى توصلوا إليه إلى أن قال إن تفهم الطالب للغه المحاضره والشرح كان مغنيا عن بذل مجهود مضاعف يصرف نصفه لفهم اللغة والتعرف على المفردات الصعبه فى اللغه الأجنبيه التى يدرس بها . ويصرف النصف الآخر من الجهد لاستيعاب المادة العلميه نفسها فضلا عما يعتور ذهن الطالب أحيانا من غموض فى المعنى أو نقص فيه يختل معه بناء المعلومات أو تصل إليه بغير الصوره المقصوده من المحاضر.

وجدير بى فى هذا المقام أن أنوه بجهود عالم من خيره علمائنا فى مصر هو المغفور له الدكتور محمد ولى الذى أصر على تدريس علم الحيوان باللغه العربيه طوال ربع قرن بكليه العلوم جامعه القاهره وعمل جاهداً مع زملاء له على رأسهم الأستاذ الجليل الدكتور كامل منصور فى تعريب الكثير من المصطلحات وكنا نجلس إليه ونأخذ عنه ونذكر له محاضرته التى ألقاها فى عام ١٩٣٤ بالمجمع المصرى للثقافة العلمية عن « العربية لغة للعلم » والتى جاءت معبرة عن رغبة حارة فى صدورنا فى تعريب التعليم الجامعى والتى لم تزل متقده حتى اليوم على الرغم من العقبات التى تعترض طريق النجاح ولذلك كانت كلية العلوم من أوائل الكليات التى عنيت بتعريب التعليم وسعدت بعدد من علمائنا وقممنا الشامخة الذين أبلوا فى هذا المجال أحسن البلاء وجهودهم بارزة شاخصة حتى اليوم أمثال المغفور لهم الدكتور على مصطفى مشرفة عالم الرياضيات والدكتور أحمد زكى عالم الكيمياء وعضو مجمع اللغة العربية فى مصر والدكتور محمود توفيق حفناوى عالم النبات والزراعة وعضو المجمع أيضاً ثم الدكتور كامل منصور عالم الحيوان أمد الله فى عمره

وفى أوائل الستينيات استقر الرأى على تدريس العلوم الطبيعية وعلوم الحياة بالسنة الإعدادية لطلاب الطب باللغة العربية وألفت لذلك كتب مترجمة فى هذه العلوم منها كتاب علم الحيوان العام وكتاب علم النبات العام وكتب فى الكيمياء والفيزيقا تضم آلاف الصفحات والمصطلحات واستمر التدريس باللغه العربيه عده سنوات وكانت النتائج مذهلة من حيث استيعاب الطلاب للمادة

العلمية وتفهمها فى سهولة ويسر وللأسف الشديد عدل عن هذا القرار وعاد التدريس باللغة الإنجليزية استجابة لما طالبت به كلية الطب وتكررت نفس القصة بالنسبة لطلاب السنتين الأولى والثانية بكلية العلوم فى أوائل السبعينيات — وبعد سنوات ثلاث فى شهر مايو عام ١٩٨١ وافقت لجنة قطاع الدراسات الطبية التابعة للمجلس الأعلى للجامعات على السماح باستخدام اللغة العربية فى التدريس بكليات الطب ولكن قامت قومة أساتذة الطب للحيلولة دون تنفيذ هذه التوصية وسبقت فى هذا الاتجاه محاولات أخرى قادها الدكتور محمد سليمان أستاذ الطب الشرعى بجامعة القاهرة ومعه نفر من المؤمنين بهذه الرسالة ولكن لم يكتب لهذه الجهود النجاح . ومرد ذلك إلى فرية يروجها المغرضون أو المتخوفون من أن اللغة العربية قد تقصر عن الوفاء بمتطلبات التعبير عن علوم الطب أو غيره باللغة العربية وعن ملاحقة التطور العلمى السريع فى هذا المجال وفاتهم أن جامعة دمشق تقوم بتدريس الطب باللغة العربية منذ خمسين عاماً حتى اليوم كما فاتهم أن أقرانهم من الأساتذة بالكليات الأخرى ككلية الزراعة وغيرها يدرسون مادتهم العلمية باللغة العربية منذ سنين طويلة وتخرج على أيديهم العديد من العلماء والباحثين

وجملة القول إنه لا سبيل إلى تعريب التعليم العالى والجامعى ما لم يؤمن بذلك الأستاذ وعضو هيئة التدريس وما لم تترسخ فى ذهنه قناعة قوية بأهمية التعريب باعتباره قضية قومية ووسيلة فعالة للارتقاء بمستوى التعليم ودفع حركته خطوات بناءة فسيحة إلى الأمام وأن تتوافر جانب هذه القناعة وهذا الإيمان أحدث المراجع العلمية باللغة العربية وله فى ذلك دور كبير ترجمة وتأليفاً وتعريباً للمصطلحات مع تأهيله للتدريس بالعربية ليحسن لغته ويستقيم لسانه وقد كتب العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى دراسة قيمة فى موضوع تأهيل أعضاء هيئة التدريس بالعربية ونشره فى مجلة المجمع منذ أربع سنوات — إذا اجتمعت كل هذه المقومات واقترنت بقرار سياسى حازم بتعريب التعليم الجامعى لاعتبارات قومية وعلمية واجتماعية فلا شك أن عضو هيئة التدريس سيمضى فى تأدية رسالته التعليمية بالجامعة بلسان عربى مبين

الكتاب وقضية التعريب :

إذا كان الأستاذ أو المعلم يمثل ركنا ركيناً فى قضية تعريب التعليم الجامعى فكذلك الكتاب فهما صنوان فى هذه القضية عليهما يتوقف النجاح وبهما تنطلق حركة التعريب خطوات فسيحة إلى الأمام

وفى ربع القرن الأخير زخرت المكتبة العربية بالآلاف من الكتب العلمية بالكليات الجامعية والمعاهد العليا التى تدرس علومها باللغة العربية ولكن على النقيض من ذلك

ظلت المكتبة العربية حتى اليوم فقيرة في
الكتب والمراجع العلمية بالعربية التي يعتد
بها مؤلفة أو مترجمة بكليات العلوم والهندسة
والطب بفروعه المختلفة باستثناء بعض
المقررات في هذه الكليات إذ لها كتب
بالعربية لأنها تدرس بهذه اللغة وقلما تجد في
مكتبة كلية العلوم بجامعة القاهرة مثلا كتباً
باللغة العربية في الكيمياء أو الفيزيقا أو
الحيوان أو النبات اللهم إلا بعض كتب أراها
النسيان في هذه العلوم كما قد ألفاها في
أوائل الستينيات حين كان التدريس لطلبة
إعدادية الطب باللغة العربية واستمر أيضاً
بضع سنوات ثم انفرط عقده وعاد التدريس
سيرته الأولى باللغة الإنجليزية — مرد ذلك
الذي نشهده من قلة المراجع العلمية العربية
بالجامعات وكلياتها العلمية إلى العزوف
عن التأليف بالعربية أو ترجمة أمهات
الكتب والمراجع العالمية إلى العربية في غيبة
الحافز الذي يدفع إلى ذلك ومرد ذلك أيضاً
إلى الأزمة التي تمر بها حركة الترجمة بوجه
عام لا في مصر وحدها بل في بلاد أخرى
من الوطن العربي وغني عن البيان أن الترجمة
ضرورية لتحقيق التواصل الفكري الدائم
بيننا وبين العالم الغربي الذي تتقافز خطواته
في معارج الرقي والتقدم كما أن اللغة العربية
تزداد غنى وثراء بالترجمة وتتسع آفاقها
بالحصيلة الجديدة التي تضاف إلى مخزون
تراثها وتصبح أقدر على تأدية رسالتها في
عصر العلم والتقدم العلمي والتكنولوجي بفضل
عملية التلاحم التي تصطلع بها الترجمة .

وعن موضوع الترجمة وعصورها
الزاهرة لا أريد أن أذهب بكم بعيداً إلى عصر
اليقظة الإسلامية كما يقول أستاذنا الكبير
الدكتور إبراهيم مدكور حين انطلق «حنين
ابن إسحق بأمر الخليفة المأمون إلى القسطنطينية
باحثاً عن الكتب والمراجع وبوجه خاص
عن مؤلفات جالينوس ولا أظن أن جالينوس
أحيي إلا على يديه وعلى أيدي من عاونوه
من مترجمين وتلاميذ وإذا كانت القرون
الوسطى المسيحية قد عرفت شيئاً في القرن
الثالث عشر الميلادي عن الطب اليوناني
إنما عرفته عن طريق الطب العربي، إلى أن
قال «إذا رجعتم إلى كتاب الفهرست لابن النديم
وجدتم طائفة قيمة من تلك الترجمات التي
كانت دعامة الحركة الفكرية والعلمية في
القرن الثالث الهجري أو العاشر الميلادي
وفي جو هذه الترجمة تخرج أكبر طبيب
عربي هو أبو بكر الرازي كل ذلك يؤكد
أن علينا أن نستعيد ما أخذ به السابقون من
إعداد المراجع والتراجم والمؤلفات »

كذلك لن أذهب بكم إلى عصر قريب
ازدهرت فيه الترجمة في مصر حين قام
رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٥)
والذي أطلق عليه شيخ المترجمين في عصره
قام بتشجيع من محمد علي والي مصر بعد
عودته من بعثته في فرنسا هو وأقرانه مثل

عشرات الكتب والمؤلفات فى مختلف الفنون والعلوم الحديثه إلى اللغه العربية مما كان له أبعد الأثر فى النهضة العلميه والثقافية الحديثه فى مصر فى ذلك العهد وما تلاه — كذلك لا أريد أن أذهب بكم إلى أيام المقتطف فى مصر الذى ظل أكثر من خمسين عاماً منذ أواخر القرن التاسع عشر (حين بدأ نشاطه عام ١٨٧٦ فى بيروت ثم انتقل إلى القاهرة فى عام ١٨٨٥) يحمل بمختلف التراجم والموضوعات العلميه والمصطلحات باللغة العربيه — أو أذهب بكم إلى أيام زاهرة أيام لجنه التأليف والترجمة والنشر فى مصر والتى كانت تضم نخبه من أساطين العلم والفكر والأدب من بينهم شيخ المجمعين أستاذنا الدكتور مدكور وقد زودت هذه اللجنة على مدى ثلاثين عاماً ونيف المكتبه العربية بطائفة من الكتب والمؤلفات القيمه التى كانت عوناً كبيراً للتعليم العالى والجامعى وللأسف الشديد وتحت ضغط الظروف توقف نشاطها منذ سنوات وكذلك كان مصير مشروع الألف كتاب الذى نهضت به إدارة الثقافة بوزاره التعليم فى الستينيات .

ورحم الله أستاذنا المجمعى الدكتور أحمد زكى عالم الكيمياء واللغوى الأديب حين بدأ دعوته المدوية فى أوائل الثلاثينيات بكليه العلوم بجامعة القاهرة بضرورة البدء فى ترجمة أمهات الكتب العلمية إلى اللغة العربية كخطوة فى تعريب التعليم الجامعى وقد كتب فى ذلك المقالات وألقى المحاضرات ومن تابع كتاباته فى مجلة العربى لرأى كيف كانت اللغة العربيه بعظمتها وغناها طوع قلمه ويراعه يطرق بها مختلف الموضوعات العلميه ويصف بها المستحدث من علوم العصر فى مكنة واقتدار وكانت كتاباته العربية فى العلم قمة فى الأداء والاستقصاء — وقد قاد عدد من علمائنا الأعلام هذه المسيرة فى الدعوة إلى تعريب التعليم الجامعى فى مصر وأحياء التراث العلمى أمثال الدكتور محمد كامل حسين والأستاذ مصطفى نظيف والدكتور على مصطفى مشرفه والدكتور كامل منصور والدكتور محمد ولى والدكتور محمد مرسى أحمد والدكتور عبد الحليم منتصر وغيرهم وقد كتبوا كثيراً وألفوا وترجموا وحققوا كتبا رائده من تراثنا العلمى العربى .

وعلى أى حال ففى أواخر الخمسينيات شهدت الأوساط الجامعية حركة طيبة بدأها المجلس الأعلى للعلوم عندما وضع برنامجاً لترجمة أمهات الكتب والمراجع فى العلوم الأساسيه كإسهام فى تعريب التعليم الجامعى ولإيجاد الكتاب العلمى العربى الجامعى الذى يرجع إليه وتم بالفعل ترجمة ما يقرب من ثلاثين كتاباً من هذه الكتب والمراجع على يد نفر من العلماء وأساتذة الجامعات ذوى الباع الطويل والخبرة الواسعة فى هذا المجال وطبعت هذه الكتب طبعاً أنيقاً جيداً وزود الكثير منه بكشافات تضم المصطلحات

العلمية الأجنبية وفقاً لأنها باللغة العربية ومن المحزن حقاً أنه لم يمض على هذا العمل الجليل والإنجاز المرموق بضع سنوات حين ألغى المجلس الأعلى للعلوم حتى أسماء هذه الكتب ونواها النسيان إذ أن عدم التدريس بالعربية هدم رأس الكثير من الجهود المخلصة التي بذلت في سبيل إنجازها .

وتجربة أخرى مماثلة قامت بها مؤسسة فرانكلين في مصر بدأتها في الستينات حين أخرجت إلى المكتبة العلمية العربية العديد من الكتب والمراجع ويحضرني منها كتاب ضخم في علم الحشرات من أعظم المراجع في هذا العلم أنفقت مع بعض الزملاء في ترجمته إلى اللغة العربية ومراجعته قرابة ثلاث سنوات وزودناه بألف وخمسمائة من الأسماء والمصطلحات الأجنبية ومعادلاتها بالعربية ومن الأسف أيضاً أنه لم ينتفع به وبغيره مما ترجم وعرب الانتفاع الأمثل في التعليم الجامعي ويعلم الله كم أنفقنا فيه من جهود وعناء ونصب .

وسط هذه الحسرة على ما فات يتبدى على الجانب الآخر ما يبعث على التفاؤل والأمل فقد حمل ربع القرن الأخير وما قبله بتطور ملحوظ بالنسبة للكتاب العربي الجامعي وبالنسبة لاتخاذ اللغة العربية لغة للتدريس بالجامعة في كليات العلوم والهندسة والطب البيطري وسأذكر أمثلة لبعض المقررات أو المناهج الدراسية التي تدرس باللغة العربية في هذه الكليات الجامعية في مصر في الوقت الحاضر ويمتحن فيها الطلاب بهذه اللغة ولها كتبها ومراجعها باللغة العربية وهي حركة مباركة نرجو لها الاطراد والنماء لأن ما يدرس من المناهج والمقررات باللغة العربية في هذه الكليات لا يزال قلا لا كثرا

أولاً : في كليات العلوم على مستوى الجامعات المصرية تدرس الرياضيات في السنتين الأولى والثانية باللغة العربية .

وفي بعض كليات العلوم (مثل كلية العلوم — بجامعة عين شمس) يدرس علم البيئة النباتية والنبات الزراعي وفسيولوجيا النبات والحشرات باللغة العربية في السنتين الأولى والثانية .

وفي كلية العلوم بجامعة المنصورة تدرس العلوم كلها باللغة العربية لطلاب السنة الأولى وتشمل علوم الكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والجيولوجيا والرياضيات ولها كتب مؤلفة باللغة العربية

وفي كلية العلوم بجامعة الأزهر تدرس علوم السنة الإعدادية باللغة العربية وكذلك علوم الأجنة والتطور والبيئة والتصنيف في السنوات الأخرى

ثانياً : في كليات الهندسة تدرس علوم السنة الإعدادية باللغة العربية وتشمل

الرياضيات والفيزيقا والميكانيكا والكيمياء والهندسة الوصفية وغيرها

كما تدرس مقررات أخرى فى خواص المادة والمساحة والحجوم والكميات باللغة العربية فى السنتين الأولى والثانية بكلية الهندسة بجامعة عين شمس ويدرس علم المساحة بالسنة الثالثة والسكك الحديدية والطرق وتخطيطها بالسنة الرابعة وغيرها من المقررات بالكلية بعينها باللغة العربية أيضا .

ثالثا فى كليات الطب البيطرى تدرس علوم الوراثة بالسنة الأولى وتربية الحيوان والاقتصاد الزراعى بالسنة الثانية باللغة العربية والكل من هذه العلوم الثلاثة كتبها ومراجعها باللغة العربية

رابعا : فى كليات الطب والصيدلة وطب الأسنان : عزوف بين عن التدريس والتأليف باللغة العربية حتى الآن ولو أنه فى بعض المواد كالطب النفسى بجامعة عين شمس يجوز للطالب أن يجيب باللغة العامة والرمد والأمراض العصبية باللغة العربية .

الطالب الجامعى والتعريب :

كلمة قصيرة عن تالث العناصر أو المحاور فى قضية التعريب وهو الطالب الجامعى فهو بمثابة التربة التى يتعامل معها الأستاذ فاذا صلحت وصلحت مكوناتها آتى التعريب أكله وأتى بأعظم النتائج وأطيب الثمرات .

وفى ربع القرن الأخير شهدت الجامعات المصرية نموا مطردا وازديادا هائلا فى أعداد الطلاب الملتحقين بها بعد أن زالت كل العقبات التى كانت تحول بين جماهير الطلاب والتعليم الجامعى فازدحمت قاعات الدرس بحشود منهم بلغت الآلاف بدرجة لم يسبق لها مثيل فى السنوات الأخيرة مما جعل مهمة المحاضر فى أغلب الأحيان بالغة الصعوبة فى تأديته واجبه التعليمى على النحو الذى يرضيه وأصبحت العلاقة بين الأستاذ والطالب ضعيفة واهية إن لم تكن معدومة وفى الوقت نفسه تعذر على كثير من الطلاب فهم المادة العلمية التى تلقى عليهم بلغة أجنبية واستيعابها وهضمها مما كان له أبعد الأثر فى ضعف مستوى الطلاب وانخفاضه وقد تبدى ذلك فى وضوح وجلاء فى إجاباتهم فى الامتحان وغير ذلك من المواقف والمناسبات

وإذا كنا ندعوا لتعريب التعليم الجامعى ، وهو أمل طالما اشرأبت لتحقيقه الرؤوس وتطاولت الأعناق وهدف قومى اسمى طالما سعينا إليه -- علينا أن نعمل على رفع مستوى الطالب الجامعى فى اللغة العربية بعد أن هبط لديه ولدى غيره إلى الحضيض وأصبحنا نجأر بالشكوى لما وصل إليه حال اللغة العربية هذه الأيام لدى شبابنا بعد أن كنا نقرأ كليلة ودمنة لابن المقفع والعبرات للمنفلوطى ونحن فى أولى مراحل التعليم ويمكن أن يتم ذلك

عن طريق وضع مناهج متطورة وبرامج تعليمية لتدريس اللغة وقواعدها الأساسية إنما الذى يجب أن يتم كذلك بل هو قطب الرحى فى هذه العملية هو العناية باللغة العربية والإعداد اللغوى لطلاب التعليم العام بمراحله الابتدائية والإعدادية أو مرحلة التعليم الثانوى وهى المراحل التى تسبق التعليم الجامعى ولذلك بات أمرا بالغ الأهمية أن نعيد النظر بصورة جذرية فى تعليم اللغة العربية فى هذه المراحل وتطوير برامجها ووسائلها التعليمية ليكتمل بذلك البناء اللغوى السليم لجميع الذين ينهون الدراسة الثانوية ويلتحقون بعد ذلك بالجامعات بل يذهب البعض وهو محق سديد إلى ضرورة العناية باللغة العربية فى مراحل الطفولة ليستقيم اللسان مبكرا نطقا وتعبيرا — وبهذا التكامل لاينفصل التعليم الجامعى عن التعليم العام ويستقيم الأمر لدى الأساتذة والطلاب على حد سواء ويصبح التعليم عربيا فى جميع مراحله

هيئات علمية ولغوية تنهض بحركة فى مصر:

حفل ربع القرن الأخير وماقبله بنشاط ملحوظ فى مصر من هيئات علمية ولغوية تعمل جاهدة فى صبر وأناة على اتخاذ العربية لغة للعلم وتطبيقاته وفى مقدمة هذه الهيئات مجمع اللغة العربية ولا أجاوز الحقيقة إذا قلت إن أعظم إنجاز قومى وعربى أخذ بيد اللغة العربية وانطلق بها إلى آفاق رحبة لتواكب عصر العلم ومقتضيات التطور ويسهم فى حركة التعريب هو إنشاء مجمع اللغة العربية فى مصر وإنشاء أشقائه من المجامع اللغوية فى الوطن العربى — ولعل مايعنينا فى المقام الأول بالنسبة لتعريب الكتاب العلمى الجامعى هو المهمة الكبرى التى يضطلع بها المجمع ويحملها على كتفيه ألا وهى وضع المصطلحات العلمية — وغنى عن التعريف أن لجان المجمع العلمية المتخصصة حين تتصدى لترجمة مصطلح أو تعريبه تدرس المصطلح معنى ومبنى وأصله اللاتينى أو اليونانى وتبحث عن أفضل المقابلات له باللغة العربية وترجع فى ذلك إلى مختلف المعاجم اللغوية وقد تجد مقابلا أو مأثورا دقيقا غير مطروق فى الكتب القديمة فتأخذ به ليشيع استعماله ويمر المصطلح فى مراحل عدة من الدراسة المتخصصة والتمحيص والمناقشات فى لجان المجمع ومجلسه ومؤتمره كمياه نصقله وصوغه الصياغة المثلى وقد أقر المجمع من المصطلحات العلمية أكثر من ثلاثين ألف مصطلح علمى منها

فى الكيمياء والصيدلة ٤٥٢٢ ، وفى الفيزيقا ٣٥١٤ ، وفى الأحياء والزراعة ٥٤٢٦ ، وفى الجيولوجيا ٤١٩٦ ، وفى الرياضيات ٨٥٧ وفى النفط ٩٥٤ ، وفى الهندسة والهيدرولوجيا ٣١٩٤ وفى الطب ٧٨٦٧

كما أنجز عددا من المعاجم العلمية المتخصصة منها :

معجم الكيمياء والصيدلة ، معجم الفيزيقا النوويه ، معجم الجيولوجيا ، معجم علوم الاحياء ، معجم الفيزيقا الحديثه وذلك بالإضافة إلى ٢٦ جزءا من مجلة المجمع حافلة بالآلاف من هذه المصطلحات

وتحضرني كلمة المغفور له الدكتور أحمد عمار نائب رئيس المجمع فى معرض حديثه عن المجمع والمصطلحات — قال طاب الله ثراه «على مدى خمسين عاما مضت كان مجمع اللغة العربية فى مصر مدراسا للمصطلح العلمى تناصرت فيه جهود اللغويين والعلميين فى العالم العربى لاقتحام المجالات العلمية على اختلافها حتى ظفرت الجهود المجمعيه بالثقة والتقدير من أهل العربية جميعا واكتسبت ألوف مصطلحات المجمع الشرعيه اللغوية والشرعية العلمية على سواء» ؟

واست فى حاجة إلى القول إن هذه الثروة اللغوية الهائلة من المصطلحات العلمية تأخذ طريقها رويدا رويدا إلى قاعات الدرس بالجامعات وإلى كتب المؤلفين والمترجمين الذين يدرسون علومهم باللغة العربية بالكليات الجامعية وهى باذن الله المعين الزاخر لحركة تعريب التعليم العالى والجامعى حين يكتمل الشوط الذى بدأناه وتصبح محاضراتنا بكليات العلوم والهندسة والطب تلقى بلسان عربى مبين ويقتضينى الإنصاف أن ألمح إلى جهود الاتحاد العلمى المصرى فى ربع القرن الأخير وهو أحد روافد الاتحاد العلمى العربى الذى توقف نشاطه منذ سنوات والذى نرجو له أن يعود شامخا كما كان ليؤدى رسالته العلميه واللغوية فى الوطن العربى .

واصل الاتحاد المصرى منذ نشأته عام ١٩٥٦ نشاطه فى اتخاذ اللغة العربية لغة للعلم وفى سبيل ذلك أبلى بلاء حسنا فى موضوع المصطلحات العلمية وترجمتها وإيجاد المقابلات العربيه المناسبة لها وقد أنجز منها بضعة آلاف ونشرها الاتحاد فى كتبه وقد أشرف على هذا العمل وكان دعامه وعماده عالم ثبت هو المغفور له الأستاذ مصطفى نظيف رئيس الاتحاد آنذاك وعضو مجمع اللغة العربية وقد عاونه فى ذلك استاذ جليل كما معه هو الدكتور عبد الحليم منتصر الذى دفع بهذه المصطلحات إلى المؤتمرات العلميه العربيه التى كان ينظمها الاتحاد العلمى العربى وكان آخرها مؤتمر بغداد عام ١٩٦٦ وجدير بالذكر ان هذه الجهود التى قام بها الاتحاد استمدت عونها من مجمع اللغه العربية بالقاهرة والمجامع اللغوية الشقيقة فى الوطن العربى ومكتب التعريب بالرباط وما انجزته فى هذا المجال — وانبثقت كذلك من رغبة

خارقة تعتلج فى صدور كثير من العلماء فى هذا الاتحاد للتدريس والتأليف باللغة العربية لطلبة الجامعات إيمانا بأن الطالب يستوعب المادة العلمية باللغة القومية بدرجة تفوق كثيرا عما لو تلقاها باللغة أجنبية وقد قام على ذلك الدليل تلو الدليل

ويجدر بى كذلك فى هذا المقام أن أذكر أن الجمعيات العلمية فى مصر والتى قدر عددها فى ربع قرن الأخير حتى بلغ ثلاثا وتسعين جمعية علمية تقوم بدور بارز فى اتخاذ اللغة العربية لغة للعلم فمعظمها ينشر دراساته ويلقى محاضراته باللغة العربية كالاتحاد العلمى المصرى والمجمع المصرى للثقافة العلمية والبعض الآخر الذى ينشر بحوثه بلغة أجنبية يلحق بالبحث ملخصا باللغة العربية كالأكاديمية المصرية للعلوم وتزخر عضوية هذه الجمعيات بالآلاف من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات ومن شباب العلماء

وأود كذلك أن أشير إلى بادرة طيبة بكلية الطب بجامعة الأزهر حيث يقوم بعض أساتذتها بالترجمة والتأليف باللغة العربية فى تخصصاتهم أذكر منهم الدكتور محمد عبد العزيز الذى وضع أول كتاب فى علم الرمد وطب العيون باللغة العربية ضمنه أحدث البحوث والتعديات فى هذا العلم وكذلك الدكتور عبد اللطيف عثمان الذى كتب فى الغدائيات والأمراض العصبية وآخرين مثل الدكتور عبد الحميد إبراهيم الأبياد يعاون كتاباتهم فى تخصصات أخرى إسهاما منهم فى تعريف العلوم الطبية والطبيعية بجامعة الازهر ونرجو مخلصين أن تمتد هذه الحركة المباركة لتشمل الجامعات الأخرى فى مصر.

بقى أن أشير أيضا إلى نشاط علمى فى هذا المجال يقوم به منذ سنوات مركز الأهرام للترجمة العلمية ولعله الوحيد من نوعه فى الوقت الحاضر فى مصر وهو يعتبر اليوم أنشط هيئة علمية تقوم على ترجمة كتب العلوم وإعداد المعاجم والتصدى لأمهات الكتب والمراجع فى الرياضيات والطب والتكنولوجيا وغيرها كما لا يفوتنى كذلك أن أنوه بالنشاط الملحوظ فى إصدار المعاجم العلمية فى مصر وفى الوطن العربى وأهميتها بالنسبة لقضية التعريب وتيسير مهمة العلماء والدارسين الذى يضطلعون بمشروع التعريب ونقل العلوم إلى اللغة العربية — وفى هذا المقام نود أن نستكمل المسيرة بأصدار معاجم أخرى وافية فى المستحدث من فروع العلم مثل ريادة الفضاء والحسابات الألكترونية والتكنولوجيات الحديثة الأخرى ولو أن محاولات تبذل فى هذا السبيل والأمل فيها كبير

الانفتاح على التطور العلمى العالمى :

بقيت نقطة هامة تستلزم الإيضاح وهى يجب ألا يتبادر إلى الذهن ونحن ندعو لقضية التعريب ونعمل لها لتصبح حقيقة واقعة أننا نريد الانغلاق على أنفسنا بل العكس هو الصحيح — وهو الانفتاح على العالم الخارجى

على علمه وفكره وإنجازاته الحديثة فى العلم وتطبيقاته ومواكبةركب التقدم العلمى المذهل الذى نشهده فى هذا العصر ولا شك أن ذلك يعتمد فى المقام الأول على اتقان لغة أجنبية من اللغات الحية كالإنجليزية أو الفرنسية مثلا نطل بها إطلالات نيرة متمرة على منجزات العلم وآفاقه الرحبة فى كل رحا من الأرجاء — علينا الاهتمام بتعليمها فى اثناء المرحلة الجامعية بل وفى أثناء مرحلة التعليم العام لأننا أصبحنا فى عصر لا يجوز فيه لخريج الجامعة طبيبا كان أم مهندسا أن يقف عند لغته القومية إذا أراد أن يتابع التقدم العلمى العالمى فى مجاله وتخصصه — وإذا كان تعلم اللغة الأجنبية ضروريا لطالب المرحلة الجامعية ليتسع بها أفقه ويستعين بها على مزيد من الدرس والاطلاع الخارجى فانه واجب أساسى وحتمى بالنسبة لطالب الدراسات العليا بالجامعة إذ لا يمكن أن يجرى بحوثه أو ينشر إنجازاته وهو بمعزل عن منجزات العلم والعلماء فى كل مكان ودون أن تقوم قنوات الاتصال بينه وبين غيره من العلماء فى الخارج ولن يتأتى ذلك دون اتقان لغة أجنبية حديثا وكتابة وفكرا — ولذلك ينبغى أن يكون من بين الأهداف الرئيسية عند إعداد طلاب الدراسات العليا العمل على اتقانهم واجادتهم للغة أجنبية إذ هم الصفوة المختارة للبحث العلمى والقيادة العلمية ويجدر بى فى هذه المناسبة أن أشير إلى أن برامج الدراسة فى كليات العلوم وبالأخص فى جامعة القاهرة تشمل برنامجا لتدريس اللغة الإنجليزية لطلاب السنين الأولى والثانية وبرنامجا لتدريس اللغة الألمانية لطلاب السنتين الثالثة والرابعة وآخر مكثفا لطلاب الدراسات العليا ولكن يلزم لها مع ذلك المزيد من الاهتمام والجدية .

مقترحات وتوصيات :

فى سعينا لتعريب التعليم العالى والجامعى والعمل على تحقيقه كاملا بالكليات التى يجرى فيها التدريس بلغة أجنبية شهدت المجامع والهيئات العلمية فى مصر خلال ربع القرن الأخير وفيما بعد الثلاثينات عشرات الأحاديث والمحاضرات والدراسات والمؤتمرات والندوات حول هذه القضية كانت آخرها ندوة أقامها الاتحاد العلمى المصرى منذ عامين عن تعريب لغة العلم فى التعليم الجامعى رأسها وتحدث فيها شيخ المجمعيين أستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور كما تحدث فيها نخبة من علماء الطب والعلوم والهندسة على مدى يومين كاملين وقد خرجت الندوة بالكثير من الآراء والاقتراحات والتوصيات استعين بها فأقول

— إذا خطونا فى سبيل تعريب التعليم العالى والجامعى خطوات فى ربع القرن الأخير وآن الأوان لأن نستكمل الشوط ونؤدى الرسالة كاملة .

- أثبتت التجربة أن السبيل الوحيد لتعريب لغة العلم هو المعلم والكتاب ومعلم أى مادة إنما يدرسها على نحو ما تعلمها فلنأخذ أنفسنا فى كلياتنا العلمية بأن ندرس ونحاضر باللغة العربية إلى جانب الإنجليزية فى مرحلة تمهيدية وستنتهى بنا إلى تعريب تام .

- تعريب الكتاب شرط أساسى لهذا التعليم وعلينا أن نؤلف ونترجم فى لغه عربيه واضحة سليمة لكى نعد لكل علم مراجعه العربية وواجب جامعاتنا أن تسهم إسهاما كبيرا فى التشجيع على التأليف والترجمة كى تعد المكتبة العلمية العربية المتخصصة .

- ليس معنى التعريب أن نهمل اللغات الأجنبية العالمية ومع أخذنا بالتعريب لا بأس من أن يكون بين مواد الامتحان ورقه أو أكثر بلغه أجنبية .

- دعوة المجلس الأعلى للجامعات أن يتكفل بمواجهة هذه القضية وفى وسعه أن نخطط لها ويعد عدتها ونود أن نؤكد على النقاط الآتية :

أولا أن قضية التعريب قضية قومية ذات أثر كبير فى النهوض بالتعليم العالى والجامعى ورفع مستوى الخريجين وأن فى ثراء اللغه العربية وسموها وحيويتها وآفاقها الرحبة قدره فائقة على استيعاب التطور المتلاحق فى شتى قطاعات العلم والمعرفة وعلى الوفاء بمطالب العلوم الحديثة والتقدم التكنولوجى فى هذا العصر .

ثانيا التوسع فى تعريب المصطلحات العلمية ووضع المقابلات العربيه المناسبة لها لا سيما فى المستحدث من فروع العلم والتكنولوجيا ومتابعه الجهود الكبيرة التى يقوم بها مجمع اللغه العربيه فى مصر والمجامع العربيه الشقيقه الأخرى فى هذا المجال مع حفز العلماء والباحثين على استخدام هذه المصطلحات واشاعتها فى كتبهم ومؤلفاتهم ودراساتهم الجامعية والدعوة إلى أن يذيل كل كتاب أو مؤلف علمى بقائمة المصطلحات الوارده فيه ومقابلاتها باللغة العربية .

ثالثا · العمل على توحيد المصطلحات العلمية فى الوطن العربى للقضاء على بلبله قائمه فى استعمال المصطلح الواحد بمقابلات عربية مختلفه فى البلاد العربيه ومتابعة الجهود التى يقوم بها اتحاد المجامع العربية فى هذا المضمار .

رابعا : ضرورة التوسع فى وضع المعاجم العلميه المتخصصه باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية وقد أسهم مجمع اللغه العربيه والمجامع العربية الأخرى بقسط كبير فى هذا السبيل .

خامسا . توجيه عنايه خاصة إلى ترجمه مجموعات متكاملة من أمهات الكتب والمراجع العلمية الأجنبية مع ضرورة التفكير فى إنشاء مركز قومى للترجمة يتولى جمع المعلومات وتبادلها وتنشيط حركة الترجمه والتأليف والنشر ورعايتها .

سادساً توجيه عناية خاصة إلى تعليم اللغات الأجنبية فى مراحل التعليم المختلفة : فى مرحلة التعليم العام ثم فى مرحلة التعليم الجامعى ثم فى مرحلة الدراسات العليا وفى هذه المرحلة الأخيرة يتحتم اتقان لغة لغة اجنبيه (الإنجليزية) وإجادتها حديثا وكتابه وفكرا لطلاب هذه المرحلة ووضع البرامج الكفيله بذلك ليتاح الانفتاح على العالم الخارجى والاتصال بالتطور العلمى ومنجزات العصر .

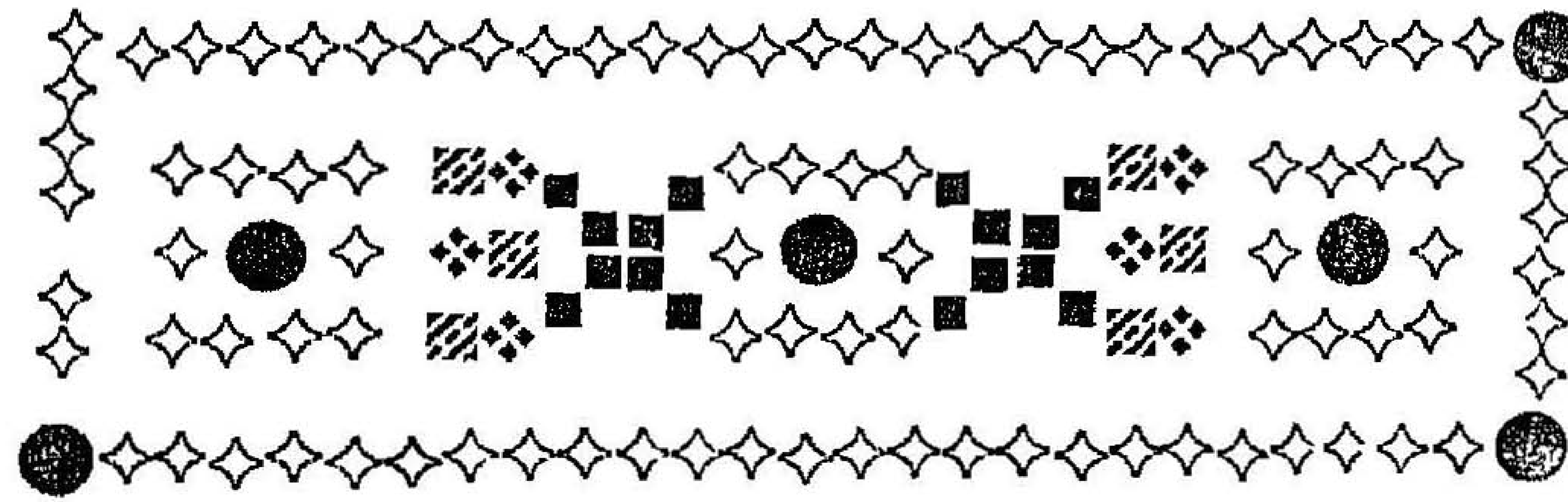
سابعا : تكثيف العنايه باللغة العربيه فى جميع مراحل التعليم وبصفه خاصة فى التعليم الجامعى وتطوير برامجها وطرق تدريسها مع العمل على تأهيل أعضاء هيئه التدريس بالجامعات والمعاهد العليا للتدريس باللغة العربيه

ثامنا التأكيد على ضرورة إعداد ملخصات باللغه العربيه لجميع البحوث والدراسات التى تنشر باللغة الأجنبية فى المجلات العلميه المختلفة ودعوة الجمعيات العلمية إلى القيام بهذا الواجب القومى .

هذه اقتراحات وتوصيات حول قضية التعريب طالما رددتها المؤتمرات والندوات على مدى سنوات ولا أرانى فى حاجة إلى التأكيد على أنه إذا أريد لتوصياتنا أن ترى النور وتأخذ طريقها نحو التنفيذ لنستكمل الشوط الذى بدأناه ولاحت تباشيره فعلى الدولة أن تتبنى قضيه تعريب التعليم العالى والجامعى بقرار سياسى حازم يوفر لها كل الإمكانات التى تكفل لها الحل والانطلاق باعتبارها قضيه قوميه وثيقة الصلة بكياننا العربى ومستقبل الأجيـال الصاعده .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

محمود حافظ
عضو المجمـع



مواكبة التعليم باللغة العربية للتطور العلمي

للدكتور محمود الجليلي

إنه لشرف عظيم وسرور كبير أن أتحدث أمام هذه الصفوة الكريمة فى مؤتمر مجمع اللغة العربية الموقَّر عن « مواكبة التعليم باللغة العربية للتطوّر العلمى » . ولقد سبق لى أن تكلمت قبل ثمانى عشرة سنة أمام المؤتمر عن « لغة عربية للعلوم » .

إن أكثر ما يقلق العاملين فى الشؤون العلمية باللغة العربية هو مسايرة اللغة فى الوقت الحاضر للتطور العلمى السريع فى كثير من فروع المعرفة ، وبخاصة العلوم الصرفة (البحتة) والعلوم التطبيقية والطب ومايدعى الآن بالتقنيات Technology

ويمكن أن تتحقق تلك المواكبة بأمر واحد ، أو أكثر ، من الأمور الآتية :

١ – معرفة اللغات التى تُستعمل فى العلوم والتقنيات فى الوقت الحاضر ، ويبدو أن اللغة الإنكليزية من أهمها ، إذ يتداولها باحثون ومؤلفون من عدد كبير من البلاد التى ليست هى اللغة الأُمّ فيها . كما يُتَرْجَم إلى اللغة الإنكليزية كثير مما يُنْشَر فى اللغات الأُخرى .

ولابدّ من القول بأنّ العلم أصبح عالميًّا ، ويسّرت وسائل الاتصالات الحديثة انتشاره . وأصبحت لغة العلم والتقنيّات ، أو بالأصح مصطلحاتها ، متقاربة أو موحّدة فى كثير من الأقطار المتقدمة فيها ، حيث أن معظم اللغات الأُوربية متشابهة الحروف والأُصول ، ومن السهل على من يتقن إحداها أن يتعلم مايكفى لفهم عام للموضوع

(*) ألقى البحث فى الجلسة الحادية عشرة ١٠ / ٥ / ١٩٨٥ م .

الذى يقرؤه باللغة الأخرى ولكن اللغة العربية مختلفة عنها بأصولها وطريقة كتابتها ، وإذا لم يعرف العربى لغةأوربية فإنه لا يتمكن من قراءة أى شىء فيها .

ولابد من الإشارة إلى أنّ من الضرورى أن يتقن العلماء والمدرسون فى الجامعات والباحثون لغة أجنبية أو أكثر ، وأن تكون للآخرين القدرة على فهم ما يقرأون فى اختصاصهم . ويشترط عدد من الجامعات العالمية ، التى لغتها هى اللغة الإنكليزية ، معرفة لغة أخرى أو لغتين أخريين (معرفة فهم) عند منح شهادة الدكتوراة . ولكن ذلك ليس معمولًا به فى بلادنا .

٢ ـ الترجمة إلى اللغة العربية · ويأخذ ذلك وقتاً طويلاً ، ويحتاج إلى مترجمين يتقنون اللغة المأخوذ منها ، واللغة التى يترجمون إليها . وأن يكون لديهم معرفة كافية فى الموضوع . ثمّ إن الترجمة الدقيقة الواضحة هى صنعة أو فن يعتمد على تلك الأمور .

وفى بعض الدول الرئيسة فى العالم مراكز كبيرة لترجمة العلوم ، يقوم بها مترجمون متفرغون للعمل فيها ، وباحثون أو علميون يتقنون اللغات الأجنبية ، ترسل إليهم المقالات المطلوب ترجمتها ، وربما بلغ عددهم الألوف ، وتتمّ ترجمة البحوث المهمة خلال أسابيع ، وترسل إلى الباحثين المختصين ، وتأخذ البحوث الأخرى دورها فى الترجمة خلال مدة معقولة لا تتجاوز بضعة أشهر

ولقد زار كاتب هذا البحث أحد هذه المراكز العالمية قبل ربع قرن ، وقيل فى حينه إن الذين يساهمون فى هذه العملية يُعَدُّون بعشرات الألوف .

وهناك مؤسّسات أخرى تترجم إلى اللغة الإنكليزية من اللغات الأخرى ، وتنشر ذلك فى كتب أو دوريّات

إن القيام بعملية مناسبة للترجمة إلى اللغة العربية يحتاج إلى التعاون على مستوى الوطن العربى كله ، ليتمّ نقل المعرفة إلى اللغة العربية . وأن يكون هناك جهة منظّمة تمتدّ فروعها وتتصل بأكبر عدد ممكن من الذين بإمكانهم المساهمة فى ذلك.

٣ ـ تصدر بعض الدوريّات الطبية بأكثر من لغة واحدة فى الوقت ذاته ، أو فى أوقات

متقاربة . ويمكن الاتفاق مع بعض هذه المؤسسات على أن تكون اللغة العربية إحدى اللغات التى تصدر بها تلك الدوريات (المجلات) ، أو أن تقوم المؤسسة العربية المختصة بالترجمة من مجلات كهذه فى الوقت الذى تطبع فيه ، فلا يفوت وقت طويل بين صــدورها بلغتها الأصلية وصدورها باللغة العربية .

٤ - نشر البحوث العلمية التى يقوم بها سكان الأقطار العربية باللغة العربية ، ولا مانع من نشرها بلغة أخرى من اللغات العلمية العالمية فى الوقت ذاته ، مع الإشارة إلى ذلك . وهذا يستوجب وجود مراكز بحث بإمكانها إنتاج البحوث التى فيها إضافة إلى المعرفة ولابد من الإشارة بهذه المناسبة إلى أنه لايجوز التركيز على البحوث التطبيقية وترك البحوث الأصيلة ، لأن الإنتاج العلمى المهم ينمو فى البيئة التى تبقى على صلة بالبحوث الأصيلة .

٥ - إصدار مجلات مراجعات وملخصات Reviews and Abstracts باللغة العربية ، كما هو موجود فى اللغات الأخرى ويكتب المراجعات خبراء بالموضوع يستعرضون فيها المهم والجديد مما نشر فى الزمن القريب .

٦ - إصدار كراسات وكتب تختص بموضوع واحد Monognafhs باللغة العربية ويحسن أن يكون ذلك على طريق سلسلة متكاملة أو أكثر .

٧ - التأليف باللغة العربية ، ويشمل ذلك تأليف الكتب الدراسية Textbooks أو الكتب المراجع Reference Books ،

ويكون لها رئيس تحرير يخطط لتأليف الكتاب ومادته ، ويضمن حسن التوازن بين أقسامه ، وأن يكون ذلك على مستوى الوطن العربى ، ليتم التداول بسرعة وإعادة الطباعة قبل أن تصبح الكتب قليلة الفائدة فى بعض فصولها ، بسبب تطور مادة تلك الفصول . كما أن فى ذلك فائدة كبيرة لتحقيق الانسجام العلمى بين الأقطار العربية .

* * *

إن التطور العلمى والتقنياتى العالمى السريع ناتج عن بحوث وتجارب علمية

تنشر المعلومات عنها بطرق مختلفة ، أهمها الدوريات Periodicals ، وتشمل المجلات[٥] ، وبعضها أسبوعى مثل Science (العلم) و Nature, (الطبيعة) فى العلوم باللغة الإنكليزية ، « ولانسيت » Lancet ، والمجلة الطبية البريطانية ، British Medical Journal ومجلة النقابة الطبية الأمريكية Journal of the American Medical Association وغيرها فى الطب باللغة الإنكليزية . وقسم من الدوريات شهرى ، وبعضها يصدر كل شهرين أو كل ثلاثة أشهر وقليل منها السنوى ، وبعضها غير منتظم . وبعض هذه الدوريات ينشر المقالات الأصيلة وغيرها وأخرى تنشر المراجعات والخلاصات ، وهناك مجلات تجمع بين هذا وذاك .

ويصدر فى العالم ألوف الدوريات الطبية والعلمية ، ومن هنا تبرز أهمية مواكبة التطور العلمى السريع وضخامة ذلك والجهد الذى يجب أن يُبْذَل باستمرار لتحقيق الهدف المقصود .

ولمعرفة مدى حجم المادة التى تنشر سنوياً بالطب ، رجعنا إلى مصدر مهم يسمى « الفهرس الطبي المجُمَّع Cumulated Index Medicus » يصدره سنوياً معهد الصحة الوطنى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى بيثيسدا فى ولاية ميريلاند National Institute of Hea lthe, Bethesda, Maryland, U S.A. ويتضمن عناوين المقالات التى تنشر فى المجلات الطبية المُفَهْرَسَة فيه ، بمختلف اللغات وأسماء مؤلفيها ومحل نشرها . يقع إصدار سنة ١٩٨٣ فى ١٤ مجلداً ، مجموع صفحاتها ١٤٨٣٤ صفحة ، فى كل صفحة ثلاثة أعمدة ، وفى كل عمود ١٠٢ (مائة سطر وسطران) ومعدل كلمات[٦] كل سطر ثمانى كلمات .

أحصيت عدد المجلات التى تفهرس فيه فكانت ٢٥٠٥ مجلات ، يُضاف إلى ذلك ٢٨٠ مجلة ، يُفَهْرس منها ما له أهمية طبية ، فيكون مجموع المجلات المفهرسة ٢٧٨٥ مجلة فى مختلف أنحاء العالم .

ويتضمن الكتاب كذلك ثبتا بالمراجعات الطبية Bibiliography of Medical Reviews

وقد تضمن إصدار سنة ١٩٨٣ (٧٥٠) عنواناً رئيسياً . ويقصد « بالمراجعات » المقالات التى تتضمن مسحاً شاملا جيد التوثيق للمنشورات الطبية الحديثة فى موضوع معيَّن .

ويصدر معهد الصحة الوطنى فى الولايات المتحدة الأمريكية كتاباً آخر بعنوان « الفهرس الطبى » Index Medicus

يتضمن كذلك عناوين المقالات الموجودة فى المجلات الطبية المفهرسة فيه ، وأسماء مؤلفيها ومحل نشرها ، ويقع إصدار سنة ١٩٨٣ فى ١٢ مجلدًا معدل صفحات كل منها ١٤٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة .

وليس من المطلوب الاطلاع على كل ما يُنْشَر فى الطب وفروعه ، ولكن يجب أن يكون هناك مقدار مناسب من المعرفة الطبية الحديثة باللغة العربية . ويمكن الاكتفاء بعدد محدود من الدوريات الرئيسية واختيار المادة التى تحتاجها المشورات العربية .

وتنشر كذلك مجلدات سنوية تتضمن خلاصات للمقالات المشورة فى الدوريات فى فروع المعرفة المهمة ، منها الخلاصات الأحيائية Biological Abstracts والخلاصات الكيمياوية Chemical Abstracts وغيرها .

* * *

وتحتاج مواكبة هذا التطور العلمى السريع باللغة العربية إلى مصطلحات مقبولة إلى حد معقول ، وأن يتم اختيارها وإعدادها بسرعة تساير سرعة التطور العلمى ، وحيث أنه توجد مصطلحات سابقة لايوجد ما يقابلها فى اللغة العربية ، فلا بدّ من العمل بطريقة تناسب الحالة الجديدة ، وأرجو أن يسمح لى السادة الأساتذة الأفاضل بعرض الأمور التالية :

١ – تقوم المجامع باختيار المصطلحات الأساسية فى العلوم والتقنيّات ، وتتعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً ، وتنشأ بقية المصطلحات التى تعتمد عليها تدريجياً .

إن معظم الكلمات فى العلوم والطب مستندة إلى أصول محدودة ، فبعد اختيار هذه الأصول الأساسية أو وضعها ، يتمكن الباحثون والمؤلفون أنفسهم من السير فى طريق واضحة بالاعتماد على هذه القاعدة العريضة الرصينة ، ويقومون بالصياغة والتركيب والإضافة ، فتتكون حصيلة كبيرة من المصطلحات تساير الزيادة السريعة الكبيرة فى التطور العلمى .

ثم إن تعاون الجامعات والمؤسسات العلمية ومعاهد البحوث والمعنيين بالمصطلحات مع المجامع فى هذا الأمر، يؤدى إلى الإنجاز السريع القويم

٢ - أنْ يكون اختيار المصطلحات نظامياً، فلا تُترك فجوات كبيرة فيها، وأن تُدْرَس الكلمات المتقاربة أو المتقابلة أو المتتابعة فى الوقت نفسه

٣ - إن قيام جهات عديد باختيار المصطلحات أدّى إلى وجود كلمات مختلفة للمصطلح الأجنبى الواحد فى أقطار عربية مختلفة، وفى بعض الأوقات فى القطر الواحد نفسه، وكذلك بين العلوم المختلفة فقد يوضع للكلمة الأجنبية الواحدة فى الرياضيات والفيزياء والهندسة مقابلات عربية مختلفة، بالرغم من التقارب بين هذه العلوم.

إن التنسيق والتعاون بين القائمين بإعداد المصطلحات واختيارها أمر ضرورى للتقليل من الاختلافات، وذلك قبل أن تستقرّ مصطلحات كل قطر، فيؤدى ذلك إلى بلبلة كبيرة وصعوبات عملية على مستوى الوطن العربى.

إن دور اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية فى تحقيق الانسجام والتوحيد، دور أساسى وفعّال، والمطلوب من اتحاد المجامع أن يقوم بعقد اجتماعات تناقش فيها الكلمات المختلف عليها، بعد إعداد علمى مناسب، فإنّ الكلمات المتفق عليها من التسميات والمصطلحات تشكل الغالبية العظمى منها.

* * *

ولقد توصلنا إلى تعريف ربما يكون له تأثيره فى اختيار المصطلحات، وهو أن يُعَرَّف اختيار المصطلحات، بأنه (صنعة أو فنّ يعتمد على علوم)، مثلما عُرِّفَ الطب بأنه صنعة أو فن يعتمد على علوم.

ولا بدّ من مواجهة الحقيقة القائمة، وهى إن هناك مدارس مختلفة فى اختيار المصطلحات :

(أ) المُعْجَميُّون - الذين لايريدون الخروج عن المعنى الحرفى، والصيغ الواردة فى المعجمات، وهذا يؤدى إلى تجميد اللغة، وهو الأمر الذى تحاشاه الأسبقون فى عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. ثمّ إن كثيراً من الكلمات قد تطور معناها بعد

ظهور الإسلام ، فأصبح لها مدلولات معيّنة وتمّ الاشتقاق منها كذلك ، وهذا خير مثال يحب السير على هداه

ثمّ إن هناك اختلافاً بين المعاجم اللغوية فى بعض الأمور الدقيقة التى لها أهمية خاصة فى الاستعمال العلمى والطبى ، وهناك مدلولات مختلفة فى المعجم نفسه ، ولاضير فى ذلك ، وهو موجود فى اللغات الأخرى . ولكن الاختيار الصائب من بين هذه المدلولات وإعطاها صفة الاصطلاح والالتزام بذلك ، يجعل بين أيدينا عدداً كبيراً من المصطلحات المناسبة .

ومثال ذلك ماورد فى « سنّ الإنسان » فى المعاجم اللغوية والكتب الطبية من عدم الانسجام ، ومن أهم ذلك كلمات : الصبى والفتى والشاب ، مما يوجب الاختيار من بين هذه المدلولات . وكذلك ماورد فى النوم وأنواعه ودرجاته .

وتتضمن المعاجم شروحاً غير دقيقة لبعض الأسماء ، مثلاً : الأبْهَر ، وهوالشريان الرئيسى الذى يخرج من البطين الأيسر من القلب ، ومنه يمر الدم إلى الجسد كله ، فى القاموس المحيط (الأبهر : الظهر ، وعرق فيه ، ووريد العنق . والأكحل) ، فاستعمال كلمة الأبهر الشريان الرئيسى وإهمال المدلولات الأخرى فى الوقت الحاضر هو استعمال صائب .

ثم إن المعاجم لاتحوى كل اللغة العربية ، وهى تتضمن ماذكره مؤلّفوها فيها ، ولابد من الاستفادة من كتب العلوم المختصة مثل كتب الطب العربية القديمة ، وكتب الرياضيات والفلك والكتب التى تبحث فى الحيوانات والنباتات ، والمؤلفات التى تتضمن المصطلحات والتعريفات ، علاوة على المؤلّفات العامة فى الحضارة والآداب والتاريخ .

ويتضمن الكلام الاعتيادى فى الأقطار العربية كلمات لا يوجد ما يدل على أنها غير عربية ، لكنها ليست موجودة فى المعاجم اللغوية وهى تؤدى فى الوقت نفسه مدلولا علمياً دقيقاً . إن من المفيد دراسة هذه الكلمات ، على أن لا تكون أجنبية الأصول . ويظهر أن واضعى

المعاجم أهملوها ، ولكنها بقيت مئات السنين مستعملة في أماكن كثيرة ، فهل يجوز إهمالها ؟

ولا بد كذلك من استعادة الكلمات العربية التي دخلت اللغات الأجنبية مثل الفارسية واليونانية واللاتينية أو غيرها من اللغات. كما أنّه لابد من إعادة النظر في الكلمات التي اعتبرها بعض المؤلفين دخيلة في اللغة العربية ، وهي ليست كذلك ، وإن تحقيقاً دقيقاً ينقض تلك الادعاءات ، فكثير منها موجود في اللغات العربية القديمة

(ب) الانطباقيون – وهم الذين يريدون أن ينطبق اللفظ العربي انطباقاً تاماً على المصطلح الأجنبي ، وأن يتضمن كل مدلوله ، وهذا أمر ليس مفروضاً ولامطلوباً في المصطلح ، والا صار تسمية ولم يكن مصطلحاً . ثم هل المصطلح الأجنبي يؤدى مثل هذا المدلول الشامل

إن الجمع بين المعجمية والانطباقية يؤدى إلى شلل في نمو المصطلحات

ج – الذين يرون ضرورة الاستمرار على تطور اللغة وتطبيق ما سبق أن عمله أئمة اللغة العربية من الاشتقاق والمجاز وغير ذلك ، واستعمال عدد كبير من الصيغ التي يمكن الاستفادة منها . ولقد نشرنا بحثاً عن صيغ افتعال وانفعال وتَفْعال وفَعْلون وصواب القياس عليها ، وصغنا كثيرًا من المصطلحات العلمية والطبية على هذه الأوزان

ولابد من القول بأنّ ما أجازه بعض علماء اللغة يكون مقبولًا ،وإن لم يجزه آخرون ، فإنّ الإجماع في بعض أمور اللغة لم يكن مطلوباً دائماً .

إننا بهذه الطريقة نساير التطور العلمى ونبتعد عن الكلمات الدخيلة في وقت واحد .

* * *

ونحتاج إلى خطة مستقرة وواضحة تتطور مع الوقت والممارسة للوصول إلى النتيجة المتوخاة ، ويشمل ذلك ·

(ا) قيام مؤسسات تؤدى هذا العمل ويتعاون بعضها مع بعض على مستوى الوطن العربي .

(ب) اتصال دائم وسهل ومباشر بين مراكز البحوث ودور الكتب والمراجع العالمية .

(ج) إيجـاد مراكز توثيق Documentation Centres دوات مستوى عالٍ تتعاون فيما بينها .

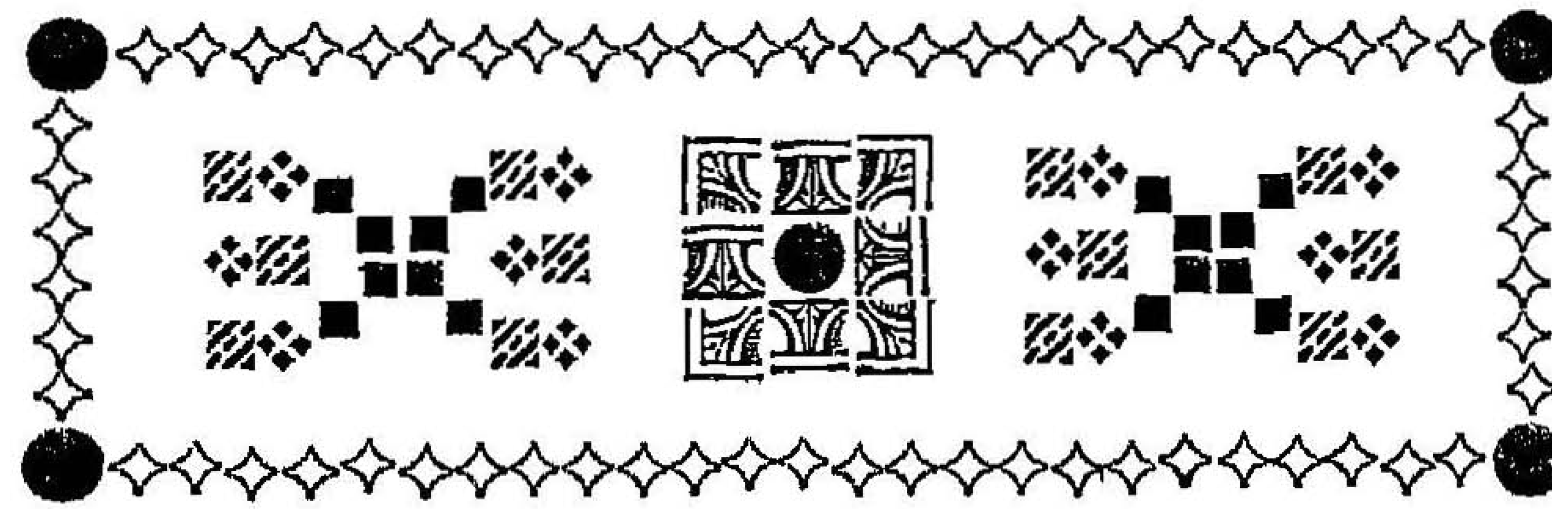
(د) الاستفادة من التقنيات الحديثة مثل الحسّابات Computors ووسائل الاتصال البعيد وما إلى ذلك . وربما كان من المفيد تخصيص وقت معين محدّد أثناء دوام المراكز العلمية لذلك بوساطة الساتل العربي Arabsat .

(هـ) إن « تعريب » العلوم والتقنيات يجب أن لايقف عند حد استعمال اللغة العربية فى التعامل معها ، وإنما يجب أن يكون التفكير عربياً . وهو آتٍ لاريب فيه إن شاء الله .

والله الموفق إلى مافيه خير هذه الأمة الكريمة واللغة العظيمة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمود الجليلى
عضو المجمع المراسل من العراق



لغة العلوم فى التدريس الجامعى
وهل تصلح العربية
أم لا غنى عن التدريس باللغات الأجنبية
للأستاذ عبد الله كنون

إن لغة العلوم فى التدريس الجامعى وفيما قبله من مراحل الدراسة فى العالم العربى يجب أن تكون هى العربية ، ولا يصح أن تكون غيرها بحال ولئن كان ما أثار هذا التساؤل من جديد هو تقرير الخبراء الأجانب الذى أوصى بإجماع الآراء بضرورة تعليم الطب فى جامعة حلب باللغة الإنكليزية فإن ماوراء هذا الإجماع من نية مبيتة لغزو عاصمة بنى حمدان غزوا فكريا على غرار ماوقعه (دنلوب) من قبل فى بلاد الكنانة ، هو مما لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان .

والغريب فى أمرنا نحن العرب أن مقوماتنا الأولى من لغة وتربية وما إلى ذلك هى التى نجعلها محل استشارة واستشارة أجنبية بالخصوص فى حين أن الشعوب التى تريد أن تبنى كيانها على أساس من ماضيها وحضارتها وتطلعاتها للمستقبل ، تخطط لنفسها وتستعين بالأجانب على التنفيذ .

فعلى أحسن ما يكون الظن بهؤلاء الأجانب ألا يوحى موقفنا هذا بالضعف والتخاذل والشك فى قوميتنا العربية؟ وإذن فإن الأجنبى أولى منا بالشك فى صلاحية مقوماتنا ولا نتوقع منه أن يتحمس لها دوننا لأن من لم يؤمن بنفسه لا يؤمن به الناس .

ولقد قرأت فى العدد الأخير من مجلة دنيا العلوم استجوابا أجرته المجلة مع البروفسور (واووستر) أستاذ علم البلورات بجامعة كمبردج ورئيس الاتحاد البريطانى للمشتغلين بالعلوم وأمين صندوق الاتحاد العالمى للمشتغلين بالعلوم وذلك بمناسبة زيارته للقاهرة ، جاء فيه عندما سئل عن رأيه السريع فيما يجب أن يكون عليه التعليم فى البلاد النامية ، فقال على الفور : يجب أن يكون فى التعليم الابتدائى فلسفة البلاد القومية وأن يكون فى التعليم الثانوى لغة عالمية إلى جانب تدريس اللغة القومية ، مع ضرورة التدريب على الأعمال اليدوية وقيام التلاميذ بتجارب عملية بأنفسهم لا أن يقوم المدرس بتجربة

(*) قدم البحث إلى مؤتمر المجمع فى دورته الحادية والخمسين .

عملية أمام التلاميذ وهم يتفرجون فقط ، فاذا أردنا أن نحقق لشعب ما تدريبا متينا فيجب أن يبدأ هذا التدريب في كل مكان .

وما قاله هذا العالم الكبير هو الذي نقول به ، فإن إضافة لغة أجنبية أو لغتين إلى اللغة القومية في التعليم الثانوي ، هو مما لا مندوحة عنه لإتاحة فرص التعليم في الخارج ولمتابعة الاطلاع على المجالات العلمية من نظريات وابتكارات سواء كانت هذه اللغة القومية هي العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو سواها فالعربية في هذا تتساوى مع غيرها من اللغات في عدم صحة الاستغناء عن اللغات الأخرى ولعل البروفسور (ووستر) سكت عن التعليم الجامعي . لأن السؤال كان عن التعليم في البلاد النامية ، والبلاد العربية في هذا الميدان ، أعني ميدان التعليم . ليست من البلاد النامية ، لغتها العربية ، لغة حية ومتطورة وعريقة في المجال العلمي والحضاري وهذا أمر لا يجهله مثل البروفسير إلا أن يكون المستجوب من أولئك الذين يشعرون بمركب النقص الذي أشرنا إليه آنفا إزاء اللغة العربية فيكون سكوت المجيب عن هذه النقطة بالذات من أساليب الحكمة في الجواب .

نعم إن بلادنا العربية بلاد نامية اقتصاديا لكنها علميا بلاد متقدمة ، لأن لها ثقافة روحية وتشريعية عظيمة ولها أدب عالمي خالد ولعلها بالمكانة التي ذكرت . فليس ينقصها إلا تكوين علمي تقني سريع لتلحق بالركب الطلائعي التقدمي وتجبر خللها الاقتصادي الذي يلزمها في حظيرة الشعوب النامية ، وربما كان هذا التكوين هو ما يعنيه (ووستر) بالتدريب المهني على ما جاء في آخر كلامه .

ويؤيد هذا أن الحكومة المغربية استقدمت لجنة من خبراء البنك الدولي للإنشاء والتعمير بقصد الاستشارة ، فكان من رأيها أن ازدواجية لغة التعليم هي مما ستنزف مالية المغرب (تلتهم ميزانية وزارة التربية الوطنية ملايين من الفرنكات يصرف معظمها في أجور الأساتذة الفرنسيين فضلا عن كونها السبب في هبوط مستوى التعليم) وأوصت باعتماد لغة البلاد وجعلها اللغة الأساسية للتعليم

ولقد يعجب القارئ من إخلاص هذه اللجنة الأجنبية وإشارتها الصائبة . ولكنه إذا تذكر أنها لجنة مالية لا تعامية وأن ما قامت به هو مقارنة الأرقام بين الموارد والمصارف في قطاعات المصالح الحكومية ، فلم يكن يهمها التمكين لهذه الجهة أو تلك وإنما عرضها إيجاد وضع سليم . إذ ذاك زال عجبه وعرف سر تلك النصيحة الخالصة .

وعليه فان بيننا وبين تخطي عتبة التخلف هو نشر التعليم بلغتنا القومية ورفع مستوى شعوبنا من الأمية العلمية التي تتخبط فيها إلى مستوى الشعوب المتعلمة المتمرسة ببسائط العلوم ونواميس الطبيعة . أي نقل العلم إلى المجتمع العربي وجعل أفراده يدركون حقائقه ومقتضياته كما يدركها أي فرد في مجتمع راق من المجتمعات المعاصرة . ولن يكون ذلك

إلا إذا تعلم الشعب العربي بلغته الأم ، وطوع لسانه على التعبير عما يشاهده ويحسه بألفاظ يعرف مبناها ومعناها. أما أن يتعلم عدد من الأشخاص بلغة أجنبية فمعناه نقل هؤلاء الأشخاص إلى عالم العلم وزيادة عدد المتعلمين في اللغة التي تعلموها ولا تستفيد شعوبهم كبير فائدة منهم ، لأن التفاهم بينها وبينهم معدوم بسبب اللغة التي هي أكبر حاجز يمنع هذا التفاهم بل يمنع حتى الاتصال . ولعل هذا هو السر في أن النهضة العلمية في بعض الأقطار العربية بدأت منذ حوالي قرن ومازالت لم تؤت أكلها على النحو المرغوب . ومازال الشعب العربي فيها يعيش بعقلية القرون الوسطى

يشير بعضهم إلى وجوب ملاحقة ركب المعرفة وضرورة الاتصال بأوساط العلم في آخر ما أنتجت من أجل التقدم الإنساني المطرد ، قائلا إن ذلك لا يتأتى إلا ممن تلقى تعليمه العالي بإحدى اللغات الأجنبية الحية ونحن نقول إنه يتأتى لمن أتقن لغة من تلك اللغات ولا يلزم أن يتلقى تعليمه العالي بها وقد قلنا بضرورة تلقين لغة أجنبية أو اثنتين منذ المرحلة الثانوية للمتعلم ، وإنما الذي ينبغي تأكيده هو أن يكون هذا التلقين قويا ليتقن المتعلم تلك اللغة كما هو الحال عند غيرنا من الأمم والشعوب ، فإذا جاوز مرحلة التعليم العالي وحصل الطالب على الدرجة العلمية المنشودة بلغته الأصلية ، كان عنده من الوسائل العلمية ما يؤهله لمواكبة قافلة البحث العلمي والتقني في العالم بكل نجاح ، إن هو أراد ذلك . وهذا هو ما يفعله العالم الفرنسي والألماني وغيرهما من علماء الأمم التي تقف في الصف الأول من حيث التصنيف في التقدم والحضارة ، وكذا علماء غير هذه الأمم ممن يقفون في الصف الثاني وإن كانوا في الطريق وعلى وشك اللحاق بأولئك . فليس منهم من يدرس العلوم في بلاده بغير لغته القومية ، اللهم إلا أن يستدعى لأستاذ أجنبي تستقدمه جامعته لإلقاء بعض المحاضرات في فرع من فروع المعرفة يكون له اتصال عام به . أو يذهب في بعثة دراسية إلى بلد أجنبي . وحينئذ تكون اللغة الأجنبية التي لقنها في الثانوي هي وسيلته في الدراسة وفي إقامته في ذلك البلد الأجنبي ، لابد أن يتقن في لغة حتى يمكنه مواصلة تعليمه بها .

وعلى كل فإن الاطلاع على دنيا العلم وما يجد فيها من تجارب وكشوف ، مرهون بالهمة والنشاط وحب المعرفة أكثر من كل شيء آخر فكم من دارس بهذه اللغة الأجنبية أو تلك قد تمكن منها كل التمكن وصار أعرف بها من كثير من أهلها . وإذا تكلمها فإنه لا يخرم حرفا ولا نبرة من نبراتها ولكنه في مجال العلم والبحث والاطلاع صفر على اليسار ، قد يقطع ما بينه وبين التحصيل منذ تخرجه ولم تعد منه أمنية سيئا بالذكر بل هو يستكمل تحصيله لها بما أنه تنكر لمعارفها وأدبها حتى لقد أصبح عبئا ثقيلا على مجتمعه لا يستسيغه ولا ينسجم وإياه .

وبالعكس فإن هناك دارسين موجودين في أعمالهم العربية والتطلع وقد غدوا ؟ ...

العلم والمعرفة ولو لم يكونوا على مثل الرسوخ والتطلع فى اللغة الأجنبية الذى عند صاحبنا الأول ، فنراهم دائما على اتصال بما جد ويجد فى حقل الخبرات الإنسانية والأعمال الفنية المبتكرة ينشئون وينتجون باستمرار ودون انقطاع ،مايثرون به تراثهم القومى وحياة الفكر فى بلادهم. فهؤلاء هم الذين تعول عليهم الأمم والشعوب فى تطوير عقليتها وإخصاب ثقافتها ،لاأولئك الطفيليون الكسالى ،الذين لاغناء فيهم ولافائدة ترجى منهم :

ونعطى مثالا من مغربنا العربى الذى يعتمد الفرنسية فى الدراسات العامه ،فإن عشرات بل مئات من مثقفيه ،قد انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة العلميه ،أو على الأقل لايعرف لهم أثر فى هذه الحياة . وقد مر على تخرج الكثير منهم عشرات السنين وذلك برغم إتقانهم للغه الفرنسيه إتقان أبنائها لها فالطبيب منهم يعالج المرضى إن لم يشغل وظيفة حكومية يكون أكثر دخلا من مهنته تاركا ميدان التطبيب للدكتور الأجنبى ، وكذلك المحامى والمهندس وغيرهما لايزيدان على مزاولة مهنتهما بصفة عادية ، ولقد عجز كثير منهم حتى عن إعداد أنفسهم للتدريس بالعربية فى المدارس الثانويه لإنجاز مشروع تعريب التعليم فأين ما يزعمه هذا الذى يقول إن الدراسة اللغة أجنبية تفتح آفاق التعليم والاطلاع ؟

ولنقارن حال هؤلاء بحال طالب مجتهد أكمل دراسته باللغة العربية فى بلاده ، ثم ذهب فى بعثة دراسية إلى فرنسا فحصل على الدكتوراة فى الفلسفة والأدب بتفوق ولما رجع إلى بلاده قام بحركه فكرية وأدبية عظيمه ، درس ، وبحث ، ونقد وألف فى أكثر فنون الأدب كتبا قيمة . نقل الكثير منها إلى اللغات الأجنبية وغيرها وما لبث أن صار عميد الأدب العربى ورئيس المجمع اللغوى . والغريب فى الأمر أنه ضرير ، فبكم نقاس الدكتور طه حسين من الدارسين باللغة الفرنسية الذين ليس لهم همة وعزيمة ، وإن كانوا فى إتقان الفرنسيه والعلم بها ربما يفوقونه ؟

والعبقرى الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ، إنه لم يكن حتى من الذين درسوا دراسة جامعية باللغة العربية ، ومع ذلك فإنه كان آية فى الاطلاع والتفتح على أحدث الأنظار العلمية والفلسفية ، وتغذية الأدب العربى والثقافة الإسلامية بأحسن ما ظهر فى عالم الفكر والمعرفه ، حتى أصبح قمة من قمم العلم والأدب . وكانت اللغة الأجنبية التى يتقنها هى الإنجليزية . وإنما تعلمها فى السنوات الأولى من الدراسة الثانوية :

هذان المثالان وإن يكونا من عالم الأدب ، فإنهما يجران ذيلهما على عالم العلوم ، وقصدت الإتيان بهما للإلماع إلى جنايه أخرى مما تجنيه الدراسة باللغات الأجنبيه على الحياة الأدبية فى هذا الجناح من الوطن العربى .

إن بلاد المغرب كثيرا ما تشكو من ركود الحركة الفكرية وجمود القرائح وضعف الإنتاج الأدبي وقلة القراء ودور النشر أو انعدامها بالمرة وتأخر في الطباعة العربية وإن كثيرا من الباحثين يعللون ذلك بمختلف الأسباب ولكنهم قلما ينتبهون إلى السبب الرئيسي في ذلك وهو انتشار الثقافة الأجنبية وغزو الفكر الفرنسي لشباب المغرب واختطاف الصحيفة والمجلة والكتاب الفرنسي للقارىء العربي وحلول المكتبات الفرنسية محل المكتبات العربية وعود فائدة ذلك كله إلى الكاتب والناشر الفرنسيين ، ولئن دام هذا ولم يعجل بتلافيه فسوف يصبح المغرب العربي كالسينغال يفكر باللغة الفرنسية وينتج بها ، ولأمر ما نجد المتعلمين بها هم أكثر المتحمسين لازدواجية لغة التعليم والاحتفاظ بتلقين الفرنسية حتى في التعليم الابتدائي كما كان عليه الحال أيام السيطرة الاستعمارية ؛ لأنهم على ما يظهر ، يريدون أن يجعلوها قنطرة بينهم وبين الشعب يتصلون به عن طريقها ويتفاهمون معه بواسطتها ، فهذا ما فعله التعليم باللغة الأجنبية في وطن عربي كبير في الميدان الاجتماعي والقومي ، ولن يكون أثره في المجال العلمي والتقني بأحسن من ذلك أثرا ولا أقل ضررا .

ويورد أناس مشكلة المصطلح العلمي والاختلاف فيه على قلة ما وضع منه ويجعلون ذلك عقبة في طريق تدريس العلوم باللغة العربية ، وما كان المصطلح ولن يكون عقبة في هذا السبيل ، وأمره أهون من ذلك ، فأكثر المصطلحات العلمية عالمية مشاعة بين الأمم على اختلاف لغاتها ونحن العرب لا بد أن نأخذ الكثير منها كما هو من غير ترجمة ، ولسنا في ذلك بدعا من الناس بل إن أجدادنا فعلوا ذلك فقالوا الد وسانتريا والماليخوليا والديابيطس وغيرها من مئات الألفاظ التي لم يغيروها وأبقوها على حالها فضلا عن التي عربوها وأجروها على الموازين العربية. فليسعنا ما وسعهم ، لاسيما والمصطلح ما هو إلا لفظ يحتاج إلى الشرح ولو كان عربيا ، فكيف يقف حجرا في طريق تدريس العلوم بالعربية ؟

ولقد وضع الأفراد والجماعات وأصحاب المعاجم العلمية آلاف المصطلحات التي تسهل مهمة مدرس العلوم ، فما عليه إلا أن يجد في تحصيلها ، وعلى جامعاتنا أن تزود مكتباتها بهذه المعاجم ولوائح المصطلحات وتجعلها بمتناول يد الأساتذة والمدرسين والطلبة والباحثين ، ولا تأخذ أحدا من هؤلاء العزة بالإثم فيترفع عن الاستفادة من جهود العلماء الذين سبقوه في هـذا الصدد ويستغني عن التزود بما قدموه من ثمار يانعة طالما تعبوا في قطفها . فإن العلماء يجب أن يكون خلقهم الإنصاف والاعتراف بالجميل لذويه وما نال من نال إلا بالتعظيم والاحترام لأهل الفضل وما حرم من حرم إلا بترك ذلك

وأحسب أن ما يهول به بعضهم من اختلاف المصطلحات بين البلاد العربية وتعدد الأسماء لمسمى واحد إنما هو من سوء التقدير وحب التشغب ، وإلا فأية لغة ليس فيها ذلك؟ وإنك لتجد المؤلف توضع له اللوائح الخاصة لتقسيم مصطلحاته ومع ذلك ما رأينا أهل لغة يقيمون مثل هذه الضجة التي يقيمها كتاب العربية لتوحيد المصطلحات حتى صارت نهجا متبعا كلما وقع الكلام على تعريب العلوم إلا وأثارها هذا الكاتب أو ذاك، ولو على سبيل التقليد، وهي كانت أحرى بأن تعد اجتهادات مشكورة تعين على التعريب ولا تصد عنه، ولا سيما لمن يشكون من قلة المصطلحات المتعددة وليست من الكثرة بالقدر الذي يدعيه المنكرون .

على أن مجمع اللغة العربية الذي أصبح يمثل البلاد العربية جمعاء قد قام بتصفية الكثير من هذا الخلط، وخطا خطوات مهمة في توحيد المصطلحات المتعددة وانتقاء الأصلح الواضح والدقيق الدلالة منها ، وذلك بمشاركة المجمعين السوري والعراقي ونخبة من أهل العلم والمعرفة من بقية الأقطار العربية الأخرى ، فمن لم يطلع على منجزاته في ذلك فليطلبها من أمانته العامة ولا يبق حائرا يردد كلاما قديما لم يكن على صواب لما قيل لأول مرة. فكيف به الآن وقد صار أسطوانة مملولة ، والظن بل الواجب أن يستمر الوضع للمصطلحات من أهل العلم وأن تتعدد المصطلحات لذلك ولكن مجمع اللغة ذا السليقة العربية والحس اللغوي المشترك من أبناء العروبة في المشرق والمغرب ، هما اللذان يختاران أو يقران ما يصلح . (أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) هذا وفي نفسي شيء أخاف إذا أبديته أن أرمى بالمبالغة وربما بسوء الظن ، ولكني لا بد أن أشير إليه ولو على سبيل الاحتمال البعيد، وهو أني أرى وراء هذه الضجة التي تحتدم في هذه الأيام حول صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم وعدمها أيديا خفية تحركها وتنفخ في نارها وهي أيد ليست مطيعة ولا تريد الخير للعرب ولا للغتهم وإنما أصحابها يرون ويسمعون حيرة بعض الأقطار الإفريقية والآسيوية وخاصة الإسلامية منها التي استقلت أخيرا وملكت أمر نفسها وهي ليس لها لغة تصلح للحياة العامة أولها هذه اللغة وتريد أن تكتبها بحروف ما من الحروف الأوفى لنطقها وهجائها وكثير من هذه الأقطار تتطلع للغة العربية والحرف العربي فلصدها عن هذا التطلع ولتشككها في في قيمة العربية وصلاحية حرفها للكتابة الصحيحة ، يوعز المغرضون بإثارة هذا الموضوع في الصحف والمجلات العربية بالذات ويوحون بطريق غير مباشر إلى بعض أوليائهم ومالي لا أقول بتواطؤ مع بعضهم إلى الجهر بالحكم على العربية وحرفها بالعجز والقصور عن مسايرة ركب الحضارة

العصرية وعدم الكفاية لما يتطلبه المد الثورى الذى يكتسح البلاد العربية من تطور فى وسائل تحقيق البعث العربى: المادية والمعنوية ومنها أداة التعبير الملائمة للعصر.

إن أولئك الإخوان الأفارقة والآسيويين إذا سمعوا العرب أنفسهم يرددون هذا الكلام ويتهمون لغتهم أشنع الاتهام لا بد أن يقر فى أنفسهم ما يلقيه إليهم المستعمر الذى جلا عن أرضهم من الباب وعاد يدخل إليها من النافذة. لاسيما وهو ما يفتأ يمدهم بالعون والخبرة المدخولة. ويقدم إليهم المشروعات الجاهزة فى هذا الطلب وغيره من مطالب الحياة ولذلك فإن المتأنى والمتثبت منهم هو الذى يرجئ مسألة اتخاذ العربية لغة رسمية له واصطناع الحرف العربى لكتابتها وغيره يعزم ولا ينتظر ومن ذلك ماجرى أخيرا لدى بعض الدول فى أفريقيا من عقد مؤتمر تحت رعاية منظمة اليونسكو للنظر فى وضع أبجدية لكتابة لغاتها وتوحيدها وهكذا نضيع على أنفسنا وعلى أصدقائنا فرصا ثمينة لا تعوض جدالنا وتنازعنا فى هذه الأمور. وكان الأحرى بنا أن نغتنم هذه الفرصة لبسط نفوذنا الروحى فى أقطار العالم. وكنا أحرياء بذلك أن نرفع رأسنا فخرا بما لدينا من ثقافة عالمية ولغة حية تعمل أكثر لغات العصر تقدما

لكسب ما لها من مقام وحرمة وتأثير فى حياة عدد من الشعوب المنتشرة فى أطراف المعمورة

ولا يقال إن هذا الكلام عاطفى فى مجال علمى فإن العلم كل العلم أن ننهض بلغتنا وننشرها على أوسع مدى كما تفعل الأمم الراقية ولو لم يكن فى تبنى لغتنا وحرفنا من طرف أمم أخرى غير عربية إلا التثبيت وزيادة الإيمان للمؤمنين وإقناع الشاكين المترددين. لكان ذلك كافيا لحرصنا عليها وعملنا على رفع لوائها فى كل مكان. ولقمنا نتعاون مع هذه الأقطار الراغبة فى تعلم العربية بوضع برامج سهلة وميسرة لتعليمها لأبنائها. وبنشر مجموعة من الكتب المنتقاة التى تطلعهم على كنوز الثقافة العربية. لنجعلهم يتذوقون الأدب العربى قديمه وحديثه ويتصلون شيئا فشيئا بالفكر العربى والتراث الإسلامى حتى يندمجوا. ولو بعض الشىء. فى الشعب العربى ويصيروا من أخلص أصدقائه وأقرب الناس إليه

إن هذا «تكتيك» وليس عاطفة ولكنه مطلب من العمل قدر ما عندنا من القول «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» صدق الله العظيم

عبد الله كنون
عضو المجمع من المغرب

ترتيب الحروف الأبجدية بين المشارقة والمغاربة

للدكتور عبد الهادي التازي

من المعلوم أنه كان للمغاربة والأندلسيين ترتيب للحروف الهجائية بل والأبجدية غير ترتيب المشارقة كما لاحظه أكثر من واحد من أمثال ابن عبد الملك المراكشي وابن خلدون والقلقشندي

ففيما يتعلق بالحروف الهجائية نجد أن المغاربة مع المشارقة يتحدون إلى حرف الزاي الذي يليه عند المغاربة .

ط — ظ — ك — ل — م — ن — ص — ض — ع — غ — ف — ق — س — ش — هـ — و — لا — ى

بينما المشارقة يجعلون بعد الزاي :

س — ش — ص — ض — ط — ظ — ع — غ — ف — ق — ك — ل — م — ن — هـ — و — لا — ى

إن هذا الخلاف بين أهل العالم الإسلامي في هذا الموضوع إذا ما قارناه بالاتفاق الشامل بين الشرق والغرب فيما يتعلق بترتيب حروفهم هو الذي دفع بي لهذا التدخل .

وهكذا فإذا ما قمنا بهذه المقارنة فسنشعر أن من واجبنا أن نتخذ قراراً — نحن المجمعيين — بتوحيد الترتيب بين أهل المشرق والمغرب وفي جمع وثائقنا على وتيرة واحدة عامة شاملة .

وفيما يتعلق بترتيب الحروف الأبجدية نلاحظ أيضاً خلافاً بين المشرق والمغرب .

وإذا ما كان الخلاف في موضوع الحروف الهجائية أمراً قد يتساهل فيه فإن الخلاف في ترتيب الحروف الأبجدية يعتبر من الخطورة بمكان . لأن الحروف تعني أرقاماً معينة وإذا اختلفت الأرقام فيما ينبغي أن تتحد فيه فهناك يكون الاضطراب على أشده .(*)

ولكي أوضح فكرتي أذكر أن هناك ستة حروف من أبجد تختلف قيمتها العدديه بين المشرق والمغرب مما سبب في بعض

(*) قدم البحث إلى مؤتمر المجمع في دورته الحادية والخمسين .

مقاطع مقدمة ابن خلدون ارتباكاً سواء في التواريخ أو في بعض القيم

ونقدم هذا الجدول للمزيد من التوضيح، وهو يتناول الحروف الستة التي يختلف فيها المغاربة مع المشارقة:

قيمه الحروف حسب الترتيب المغربي

ص	60
ض	90
س	300
ظ	800
غ	900
ش	1000

قيمه الحروف حسب الترتيب المشرقي

ص	90
ض	800
س	60
ظ	900
غ	1000
ش	300

لنتصور ابن خلدون يتحدث في مقدمته — وهو يتكلم عن الفتره التي تستمر فيها الملة — يذكر رقما يشير إليه بالحروف الأبجديه حسب الترتيب المغربي، فيقوم بعض المعلقين[1] لترتيب الأرقام المقدمه من ابن خلدون باعتبارها لا تتفق مع القيمه العدديه المعطاه لتلك الحروف وكأن هذا المعلق لا يعرف أن هناك خلافاً بين وجهة النظر المغربية ووجهه القطر المشرقية. ولنتصور اليوم مثلا أن أحد المؤرخين المعاصرين يتحدث عن تاريخ إنشاء مسجد محمد — عام 1830 — ويريد أن يؤدى ذلك بالحروف الأبجديه عوض الأرقام فيجب عليه أن يقول، حسب الترتيب المشرقي عام (لصغ) التي تكون عند المغاربه عام 1120، أي ينقص عشر سنوات وسبعمائه سنة

ولو سمحنا للمغاربه بأداء ذلك بواسطة أبجديتهم المعروفة لكان علينا أن نسمع عام: (شطل) وليس (لصغ)

هذا تدخلي وإن ما ألتمسه من السادة أعضاء المجامع هو إصدار توصية بضروره توحيد ترتيب الحروف الهجائية وكذا الأبجدية بين سائر البلاد التي تستعمل اللغة العربية.

ولا بد أن يعلن عن التوصية وهي محددة العمل ابتداء من تاريخ معين، مثلا: ابتداء من بداية المحرم 1405 — الذي يوافق اليوم 27 من شتنبر 1984

وهكذا نقوم بإدخال تحسين حاسم وهام على لغتنا العربيه تشترك فيه سائر الدول العربيه وتعمل على نشره وإذاعته وتعميمه.

عبد الهادي التازي
عضو المجمع المراسل
من المغرب

(١) تراجع مقدمة ابن خلدون طبعه دار الكتاب اللبناني ص 597

في تعريب التعليم العلمي الجامعي

للدكتور إسحاق الحسيني

لم تعن السلطة — في أثناء الانتداب البريطاني على فلسطين — بالتعليم العالي، كما هو شأن السلطة في مصر وجميع بلاد المغرب العربي كان التعليم أشبه بهرم عريض القاعدة دقيق القمة فلم يوجد في فلسطين سوى معهد عربي واحد اسمه (الكلية العربية) في القدس، لتخريج معلمين للصفوف الابتدائية وفي أواخر عهد الانتداب أصبح التعليم ثانويا كاملا في عدد محدود من المدن أما سائر المدن الصغيرة والقرى، فوقف التعليم فيها عند المرحلة الابتدائية

ووجد إلى جانب المدارس الحكومية مدارس أهلية معظمها عربية . تدرس بالإنجليزية أو الفرنسية تقف كلها إلى حد الشهادة الثانوية المعروفة « بالمتريك » :

ووجدت مدرستان وطنيتان هما (روضة المعارف) في القدس تحت رعاية المجلس الإسلامي الأعلى . ومدرسة (النجاح) في نابلس وكانتاهما ثانويتان وأنشأت الثانية فرعا لتدريب المعلمين في أواخر أيامها

كانت لغة التدريس في المدارس الحكومية هي العربية . أما المدارس الأجنبية فكانت لغة التدريس فيها لغة غربية .

ولكن الإسرائيليين استقلوا عن الحكومة منذ البداية ففي سنة ١٩١٨ أنشأوا (الجامعة العبرية) في القدس التي ظلت تنمو وتتقدم حتى شملت جميع الكليات المتخصصة من طب وصيدلة وهندسة وزراعة وآداب وعلوم وما إلى ذلك. ونشأت إلى جانبها معاهد ومدارس ابتدائية وثانوية. لغة التدريس فيها جميعا اللغة العبرية، سواء أكانت جامعية أم ثانوية ، ثم تأسست بعد ذلك جامعة حيفا وجامعة تل أبيب وجامعة النقب وجامعة بار ايلان، مضافا إليها عدد من مراكز الأبحاث العلمية والتاريخية .

(*) قدم البحث إلى مؤتمر المجمع في دورته الحادية والخمسين .

وحدث بعد الاحتلال الإسرائيلي لما تبقى من فلسطين المعروف بالضفة والقطاع سنة ١٩٦٧ تطور مدهش في التعليم العالي لم تعرف البلاد له مثيلا ويرجع ذلك إلى عدة أسباب :

أولا : غريزة الدفاع عن النفس إزاء التحدي السياسي والحضاري الذي لمسه العرب وواجههم في مختلف ميادين الحياة .

ثانيا صعوبة السفر إلى البلاد العربيه والجامعات الغربية وكلفتها العاليه .

ثالثا : ازدياد الطلب على المتعلمين في دول الخليج العربي والسعودية وليبيا والرواتب المغرية التي تدفعها .

رابعا : النمو الطبيعي لمعاهد سابقة جاءها دعم مادي من الخارج .

والجامعتان الرائدتان هما (جامعة النجاح) في نابلس (وجامعة بير زيت) في بلدة بير زيت في قضاء رام الله

أسست (النجاح) سنة ١٩١٨ مدرسة ابتدائية ثم أضحت ثانوية كاملة سنة ١٩٤١ ، وكلية تضم معهدا للمعلمين سنة ١٩٦٥ ، وجامعة ذات خمس كليات (آداب وعلوم ، واقتصاد ، وعلوم إدارية وتربية ، وهندسة) سنة ١٩٧٧ وعدد طلابها سنة ٨٣/٨٢ : ٢٣٩١ طالبا .

وأسست مدرسة (بير زيت) سنة ١٩٢٤ مدرسة ابتدائية ثم تطورت إلى مدرسة ثانوية فكلية متوسطة فجامعة ذات أربع كليات (آداب ، وعلوم ، وتجارة ، وهندسه) سنة ١٩٧٢ ، وعدد طلابها من التاريخ نفسه ٢٠٣٧ طالبا .

وتوالت بعد ذلك الجامعات والمعاهد العالية فأنشأ سنة ١٩٧٣ إخوة دي لاسال من بيت لحم ، والقاصد الرسولي في القدس ، والسدة البابوية (جامعة بيت لحم) ذات أربع كليات (آداب وعلوم وإدارة أعمال وتمريض) مضافا إليها دراسة متوسطة في الفنادق والإرشاد الصحي ورياض الأطفال وعدد طلابها من التاريخ نفسه ١٢١٦ طالبا .

وافتتحت في غزة سنة ١٩٧٨ (جامعة غزة الإسلامية) امتدادا لمعهد فلسطين الديني (الأزهر) ذات ست كليات (الشريعة والقانون ، الدعوة وأصول الدين ، اللغة العربية ، العربية ، التربية ، التجارة ، العلوم) . وعدد طلابها في التاريخ نفسه ٢٣٩٧ طالبا .

وتأسست في مدينة الخليل سنة ١٩٨٠ (جامعه الخليل الإسلامية) امتدادا لكلية الشريعة المؤسسة سنة ١٩٧١ ، ذات كليتين (كلية الشريعة وكلية الآداب) وتخطط اليوم لإنشاء كلية ثالثة للزراعة وعدد طلابها من التاريخ نفسه ١٦٥٠ طالبا .

ومن سنة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ اتحدت أربع كليات من ضواحي القدس مكونة (جامعة القدس) والكليات هي :

أولا· كلية الدعوة وأصول الدين في بيت حنينا ـ من صواحي القدس ـ أنشئت سنة ١٩٧٨ وتضم فرعين، هما: الدعوة وأصول الدين واللغة العربية ؟

ثانيا : كلية العلوم والتكنولوجيا في قرية أبو ديس (قضاء القدس) أنشئت سنة ١٩٨١ امتدادا للمعهد العلمي العربي، الذي تأسس قبيل الاحتـــلال ، ويضم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الحياتية ، الحاسب الالكتروني والتكنولوجيا الكيميائية والطبية والإلكترونية

ثالثا : الكليات العربية للعلوم الطبيه تأسست سنة ١٩٧٩ وتضم التمريض والطب المخبري والصحة العامه .

رابعا . كلية الآداب للبنات في القدس تأسست سنة ١٩٨٢ امتدادا لمعهد الخدمه الاجتماعية ومؤسسه دار الطفل العربي التي قامت سنة ١٩٤٨ لإيواء أطفال مذبحة دير ياسين وتضم اللغة العربية واللغة الإنجليزية والخدمه الاجتماعية وتسعى لإنشاء أقسام أخرى حسب حاجة البلاد .

وعدد طلاب جامعة القدس بكلياتها الأربع ٩٧٩ طالبا وطالبة .

وتوجد إلى جانب هذه الجامعات ثلاثة معاهد، هي . المعهد المهني الهندسي (البوليتكنيك) في مدينة الخليل ، تأسس سنة ١٩٧٨ ويشمل الهندسة المدنية والمعمارية والميـــكانيكيه والكهربائية ، والمعهد الشرعي في القدس تأسس سنة ١٩٧٥ فرعا من فروع المعهد الشرعي في عمان ، والمعهد الشرعي في قلقيلية نظير المعهد السابق تأسس سنة ١٩٧٨

والتعليم في جميع الجامعات والمعاهد مشترك للذكور والإناث ما عدا (كلية الآداب للبنات) .

لا شك في أن جميع هذه الكليات والمعاهد تتجه اتجاها قوميا لأسباب طبيعية لا تخفى على أحد (فجامعة بير زيت) التي تميل إلى محاكاة الجامعات العربية أكثر من غيرها ، نصت في مقدمة دليلها العام لسنة ١٩٨٤ على ما يلي : « تهدف الجامعة إلى تهيئة الطلبة ليكونوا مواطنين صالحين فعالين في المجتمع ، قادرين على تحمل المسئوليه ومواجهة تحديات المستقبل ، ولذلك فإنها تشجع الطلبة على الإبداع والإتقان في العمل ، كما أنها تحرص على تنشئة صلتهم بمجتمعهم وتنمية روح التعاون فيهم ، وتعمل الجامعة على تنشئة الطلبة في جو من التراث العربي الوطني » .

ورغم ذلك فإنها تدرس جميع مواد الدراسه -- المساقات - باللغة الإنجليزيه ودائرة اللغة الإنجليزية هي أوسع الدوائر

فيها، إذ تضم ثلاثة وأربعين معلما وربعهم تقريبا غير عرب . في حين لا يتجاوز عدد المعلمين في دائرة اللغة العربية اثني عشر معلما، وقيل إن أحد أساتذة التاريخ فيها أراد أن يدرس التاريخ بالعربية فلم تستحب الجامعة .

ولا تنفرد جامعة بير زيت بالتدريس باللغة الإنجليزية، فقد أراد أول رئيس لكلية العلوم والتكنولوجيا في أبو ديس أن يعرب التعليم ولم يوفق . إذ ما كاد يترك الكلية ويتولى رئيس آخر حتى انتهى التعريب وبدئ بالتدريس باللغة الإنجليزية ، ولا أعتقد أن ذلك راجع إلى اتجاه قومي أو غير قومي بل إلى أسباب علمية فنية .

والحق أن لأنصار « التغريب » — التعليم بلغة غربية — حججا قوية رغم أن الجامعات العربية ترى أن الجامعات العبرية كلها تدرس بالعبرية لجميع طلابها، سواء أكانوا يهودا أم عربا .

وما الحجج التي يسوقها أنصار التعريب ؟

أولا : إن العلوم تتطور في الغرب بسرعة فائقة ولا يمكن للترجمة أن تلحق بالتطور . لا سيما في العلوم والتكنولوجيا .

ثانيا إن جميع المصادر تكاد أن تكون كلها غربية .

ثالثا إن الأساتذة الغربيين الدائريين لا يعرفون العربية

رابعا إن الطلبة الذين يحصلون على الشهادة الجامعية الأولى — الليسانس — يتمون دراستهم في الجامعات الغربية لفقدان الدراسة العليا في البلاد .

خامسا . إن التعريب وسيلة لتحديث العقلية العربية في عصر التحدي الداخلي والخارجي .

سادسا إن معظم الأساتذة تخرجوا في جامعات غربية وألفوا الدرس باللغة الغربية فلا بد من وقت لترويض ألسنتهم على إلقاء المحاضرات بالعربية هذا إن تيسرت لهم المصطلحات العربية .

أما أنصار — التعريب — وهم إلى الآن قلة — فيبدون الحجج التالية :

أولا إن لغة الأم هي اللغة المثلى لاستيعاب المعارف .

ثانيا إن التغريب قد يؤدي في بعض الحالات على الأقل إلى الغربة عن المجتمع وفقدان التلاحم مع الشعب الذي يعاني من الأمية لغة وثقافة :

ثالثا . إن التعريب وسيلة فعالة لربط الحاضر بالماضي وبعث التراث العلمي الذي بلغ مرتبة عالية في تاريخ العرب .

رابعا : إن الدراسة الثانوية فى معظم المدارس باللغة العربية، والتغريب يحدث انكسارا حادا فى الاتجاه التعليمى .

خامسا . إن اللغة العربية استطاعت أن تتجاوز تلك العقبات فى مرحلة قصيرة وأن تصبح لغة العلم والتعليم الوحيدة رغم ما بينها وبين العربية من فارق إذ بعثت الأولى من رقاد دام قرونا كثيرة ، ولم يحدث للعربية مثل هذا الرقاد، فقد كانت لغة العلم شرقا وغربا فى القرون الوسطى ثم تراخت فى بعض العصور فقط .

والحق أن لكل حججه القوية ويبدو أن هناك حلا وسطا يرى، أن التعريب يمكن أن يمر فى ثلاث مراحل : الأولى أن تكون اللغة العربية لغة تدريس العلوم التكنولوجية مدة قصيرة من الزمن ولكن يجب أن يكون تدريس معظم العلوم الإنسانية باللغة العربية وحدها ، وفى المرحلة الثانية يدرس باللغتين أى أن يستعين المعلم بالكتاب العربى والأدوات العربية ويشرح بالعربية ، كما هو واقع فى اليابان مثلا ، وفى المرحلة الثالثة يكون التدريس بالعربية بعد أن يتوافر الأساتذة الذين درسوا العربية ، وألفوا بها ووقفوا على مصطلحات العلوم ، أى بعد أن يتكون جيل جديد يقف على قدم المساواة مع الأساتذة والباحثين الغربيين . وهذه المرحلة الثالثة مرحلة طبيعية تشرئب إليها الأعناق وتتواءم مع طموحنا القومى ، ونحن على ما يبدو سائرون فى هذا الاتجاه بخطى ثابتة وقد قطعت سوريا شوطا كبيرا فى هذا المضمار ، وتلتها مصر العربية ، ومن الواضح أن المصلحة تقتضى أن لا يضحى العلم فى سبيل اللغة وأن لا تضحى اللغة فى سبيل العلم وخاصة اللغة العربية ، لأنها لغة ديننا وقوميتنا وتراثنا وأقوى رابطة بقيت لنا فى عصر التحدى الخطير .

اسحق موسى الحسينى

عضو المجمع من فلسطين

